

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اَئِمَّةِ اَلْاُمِّيَّةِ جَامِعَةٍ

العدد السادس والخمسون • السنة الرابعة عشرة • جمادى الأولى - رجب ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ = ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

[WWW.ahl-ul-bayt.org](http://WWW.ahl-ul-bayt.org)

البريد الإلكتروني للمجلة: [Tahrir-thaqalayn@hotmail.com](mailto:Tahrir-thaqalayn@hotmail.com)

البريد الإلكتروني لإدارة المجلات: [Bc@ahl-ul-bayt.org](mailto:Bc@ahl-ul-bayt.org)

## محتويات العدد

### □ كلمة التحرير

#### \* الإنصاف طريقٌ إلى تحقيق الانسجام

رئيس التحرير ٤ .....

### □ ملف العدد : ( أطروحة الانسجام الإسلامي )

#### \* من أريج القيادة الحكيمة

إعداد: قسم الأرشفة ١١ .....

#### \* مذكرات في التقريب والوحدة، المنهج التقريبي السليم

مرتضى علي الباشا ٢٥ .....

#### \* مشكلة التقريب وأزمة المقاربات، رؤية موجزة حول المقاربة التاريخية والأصولية

إدريس هاني ٣٩ .....

### □ دراسات فكرية:

#### \* الإمام الخميني رحمته الله وكرامة الإنسان

جوادي آملي ٥١ .....

#### \* البيعة في المنهج الإسلامي، أسس ومبادئ ومقومات

سعيد كاظم العذاري ٦٢ .....

#### \* وقفة موضوعية مع حديث البضعة

باقر الفخار ٩١ .....

#### \* التفسير الموضوعي والكلام الحديث

شكيب علي بن بديرة ٩٨ .....

### □ بحوث كلامية وقرآنية:

#### \* مبدأ الهداية الربانية، معالم النظرية، خصائص المسيرة، أهم المنجزات

منذر الحكيم ١٢٢ .....

• تعنى بالدراسات والنتائج الفكرية، خصوصاً التي تصب في خانة الدفاع عن حريم القرآن الكريم والنبى صلى الله عليه وآله الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.

• تستقبل رسالة الثقلين نتائج العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:

◀ أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجياً ومضموناً.

◀ أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.

◀ أن لا تكون عملاً مكرراً، بل لا بد أن تحتوي على شيء من التجديد والحدثة. والأولوية دائماً للدراسات الفكرية المستحدثة.

◀ أن لا تنقص عن عشرة صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصفحة الواحدة تتضمن (٢٥٠) كلمة.

◀ أن تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحة واحدة.

• الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.

• تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنية محضة.

• لا تعاد المقالات المرسلة إلى المجلة، نُشرت أم لم تشر.



المجمع العالمي للإسلام والتنمية

المشرف العام  
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن  
المعاونية الثقافية - إدارة المجلات

رئيس التحرير  
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير  
السيد علي الموسوي

العدد السادس والخمسون  
السنة الرابعة عشرة  
جمادى الأولى - رجب  
١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المطبعة: ليلي - طهران  
٠٠٩٨ - ٢٢ - ٩٢٤٨٥١٨٢ ☎

\* مفهوم الإحباط على ضوء القرآن الكريم

١٣١ ..... خالد الغفوري

\* تنزيه القرآن لنبي الله هارون عليه السلام، شبهة وجواب

١٤٣ ..... رئيس التحرير

□ وجهة نظر:

\* فتح الإسلام، الورقة الأمريكية الجديدة في لبنان

١٤٩ ..... أبو علي العاملي

□ رجال صدقوا:

\* أبو خالد الكابلي، من حوارَي الإمام السَّجَّاد عليه السلام

١٦٨ ..... أبو حسن

□ تحقيقات:

\* إطلالة مختصرة على كتاب رياض السَّالِكِينَ في

شرح صحيفة سيد السَّاجِدِينَ عليه السلام

١٧٦ ..... علي أحمد الحسن

\* مكتبة السيِّد المرعشي، نتاج ضخم وصرح ثقافي

كبير

١٩٣ ..... إعداد: قسم التحقيق

□ حكايات الانتصار:

\* مارون الراس عصية على الأرجاس

٢٠٥ ..... حسن دقيق

□ نعل وتغزية:

\* العلامة اللخكري، رجل العلم والجهاد

٢٣٦ ..... هيئة التحرير

□ متابعات ثقافية:

\* الشيفرة القرآنية / موسوعة الصَّحيفة السَّجَّادية

٢٤٠ ..... هيئة التحرير

## الإنصاف

### طريقٌ إلى تحقيق الإنسجام

□ بقلم: رئيس التحرير

الإنسجام الإسلامي مفردةٌ أطلّت على السّاحة الفكرية والسياسية في العالم الإسلامي على لسان قائدٍ حكيم، يعيشُ هموم الأمة، ويُراقب التّوازن التي تنزل بها بعين البصيرة، ويدرس المعطيات؛ ليضع لها الحلول الشّافية، ويبلسم للأمة جراحاتها النّازفة.

من هذا المنطلق كانت الدّعوة التي نادى بها وليُّ أمر المسلمين ﷺ في العام الهجري الشمسي الجديد، قد جاءت والعالم الإسلامي بأمسّ الحاجة إليها..

جاءت في وقتٍ تكالبت فيه أدمغة أعداء الأمة على وضع الخطط لجرحها إلى أتون فتنةٍ عمياء يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصّغير، ويكدح فيها مؤمنٌ حتّى يلقي ربّه.

ونحن نجد في هذه الأطروحة التي تنبع من صميم الإسلام، أعني: أطروحة «الإنسجام الإسلامي» أنّها أوّل الغيث الذي تحتاج الأمة إلى استثمارها، والاستفادة منها على أكمل وجهٍ.

ومن بوادر الاستثمار الجدّي لهذه الأطروحة الحكيمة أن يضع مفكّرو هذه



الأُمَّة وَمَنْ يَهْمُهُ الْأَمْرُ فِيهَا دَرَسَاتٍ جَذَرِيَّةٌ، وَبِرَامِجٍ عَمَلِيَّةٌ، تَسْتَطِيعُ الْأُمَّةُ بِوِاسْطَتِهَا أَنْ تَصِلَ إِلَى شَطِّ أَمَانِهَا، وَتَتَخَلَّصَ بِمَا يَعْصَفُ بِهَا مِنْ فِتْنٍ طَائِفِيَّةٍ دَامِيَّةٍ، يَرَادُ مِنْهَا الْقَضَاءُ عَلَى قُوَّةِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ؛ لِتَرْبِيعِ الْإِسْتِكْبَارِ عَلَى خَيْرَاتِ بِلَادِنَا الْكَثِيرَةِ، وَنَصْبِيحَ أُمَّةً ذَلِيلَةً تَسْجُدِي الْأُمَمَ وَالشُّعُوبَ.

وَفِي هَذِهِ الْوَرَقَةِ الْإِفْتِتَاحِيَّةُ - الَّتِي عَوَّدْتُ «رِسَالَةَ الثَّقَلَيْنِ» قِرَاءَهَا الْأَعْزَاءَ عَلَى أَنْ تَتَنَاوَلَ فِيهَا أَهَمَّ الْمَوَاضِيعِ الْحَسَّاسَةِ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَوْ عَنْ طَرِيقِ دَعْوَةِ الْمَفْكَرِينَ وَلَفَتْ نَظَرَهُمْ إِلَى مَا تَرَاهُ يَمَسُّ وَاقِعَ الْأُمَّةِ وَاحْتِيَاجَاتِهَا - نَجِدُ أَنْفُسَنَا مُلْزَمِينَ إِلَى التَّطَرُّقِ لِهَذِهِ الْأَطْرُوحَةِ الْحَسَّاسَةِ الَّتِي تَنْعَكِسُ عَلَى مَصِيرِ الْأُمَّةِ.

### فَضِيلَةُ الْإِنْصَافِ فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ

هَذَا، وَقَدْ كُتِبَ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ تَارَةً تَحْتَ عُنْوَانِ «الْوَحْدَةِ»، وَأُخْرَى تَحْتَ عُنْوَانِ «التَّقْرِيبِ»، وَثَالِثَةً تَحْتَ عُنْوَانِ «الْإِتِّلَافِ» وَ.. وَلَكِنَّا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَسْتَنْطِقَ النُّصُوصَ الْوَارِدَةَ عَنِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ لَوْجَدْنَا أَنَّ أَوَّلَ الطَّرِيقِ إِلَى وَحْدَةٍ وَانْسِجَامٍ حَقِيقِيٍّ يَكُونُ خَارِجاً عَنْ أُطُرِ الشُّعَارَاتِ - الَّتِي وَإِنْ كَانَتْ مَطْلُوبَةً نَوْعاً مَا، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَكْفِي فِي مَقَامِ التَّدَافُعِ مَعَ الْخَطَطِ الْمُضَادَّةِ الَّتِي تَحَاكُ مِنَ الْأَعْدَاءِ؛ لِأَجْلِ إِسْقَاطِ أَفْرَادِ أُمَّتِنَا فِي نَقِيعِ الْفِتْنَةِ الدَّمَوِيَّةِ - إِنْ لَمْ نَقْلِ إِنَّهُ الطَّرِيقُ الْوَاحِدُ الَّتِي تَتَمَيَّزُ بِهِ الْأُمَّةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي يَقُولُ عَنْهَا الْبَارِي ﷻ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وَهَذَا الطَّرِيقُ لَيْسَ إِلَّا هُوَ طَرِيقُ الْإِنْصَافِ عَلَى جَمِيعِ الْمَسْتَوِيَّاتِ، الْإِنْصَافِ الَّذِي أَوْصَى بِهِ رَسُولُ الْبَشَرِيَّةِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أُمَّتَهُ مِنْ خِلَالِ وَصِيَّتِهِ لِابْنِ مَسْعُودٍ، حَيْثُ قَالَ: «يَا ابْنَ مَسْعُودَ! أَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَأَنْصَحِ الْأُمَّةَ

وارحمهم، فإذا كنتَ كذلكَ وغضبَ الله على أهل بلدةٍ أنتَ فيها، وأراد أن يُنزلَ عليهم العذاب، نظر إليك فرحمهم بك، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

فانظر أيَّدك الله! كيف أنَّ الله تبارك وتعالى يدفع العذاب عن النَّاس ببركة التَّنَاصُف والتَّنَاصِح فيما بينهم، فحريٌّ بأمَّتنا في عصرنا الحاضر أن تعود إلى تعاليم نبيِّها نبيِّ الرَّحمة؛ لتكون أُمَّةً متناصفةً متراحمةً، فتقضي بذلك على أشدَّ خطط الأعداء مهما كانت محكمةً وفاعلةً.

وفي حديثٍ آخر جعل - صلوات الله عليه وعلى آله - الإنصاف من متمِّمات الإيمان، فقال: «ثلاثٌ من الإيمان: الإنفاق في الإقتار، وبذل السَّلام للعالم، والإنصاف من نفسك»<sup>(٢)</sup>.

وعن عمَّار أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسه، وبذل السَّلام»<sup>(٣)</sup>.

وفي ذيل هذا الحديث إشارةٌ صريحةٌ إلى أنَّ الإسلام دين السَّلام، وليس دين الإرهاب، كما يحاول البعض إلصاق هذا التَّهمة به قولاً وعملاً.

وقد جعل أمير المؤمنين عليه السلام الإنصاف أفضل الفضائل على الإطلاق<sup>(٤)</sup>، ولم يكتفِ بذلك، بل جعل علامة المروءة إنصاف الأعداء فضلاً عمَّن يُشاركنا في رابطة الدِّين أو الوطن، فقال عليه السلام: «لم يتَّصف بالمروءة من لم يرعَ ذمَّةَ أوليائه، وينصف أعداءه»<sup>(٥)</sup>.

### الأخوة والانسجام لا يحصلان إلا بالتَّنَاصِف

الأخوة الواقعيَّة تحتاج إلى أركانٍ ثلاثة:

أحدها: أن يكون الحاكم بين الأخوين هو العدالة والإنصاف، فلا يطغى أحدهما على الآخر، ولا يظلم أحدهما الآخر؛ وليس ذلك إلا لأنَّ الظُّلم

والاعتداء وتجاوز حدود الأخوة والصداقة يوجب التناذر والتباعد، ومعه لا يبقى من الأخوة إلا رسمها، ومن الصداقة إلا اسمها، فتجد المظلوم منها يستغل الفرصة لينتقم ممن ظلمه، والحال أنه يفترض به أن يكون أحاً له في الدين أو الوطن.

ثانيها: التراحم فيما بينهما؛ حيث إن الإنصاف والعدالة لا يكفیان لتوثيق عرى الأخوة وتمتينها، فلا بد من أن يكون أحدهما رؤوفاً ورحيماً بالآخر؛ حتى تلين عريكتها، وتنصهر نفسيهما.

ثالثها: نفي الحسد فيما بينهما؛ لأن الحاسد يتمنى زوال النعمة عن أخيه، ويسعى لذلك سعيه، وما كان هذا شأنه، وعليه دأبه وديدنه، كيف يتوقع منه أن يحافظ على حق الأخوة.

وإلى هذه الأركان الثلاثة يشير مولانا الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «تحتاج الأخوة فيما بينهم إلى ثلاثة أشياء، فإن استعملوها وإلا تباينوا وتباغضوا، وهي التناصف، والتراحم، ونفي الحسد»<sup>(٦)</sup>.

هذا، ولكي يتضح دور الإنصاف في إيجاد الإنسجام بين أبناء الأمة الإسلامية أفراداً وجماعات، نذكر بعض النماذج على الإنصاف المتروك عند الكثير من أهل الفكر فضلاً عن عوام الأمة الإسلامية.

#### (١) ترك الإنصاف على مستوى الإسناد

مما يؤسف له ما يقع فيه الكثير من الكتاب والمفكرين في مقام الحديث عن الرأي الآخر؛ حيث نجدهم يغفلون مصادر الرأي الآخر بالكُلِّية، بل ربما يستفيدون من مصادر منافريهم في مقام التعريف بهم. وهذا الأمر - مع قطع النظر عن عدم مقبوليته دينياً، كما تدل عليه نصوص الإنصاف المتقدمة - مخالف لأولى بديهيات فن التحقيق والكتابة؛ حيث يعد ذلك من الرجوع إلى المصادر

الثانوية مع التمكن من المصادر الأصلية.

ومما لفت نظري في مجال ترك الإنصاف على مستوى الإسناد ما جاء في «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة» الصادرة عن الندوة العالمية للشباب الإسلامي في المملكة العربية السعودية؛ حيث إنه عندما أراد الكاتب أن يتكلم عن الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، لم يورد أي مرجع شيعي يُعرف بتلك الفرقة، بل نجد أن مراجع التوسع التي أتى بها كلها من غير الشيعة، بل بعضها ممن اشتهر كاتبه بعدائه لهم<sup>(٧)</sup>.

وعلى العكس من ذلك نجده عندما يُريد أن يُعرف بالمذاهب والفرق المنحرفة بنظر المسلمين كافة، فإنه يعتمد بالدرجة الأولى على مصادر أصحاب هؤلاء الفرق أنفسهم، أو على مصادر تعتبر محايدة، كما هو الحال في حديثه عن السيخية، وشهود يهوه، والفرويدية (FREUDISM)، والرأسمالية (CAPITALISM)، وغير ذلك مما جاء في الموسوعة ويراها الكاتب المنصف بأم عينه.

## ٢) ترك الإنصاف على مستوى التعميم

مما يؤسف له - أيضاً - ما نجده بوضوح عند الكثير من الكتاب من أنهم ينسبون إلى عموم مذهب ما تفرد به بعض أتباع ذلك المذهب مع مخالفة جميع علماء مذهبه له.

وأبرز مصداق على ذلك تلك المسألة الوهمية التي لا أساس لها كنظرية عامة، أعني: مسألة الاعتقاد بتحريف القرآن، فربما يكون قد ذهب إليها بعض الآراء الشاذة من الفرقتين العظيمتين في الأمة الإسلامية (السنة والشيعة)، إلا أن مقتضى الإنصاف والأمانة العلمية أن لا ننسب هذا الرأي الشاذ إلى إحدى هاتين الفرقتين؛ لمجرد تبنيّه من قبل أحد أتباعها، مع تصريح الآخرين ببطلانه.



### ٣) ترك الإنصاف بعدم التراجع عن الخطأ بعد وضوحه

ومن أمثلة ذلك ما ورد في الموسوعة الأنفة الذكر؛ حيث ورد فيها في سياق الحديث عن رجالات الشيعة: «آية الله الخميني: من رجالات الشيعة المعاصرين، قاد ثورةً شيعيةً في إيران تسلمت زمام الحكم ... رفع شعارات إسلامية عامة في بداية الثورة، إلا أنه ما لبث أن كشف عن نزعة شيعية متعصبة ضيقة قادت البلاد إلى حربٍ مدمرة مع جيرانهم العراقيين»<sup>(٨)</sup>.

ولكن القاصي والداني قد بات يعرف أسباب افتعال هذه الحرب، ومن هو الذي كان أداة بيد الاستكبار لتحقيق مآربهم، ومع ذلك قد جدد طبع تلك الموسوعة من دون تصحيح، فضلاً عن الاعتذار. هذا، ولل كلام صلة لا تتحمل هذه الافتتاحية، خصوصاً بعد كون المقصود الإثارة دون الاستيعاب.

وفي الختام: تدعو مجلة «رسالة الثقلين» أصحاب الفكر والقلم في جميع أقطار العالم الإسلامي، بشتى فئاتهم ومذاهبهم أن يتخذوا سبيل الإنصاف في كتاباتهم حول بعضهم البعض، كما أوصانا بذلك النبي الأعظم ﷺ؛ لكي نسد الطريق على الأعداء باللعب بمصير هذه الأمة عن طريق إشعال الفتن الدامية، التي لا تأتي على شيء إلا ودمرتة وجعلته هباء منثوراً.

\* \* \*

### الهوامش:

(١) الطبرسي، الحسن بن فضل، مكارم الأخلاق: ٤٥٧، منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة ١٣٩٢ هـ.

(٢) السيوطي، جلال الدين، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ١: ٥٢٩، الحديث: (٣٤٤١)، الطبعة الأولى ١٤٠١، دار الفكر، بيروت.

- (٣) ابن سلامة القضاعي، مسند الشَّهاب ٢: ٦٥، تحقيق حمدي عبد المجيد، الطَّبعة الأولى ١٤٠٥، مؤسسة الرِّسالة، بيروت. الحُثِّي، ابن فهد، التَّحْصِين فِي صِفَات الْعَارِفِينَ: ١٢، تحقيق مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٦، قم المقدَّسة.
- (٤) انظر: اللَّيْثِي الواسطي، علي بن مُحَمَّد، عيون الحكم والمواعظ: ٥١، تحقيق الشَّيْخ حسين الحسيني، الطَّبعة الأولى ١٣٧٦ ش، دار الحديث، قم.
- (٥) الرِّيشهري، مُحَمَّد، ميزان الحكمة ٤: ٢٨٨٢، تحقيق دار الحديث، الطَّبعة الأولى ١٤١٦. نقلاً عن كتاب غرر الحكم.
- (٦) ابن شعبة الحرَّاني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرِّسول: ٣٢٢، تصحيح وتعليق على أكبر الغفاري، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٤، مؤسسة النُّشْر الإسلاميَّة التابعة لجامعة المدرِّسين، قم.
- (٧) راجع: الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٣٠٤، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٩، الرِّياض.
- (٨) المصدر السَّابق: ٣٠١.

ملف العدد  
أطروحة الانسجام الإسلامي



من أريج القيادة الحكيمة  
عام الوحدة الوطنية والانسجام الإسلامي

□ إعداد: قسم الأرشفة

بين يديك أيها القارئ الكريم خطابٌ ألقاها قائد الثورة الإسلامية الإمام الخامني عليه السلام بمناسبة بداية العام الهجري الشمسي الذي ألقاه في الجموع الغفيرة من زائري ومجاوري حرم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في مدينة مشهد المقدسة، وذلك في غرة ربيع الأول ١٤٢٨، ٢١ / ٣ / ٢٠٠٧. ونظراً لما يتضمنه هذا الخطاب المبارك من إرشادات قيّمة ومضامين عالية يأتي على رأسها إعلانه عن عام الوحدة الوطنية والانسجام الإسلامي، هذا الإعلان الذي جاء في وقت الأمة الإسلامية في أمس الحاجة إلى مثل هذه الدعوة التي تنبع من صميم الإسلام وتعاليم سيد المرسلين وأهل بيته الطيبين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، أحببت مجلة رسالة الإسلام نشره في عددها هذا الذي خصّصت ملفها الرئيسي فيه لأطروحة الوحدة والانسجام؛ ليصل إلى أحبائها وقرائها ليغترفوا من شذى أريج الفوّاح، ويغترفوا من عذب مائه القراح.

### استغلال الأعياد لإرشاد الأمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا ونبينا أبي القاسم مُحَمَّد، وعلى آله الأطيبين الأطهرين المنتجبين الهداة المهديين المعصومين، سيما بقية الله في الأرضين.

ربّنا عليك توكلّنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير...

يفتح النَّاس عامهم الجديد عادةً بذكر الله، طالين منه تبارك وتعالى أن يُحوّل أحوالهم إلى أحسن حال. وقد جاء هذا العام الجديد مضاعف البركات من خلال ما حصدته النفوس من تعبئة معنويّة في الشّهرين المنصرمين، أعني: مُحَرَّم وصفر.

كما أنّ الحاضرين في هذا الصّحن الشّريف قد ازدادوا بركةً من خلال تشرّفهم بزيارة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام. وسوف استغلّ هذه الفرصة لاستعراض بعض المسائل التي أرجو أن تكون نافعةً لنا في مستهلّ هذا العام الجديد.

### سرّ نجاح الأمة الحيّة:

إنّ بداية العام تُعتبر فرصةً جيّدةً لتعزيز العزم الوطني، وإضفاء البركة على عمرنا في طيلة هذا العام. فلو عقد كلّ واحدٍ منّا العزم منذ البداية على السّعي وبذل الجهد لجعل عامه عاماً مفعماً بالخير، فإنّ الله سيعيننا - حتماً - على تحقيق ما نسعى إليه.

وإنّ جوهر هذا العزم الوطني الكبير وروحه تكمن في النّيّة الطّاهرة التي تُعقد على استجلاب مرضاة الله سبحانه، والتّصميم على اجتياز الصّراط المستقيم، ومن خلال ذلك نتعرّف على موقعنا ووضعنا في الطّروف الرّاهنة

للعالم، والعقبات الماثلة أمام شعبنا وأمتنا، والخطوط الأساسية لمواجهة هذه العقبات.

وهنا يكمن سرُّ نجاح الأُمّة الحيّة، وأغتنم هذه الفرصة التي ألتقيكم فيها للتحدّث بمقدارٍ ما عن هذه الأمور التي أشرتُ إليها.

### هدف الثّورة الكبير:

إنَّ هدفنا الأساسي والكبير الَّذي حدّدناه لأنفسنا، وسعينا لبلوغه طيلة العقود المتتالية للثّورة عبارة عن رفعة إيران الإسلام، وجعلها نموذجاً يقتدى به من قبل سائر الشّعوب الإسلاميّة، على المستويين المادّي والمعنوي.

وهذا بالضرورة يقتضي أن يرتقي شعبنا مادياً ومعنوياً، وأن يحظى بالاستقلال والعزّة الوطنيّة، وأن يتمتّع بالقدرة والإمكانيات، وأن يتمكّن من توظيف جميع إمكانياته، وأن ينعم بالرّفاهيّة، وتسود في حياتنا العدالة الاجتماعيّة؛ إذ بدون ذلك لا يمكن لنا أن نغزو أسوةً للمجتمعات الأخرى الإسلاميّة وغيرها.

إنَّ الشّعب الإيراني المسلم ينشد الحرّيّة والرّفاهية والإيمان، وأن تكون بلاده زاهرة ومتقدمة، هذا هو هدف شعبنا الَّذي يسعى إلى تحقيقه.

ولا يختلف اثنان حول هذا الهدف، بل هذا الهدف هو الَّذي تزول عنده الخلافات والنزاعات الفئويّة والسّياسيّة؛ فالجميع يُريد بلداً عامراً مزدهراً، وأن يكون حراً وشاخاً، وأن نستخدم إمكانياتنا الوطنيّة، وأن نُحرز تقدماً، وأن نحمل لواء العدالة الاجتماعيّة، ونرفع بريق الإيمان في مقدّمة الشّعوب الإسلاميّة.

ويمكننا أن نبلغ هذه الغاية؛ وذلك لتوفّر الإمكانيات الوطنيّة لذلك، كما أنَّ التّجارب تؤيّد ذلك.

إنَّ الشّعب الإيراني شعبٌ كفوءٌ ومستقيم، ويتمتّع بالغيرة الدّينيّة والوطنية،

وله إيمانٌ راسخٌ بالإسلام، ويعشق وطنه. وهذه الصفات بأجمعها تعطينا الأمل والثقة بإمكانية الوصول إلى الهدف الكبير الذي أخذه الشعب على عاتقه.

### السلطات الجائرة سبب تخلف الشعوب عن ميادين المعرفة:

لقد كنّا خارج مضمار التنافس العالمي لسنواتٍ مديدة؛ بسبب سيطرة الحكومات الفاسدة والعميلة. فعلى الرغم من أنّ الشعب الإيراني كان رائد العلم والمعرفة في الأزمنة الغابرة، لكنّه وبسبب تسلّط ملوك الجور والقوى التي لا ترتبط بالشعب، خرج هذا الشعب عن ميدان السباق العلمي والسياسي الذي احتدم في العالم في القرنين الأخيرين.

حينما لا يكون شعبٌ من الشعوب داخلاً في سباق الشعوب نحو التطور؛ فإنّ قواه وإمكانياته سوف تضمحلّ بشكلٍ تدريجيّ، وستكون إنجازاته المعرفيّة في غاية الضآلة.

مثلاً: الفريق الرياضي الذي يكون فعّالاً وماندفعاً، ومع ذلك يتمّ تهيمشه وإبعاده عن ميادين التنافس الرياضي، فإنّه قواه سوف تتضاءل بشكلٍ طبيعي. ونفس هذه المعادلة طبّقوها على شعبنا.

وفي الوقت الذي سعت القوى الفاسدة والتابعة للغير لإيجاد مثل هذا الوضع لشعبنا على مدى سنواتٍ متتالية، نجد أنّ الثورة الإسلامية في الكفّة الأخرى بمجرد أن تسلّمت زمام الأمور قد فتحت الأبواب الواسعة أمام شعبنا للدخول إلى ميادين التنافس العالمي، وحقّق الشعب من خلال ذلك إنجازاتٍ جبارة.

### إنجازات الشعب الإيراني المسلم:

وهذا شعبنا قد أصبح يتمتع بمكانة مرموقة بين شعوب العالم، سواء في

المجالات العلمية أم السياسية.

ففي المضمار العلمي نعتبر متقدمين مقارنة بالمدة الزمنية القليلة من عمر هذه الثورة المباركة. نعم، إنَّ التَّخَلُّفَ الَّذِي حصل في القرنين المنصرمين لا يمكن تعويضه في خلال عقدين من الزمن، إِلَّا أَنَّ التَّقَدُّمَ الَّذِي حصل يعتبر مهماً مقارنة بعمر هذه الثورة.

فها قد حقَّقَ شبابنا إنجازاتٍ رائعةً في مجالات الطَّاقة الذَّريَّة والخلايا الجذريَّة، وفي مجال علاج الإصابات النَّخاعيَّة، إلى غير ذلك من الإنجازات المهمة التي بواسطتها استطاع علماؤنا المبرِّزون أن ينالوا إعجاب العالم. وفي المضمار السِّياسي، تحظى حكومة الجمهوريَّة الإسلاميَّة الإيرانيَّة على المستويين الإقليمي والعالمي بالكثير من المؤيِّدين والمعجبين بسياساتها الحكيمة. وهذا إن دُلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على قابليَّة هذا الشَّعب وكفاءته في التَّقَدُّم والتَّطوُّر ودخول الميادين المختلفة.

لقد تمكَّن شعبنا من إدراج مفاهيم جديدة في معاجم السِّياسة العالميَّة، كاصطلاح (الجمهوريَّة الإسلاميَّة)، الَّذي غدا شعاراً تنشده كافة الشُّعوب الإسلاميَّة.

كما أنَّ العالم لم يكن مطلعاً على تعريفٍ شاملٍ لنظام الحكم، وكذا الحال بالنَّسبة لمسألة محوريَّة الدِّين في السِّياسة والقانون وإدارة البلاد، فهذه بأجمعها مفاهيم جديدة تمكَّن شعبنا من فرضها على مفردات السَّاحة السِّياسية.

#### طريق ذات الشُّوكة:

وأما الطَّرِيق الَّذِي يُريد الشَّعب أن يسلكه لتحقيق أهدافه، فليس طريقاً ناعماً خالياً من العقبات. هناك صنفان من الأعداء يقفان سداً أمام تقدُّمنا، أُريد أن أُسلِّط الضُّوء عليهما كي نكون على بَيِّنَةٍ من أمرنا، ونعرف كيف نواجههما.

وهذان العدوّان أحدهما داخليٌّ والآخر خارجيٌّ.

### العدو الداخلي:

إنَّ العدوَّ الداخليَّ أشدُّ خطورةً من الخارجي، ونقصد به الخصال السيئة التي من الممكن أن نتَّصف بها فتمنعنا من التَّقدُّم نحو الكمالات الماديَّة والمعنويَّة. فإنَّ الكسل، وانعدام الأمل، وعدم الثَّقة بالنَّفس على المستويين الشَّخصي والجماهيري، والإفراط في حبِّ الأنا، كُلُّ ذلك آفاتٌ مهلكة. هذا، وقد سعى أعداء شعبنا المسلم بشكلٍ مستمرٍّ على بثِّ مثل هذه الآفات والميكروبات داخل مجتمعتنا، عن طريق إشاعة روح الانهزام في الأمَّة عن طريق تعبيراتٍ من قبيل: أنتم لا تستطيعون، ولا قدرة لكم ولا حول، ومستقبلكم مظلمٌ، وأفقكم قاتمٌ، انتهى أمركم. كُلُّ ذلك بهدف إحباط شعبنا وجرِّه إلى التَّكاسل والتَّقاعس وعدم الثَّقة بالنَّفس، واستبدال ذلك بالاعتماد على الأجنبي.

ولسنواتٍ مديدةٍ قبل قيام الثَّورة الإسلاميَّة في بلادنا، كانت هذه الأمور تُمثِّلُ البلاء الأساسي لشعبنا. والشَّعب الَّذي يتلى بمثل هذه الآفات يُصبح تقدُّمه مستحيلاً، ويغدو شعباً فاقداً للأمل بالمستقبل، وغير واثقٍ من نفسه، فيتقاعس عن القيام بمسؤولياته. وهذه الآفات أشبه ما تكون بدابة الأرض التي تنخر في أسس البناء وتعمل على تقويضه.

فعلى شعبنا أن يتحلَّى بالأمل والثَّقة بالنَّفس، ويتطلَّع إلى المستقبل بعين التَّفأؤل، ويكون راغباً في المضيِّ قدماً، ويتحصَّن بالمعنويات التي تؤهله إلى بلوغ أهدافه.

ولو استطعنا الإطاحة بهذا العدو الداخلي من ساحة أنفسنا وثقافتنا الاجتماعيَّة العامة، فإنَّنا - حينئذٍ - نفوَّت على العدو الخارجي الفرصة على إلحاق أيِّ ضرر بنا.



## العدو الخارجي:

وأما العدو الخارجي المانع عن تحقيق أهدافنا، فهو عبارة عن نظام الهيمنة العالمي، وهو ما شاع في مفرداتنا بالاستكبار العالمي. فقد صُنِّفَ العالم إلى حاكمٍ مسيطر، ومحكومٍ مقهور، فلو أراد شعبٌ أن يواجه قوى التسلُّط دفاعاً عن مصالحه؛ فإنَّ ذلك سيكون موجِباً لمعاداة تلك القوى له، ووضع شتَّى الضغوطات عليه؛ لكسر مقاومته، وعدم فتح المجال له لكي يعيش عزيزاً كريماً متقدِّماً.

ويتجلَّى هذا العدو الخارجي في عصرنا الحاضر بالشبكات الصهيونيَّة العالميَّة والولايات المتحدة الأمريكيَّة. وليست هذه العداوة وليدة الزَّمن الحاضر، بل بدأت سياسة العداة لشعبنا من قبل المستكبرين منذ اللَّحظة الأولى لانتصار الثَّورة واستمرَّت إلى يومنا الحالي، وإنَّ كانت أساليب العداوة تتنَّوع وتلبس ألبسةً مختلفة.

وقد لجأوا إلى شتَّى وسائل الضَّغط لإضعاف شعبنا وإجباره على التَّراجع، ولكن هيهات هيهات! فلا الحصار الاقتصادي نفعهم، ولا التَّهديد العسكري كان له جدوى، ولا الضُّغوط السِّياسيَّة والحرب النَّفسيَّة قدَّمت لهم فائدة. وهذا هو السَّعْب الإيراني يزداد قوَّةً عاماً بعد عام، ممَّا يدلُّ على فشل مخطَّطاتهم ضدَّ السَّعْب الإيراني ونظام الجمهوريَّة الإسلاميَّة. ولكنَّ العداوة ما زالت قائمةً.

## تناقض قوى الغطرسة مع الشُّعوب:

هذا، وقد تناقضت في السَّعْب الإيراني والنَّظام الإسلامي نظرة الشُّعوب والقوى المتغترسة، فالشُّعوب المسلمة وغيرها من شعوب منطقة الشَّرق الأوسط، وجماهير آسيا وأفريقيا وأمريكا اللَّاتينيَّة ينظرون إلى السَّعْب الإيراني

على أساس أنه شعبٌ شجاعٌ يدافع عن الحق والعدالة، وصامدٌ في وجه قوى التَّجَبُّر العالمي.

بينما في الطرف الآخر تتهمة القوى المتغترسة بنقض حقوق الإنسان، وتهديد الأمن العالمي، ودعم الإرهاب. وهذا التناقض بين قوى الغطسة والشُّعوب الحرة يُشكِّل خطراً على نظام الاستكبار العالمي.

فقد بدأت الهوة بالتَّساع شيئاً فشيئاً بين القوى المستكبرة والشُّعوب المحكومة. ووسائل الإعلام وإن تمكَّنت من إخفاء الحقائق إلى مدَّة محدودةٍ إلَّا أنَّ ذلك لا يمكن أن يستمرَّ إلى الأبد؛ فالشُّعوب في يقظةٍ متزايدة.

ومقارنة سريعة بين سفر رئيس هذا الشعب الإيراني إلى البلدان الآسيوية والأفريقية وبلدان أمريكا الجنوبية، وسفر الرئيس الأمريكي أكبر شاهدٍ على ما نقول؛ حيث إنَّ الأوَّل يُحطَّى من قبل الشُّعوب بالحفاوة والشعارات والمسيرات المؤيِّدة، في حين يُحرق العلم الأمريكي بوجه الثاني. وفي هذا زعزعةٌ لأسس الليبرالية الديمقراطية التي يدَّعي الغرب وفي مقدمتهم الولايات المتَّحدة حمل لوائها.

يتشدَّقون بالديمقراطية وحقوق الإنسان والسَّلم العالمي ومكافحة الإرهاب، إلَّا أنَّ واقعهم الشَّرير يحكي عن إثارتهم للحروب، وعن انتهاكهم لحقوق الشُّعوب، وعن جشعهم الَّذي لا يعرف الشَّبع إلى مصادر الطَّاقة العالميَّة، وهذا ما تراه الشُّعوب بأُمِّ عينها.

إنَّ الشُّعوب تدرك أنَّ الولايات المتَّحدة كاذبةٌ في ادَّعائها الدِّفاع عن حقوق الإنسان، وأكبر شاهدٍ على ذلك سياستهم تجاه بلدا.

لقد كانت إيران في عهد النُّظام الشَّاهنشاهي الظَّالم أداةً في قبضة الولايات المتَّحدة؛ إذ كانت مهيمنةً على جميع أنحاء إيران، وأرضها كانت مسرحاً للقواعد العسكرية لرصد تحرُّكات البلدان العربيَّة في المنطقة، وكانت إيران حليفةً لإسرائيل أيضاً. وكانت الدِّكتاتورية المطلقة هي المسيطرة على نظام الحكم في

إيران، وكانت السُّجون مليئة بالمجاهدين والشُّرفاء. وكان النَّاس يدارون بالظُّلم والقسوة. وكانت خيرات البلاد ونفطها ينهب من قبل الأجانب، والخيرات العامة والثروات الوطنيَّة كانت تصبُّ في صالحهم. وحُرم الشَّعب من أيِّ مشاركةٍ في المحافل العلميَّة والصَّناعات العالميَّة، بل كان السَّعي الدَّؤوب إلى إزالته.

مع كُلِّ هذا الظُّلم والقساوة كان زعماء النِّظام الشَّاهنشاهي محظيَّين عند الأمريكيان، ولم يوجَّه لهم أيُّ اعتراض حول انتهاك حقوق الإنسان والديمقراطيَّة.

ولمَّا أصبحت إيران حرَّة، وتنتهج الديمقراطيَّة الواضحة، ويغلب الوثام بين المسؤولين والجهاهير، صارت أمريكا تُصنِّف إيران ضمن محور الشر. وهذا إن دُلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على ازدواجيَّة المعايير، وتخذلق الاستكبار العالمي في مواجهة الحقائق العالميَّة الرَّاهنة.

### مخططات الاستكبار العالمي ضدَّ الشَّعب الإيراني المسلم:

إنَّ علينا واجباتٍ تجاه هذين العدوين، فلا بدَّ في الابتداء من تشخيص العدو، ثُمَّ التعرف على مخططاته.

وتتلخَّص مخططات الاستكبار العالمي ضدَّ شعبنا في مفرداتٍ ثلاث رئيسيَّة: الحرب النَّفسيَّة، والحرب الاقتصاديَّة، والمنع عن التَّقدُّم والتَّفوق العلمي.

#### ١ - الحرب النَّفسيَّة:

إنَّ الغاية من الحرب النَّفسيَّة بثُّ الرُّعب في النَّفوس الضَّعيفة. مَنْ الَّذِي يُريدون تخويفه؟! هل هو الشَّعب؟! ولكنَّهم نسوا أنَّ شعبنا وجاهيرنا العظيمة لا تخشى شيئاً.

أم أنَّهم يستهدفون إخافة المسؤولين والشَّخصيات السِّياسيَّة ونُخب المجتمع؟!!

إنَّهم من خلال التَّلَقُّين والإِجْهَاء يحاولون تشويه حقائق بلادنا في نظر شعبنا. ألا وإنَّ شعبنا شعبٌ كفوءٌ ومقتدر، وينعم بثرواتٍ طبيعيَّةٍ ضخمة. ومثل هذا الشَّعب لا يُتَوَقَّع منه إلَّا أن يكون رائداً ومقداماً، ولا يوجد ما يُبرِّر اليأس وفقدان الأمل.

وإنَّ من أكبر نعم الله علينا الثَّقة المتبادلة بين الشَّعب والمسؤولين، والاستكبار يحاول بشدَّة سلب هذه النِّعمة منَّا، عن طريق زرع عدم الثَّقة في نفوس النَّاس، وإثارة الشَّائعات، والتَّهديد بالحصار الاقتصادي، واستعمال العنف والقوَّة.

ومن المقاييس الموروثة أنَّهم بإعلامهم الموبوء يحاولون إلْباس المدَّعي لباس المتهَم؛ فإنَّ أمريكا حاليًّا هي المتهمة، وإنَّ شعوب العالم تدَّعي ضدَّ أمريكا وتقاضيهما؛ إذ هي التي أنشأت المستعمرات، وأثارت الحروب هنا وهناك، واحتلت الأوطان، وأشعلت نار الفتن.

ولكنَّهم يحاولون خلط الأوراق والتَّمْظهر بمظهر المدَّعي، ووضع الشَّعب الإيراني في قفص الاتِّهام.

إنَّ وضع حقوق الإنسان في الولايات المتَّحدة نفسها مدعاة للتأسُّف. فتقول إحصائياتهم أنَّه يوجد في عام ٢٠٠٣م ثلاثة عشر مليون سجين من المواطنين الأمريكيين. ويمارسون التعذيب والتَّنصُّت على المكالمات الهاتفية، وتمَّ استجواب الملايين من البشر بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر.

هذه هي حال الأوضاع الداخليَّة لأمريكا، أمَّا في الخارج فهناك سجن أبي غريب الَّذي يُمارس فيه أنواع التعذيب، ومعتقل غوانتانامو، وتنتشر السُّجون السَّريَّة في أنحاءٍ مختلفةٍ من أوروبا.

فهم الَّذين ينتهكون حقوق الإنسان، ومع ذلك يتشدَّقون بالدِّفاع عنها، ويرومون محاسبة الغير بتهمة انتهاك حقوق الإنسان.

ومن فصول الحرب النفسية تأجيج الخلافات القومية والمذهبية والفتوية والطبقية.

إنهم يبتئون الشائعات، ويتهمون إيران بالتدخل في أوضاع العراق، والحال أنهم هم الذين احتلوا العراق وأذلوا شعبه، وأهانوا رجاله ونساءه وشبابه بمختلف الأساليب.

عندما كانت الحكومة الأمريكية والكثير من الحكومات الغربية يدعمون صدام البعثي المقبور فتح الشعب الإيراني ذراعيه لاحتضان أحرار العراق الذي لجأوا إليه، وعمل على حمايتهم من شرور طاغيتهم، وهؤلاء الأحرار قد استلموا الحكم في العراق الآن.

إن التقاتل بين الإخوان في العراق ليس ناشئاً عن خلافٍ شيعيٍّ - سنيٍّ، كما يشهد لذلك تعايشهم مع بعضهم في أمن وطمأنينة على مدى سنين عديدة، بل كان التزاوج والتصاهر بينهم أمراً شائعاً.

إن الإرهاب إنما دخل العراق محمولاً على آلياتهم العسكرية، ولا أحد سواهم يجني نفعاً من انعدام الأمن في العراق.

كما يعملون على إثارة الخلافات بين أفراد الشعب الإيراني، كذلك يجهدون في بث روح الخلاف بين الشعب الإيراني وسائر الشعوب الإسلامية. وقد قامت سياسة الولايات المتحدة على إخافة جيراننا في الخليج الفارسي من نظام الجمهورية الإسلامية، وقد أدرك بعضهم هذه المؤامرة بفتنةٍ وذكاء، ولكن البعض قد يقع اشتباهاً في فخ هذه المؤامرة الأمريكية.

لقد مددنا يد الصداقة والتعاون إلى كافة جيراننا في الخليج الفارسي، تلك المنطقة التي تحتوي على أكبر الدخائر النفطية في العالم، وبحمد الله والمنة نحن حالياً تربطنا علاقة الصداقة بسائر جيراننا في المنطقة.

على دول المنطقة أن تعقد فيما بينها معاهدات دفاعية مشتركة، وتتعاون فيما

بينها، ولا تنتظر أن تأتي أمريكا وبريطانيا وغيرهم من الطامعين بخيراتنا للدفاع عن هذه المنطقة.

وبهذه المناسبة أنصح السياسيين في الداخل أن يراقبوا كلامهم بدقة، ولا يأخذوا مواقف تنتهي في خانة خدمة مقاصد الأعداء في حربهم النفسية. إن الذين يعملون حالياً على بث روح اليأس في قلوب الناس وزعزعة ثقتهم بأنفسهم وبالمسؤولين، فإننا يعملون على مساعدة الأعداء. وإن الذي يعمل على إثارة الاختلافات من أي نوع كانت إنما هو معين لأعداء الشعب الإيراني. فعلى أهل القلم والبيان والمنبر والموقعية أن لا يسمحوا للأعداء بالاستفادة منهم واستغلالهم.

## ٢- الحرب الاقتصادية:

والوسيلة الأخرى التي يتوسل بها العدو هي الحرب الاقتصادية. فيحاولون أن يحاصروا شعبنا اقتصادياً.

ينبغي أن يكون مسعى الحكومة والنشطين في هذه البلد في هذا العام الجديد، وربما في العامين القادمين، مسعى اقتصادياً؛ فإنه بإمكاننا إنعاش اقتصادنا، فلا يمكن لحصارهم الاقتصادي أن يلحق ضرراً بنا. وهل قاموا بشيء من بداية انتصار الثورة غير محاصرنا اقتصادياً؟! ونحن في ظل هذا الحصار الاقتصادي تمكنا من الوصول إلى الطاقة الذرية والتقدم العلمي وإعمار البلاد على نطاق واسع. بل نعتقد أن الحصار قد ينفعا؛ إذ يزيد من عزيمتنا ونشاطنا ومضاعفة جهودنا.

علينا أن نستفيد الاستفادة القصوى من سياسات الأصل الرابع والأربعين، فبإمكان آحاد الناس ومختلف طبقاتهم أن يستثمروا، وأن يؤسسوا فيما بينهم شركات استشارية. وعلى المسؤولين في مجال الاقتصاد في الحكومة أن يبيّنوا

للناس طرق مشاركتهم في النشاطات الاقتصادية.

إنَّ الإسلام لا يُحرِّم انتاج الثروة واستثمارها، وليس هذا كنهب ثروات الآخرين والاعتداء على الأموال العامة، أو جناية الربح من دون ضابطة قانونية.

### ٣- العوائق أمام التَّقدُّم العلمي:

أمَّا ما يتعلَّق بمواجهة التَّقدُّم العلمي؛ فإنَّ أبرز نماذجها تتجلَّى في ملفِّ الطاقة الذَّريَّة.

يُقال في عالم السِّياسة اليوم: إنَّ الدُّول الغربيَّة تعارض امتلاك إيران للطَّاقة الذَّريَّة. فليكن! وهل نحتاج إلى استئذانٍ من أحدٍ في امتلاكنا لهذه الطَّاقة؟!  
يكفيننا أنَّ الشَّعب موافقٌ، ويرغب بشدَّة في الحصول على هذه الطَّاقة، التي هي أمرٌ ضروريٌّ لبلادنا ونحن في حاجةٍ ملحَّةٍ لها على الأمد البعيد.  
ولو قصَّرنَا - والعياذ بالله - في الحصول عليها، لكان ذلك خيانةً للأجيال القادمة. وحاجة الشَّعب إلى هذه الطَّاقة ليس لصنع السِّلاح، بل للحياة.  
إنَّ من يُردِّد أقوال العدو، وينفي ضرورة امتلاك الطَّاقة النَّووية؛ محتجاً بأنَّه لا داعي لوضع البلاد في مهبِّ الرِّيح من أجل الحصول على الطَّاقة.  
فإنَّنا نقول له: إنَّ في تجاهل حاجة البلاد في المستقبل إلى الطَّاقة يعدُّ خيانةً عظيمةً للأجيال القادمة. فلنقل إنَّنا استهلكنا منابع النَّفط، الَّذي سينتهي في يومٍ من الأيام، عندها سيضطرُّ شعبنا إلى الاستجداء من البلدان التي تملك منابع الطَّاقة لتشغيل الكهرباء والمصانع وغير ذلك ممَّا يُحتاج إليه في تحريك عجلة الحياة.

إنَّ الإنجاز الَّذي ننشئ عليه دائماً والذي تمَّ على يد الدَّكتور مصدِّق وآية الله الكاشاني من تأميم النَّفط، يعتبر إنجازاً صغيراً بالقياس إلى الإنجاز الحالي.  
ونحن نقول للَّذين استخدموا مجلس الأمن أداةً لتجاهل حقِّنا المسلَّم: إنَّ ما قمنا به حتَّى الآن كان موافقاً للقوانين الدَّولية؛ فإنَّ أرادوا تجاوز القانون، فنحن

أيضاً نعرف كيف نتجاوزها، وإنَّ أرادوا بذلك التَّهديد وممارسة أعمال العنف ضدَّنا، فعليهم أن يدركوا أنَّنا سوف نوظَّف كُلَّ إمكانياتنا في مواجهة من يتعرَّض لشعبنا.

### الاتحاد الوطني والانسجام الإسلامي:

وأختم كلامي بوصايا تقبلوها من خادم الشَّعب موجَّهةً إلى الشَّعب: إنَّ الشُّعار الَّذي رفعناه هذا العام (الاتِّحاد الوطني والانسجام الإسلامي) لا بدَّ من مراعاته وتطبيقه.

إنَّ الاتِّحاد الوطني يعني وحدة الشَّعب الإيراني، وإنَّ الانسجام الإسلامي يعني وقوف الشُّعوب إلى جنب بعضها البعض. فعلى الشَّعب الإيراني أن يوثق صلته بالشُّعوب الإسلاميَّة، ولا يتمَّ ذلك إلَّا بأن ننأى بأنفسنا عن الجزئيات الخلافية.

(هناك جهودٌ كبيرةٌ تبذل من قبل الأعداء لإيجاد الهوة بين الشَّعب الإيراني وسائر المجتمعات الإسلاميَّة، وذلك من خلال تضخيم الخلافات المذهبيَّة، وإذكاء نار الحروب بين السُّنَّة والشيعة في أيِّ رقعةٍ من العالم.

على شعبنا الحفاظ على يقظته، ومواصلة جهوده في بناء البلاد، والأهمُّ هو السَّعي إلى وحدة الكلمة وإيجاد الانسجام الوطني وتوحيد الأُمَّة الإسلاميَّة. ولا بدَّ من الحفاظ على هذه الوحدة بتعقُّلٍ وحكمةٍ وتدبير. وأنا شخصياً أولى أهميَّة خاصة لوحدة كلمة شعبنا، وأرى تسمية هذا العام بعام: «الاتحاد الوطني والانسجام الإسلامي».

فعلى المستوى الداخلي لا بدَّ من توحيد الكلمة بين جميع أبناء الشَّعب على اختلاف قوميَّاتهم وتنوُّع مذاهبهم وطبقاتهم.

وعلى المستوى العالمي لا بدَّ من الحفاظ على انسجام جميع المسلمين، بإنشاء علاقاتٍ أخويَّةٍ بين آحاد الأُمَّة الإسلاميَّة على اختلاف انتماءاتهم المذهبيَّة).



## مذاكرات في التقريب والوحدة

### المنهج التقريبي السليم

□ الشيخ مرتضى علي الباشا (\*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فوائد الوحدة أو الاتحاد أوضح وأجلى من أن تذكر، وكذا مضار التفرق والتمزق والتشردم؛ فهي أشبه بالبد依يات الفطرية عند جميع العقلاء. وقد تعرّض القرآن الكريم لهذا المبدأ في عديد من الآيات الكريمة، مضافاً إلى السُّنة المتواترة القولية والفعلية، كل ذلك من أجل تأصيل هذا الرُّكن في المجتمع الإسلامي.

قال الله سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَذَرُوا نَفْسَكُم مِّنْ وَجْهِ اللَّهِ وَتَذَرُوا نَفْسَكُم مِّنْ وَجْهِ اللَّهِ وَتَذَرُوا نَفْسَكُم مِّنْ وَجْهِ اللَّهِ وَتَذَرُوا نَفْسَكُم مِّنْ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد أثبتت الحياة والتجارب أن من أراد أن يكون عملاً فعلياً عليه أن يتحد ويتعاون؛ وعلى هذا الأساس تجاوزت الدول الأوروبية جميع تراكمات الحربين

(\*) باحث إسلامي / السعودي.

العالمية الأولى والثانية، وكوّنت الاتحاد الأوروبي؛ لتتمكّن من الوقوف أمام السيطرة والهيمنة الأمريكية.

وبالرغم من العداء التاريخي بين اليهود والنصارى، لكنهم اجتمعوا وتعاضدوا في قبال العدو المشترك. وهكذا الحال في الشركات الاقتصادية والأحزاب والائتلافات الانتخابية.

والحاصل: أنّ سنّة الحياة قائمة على أنّ الأقوياء يتجهون نحو الاتحاد ليزدادوا قوة، وأمّا الضعفاء فيسيرون بالاتجاه المعاكس.

ولو لاحظنا محيطنا الذي نعيش فيه لوجدنا الانقسامات والاختلافات التالية:

(١) انقسامات على أساس الحكومات السياسية، التي يتفرّع منها انقسامات - أيضاً - على أساس مناطق جغرافي. وما يترتب على ذلك من إجراءات تنعكس على عملية السفر والعلاقات المتبادلة وغير ذلك..

(٢) انقسامات على أساس الدين، والمذهب، والقواعد الفكرية من علمانية وليبرالية وغيرها من الأفكار المستوردة..

ولا يكاد ينجو من هذه التمزقات فرقة أو طائفة. ومحنة خلق القرآن الكريم لم تزل مستمرة في بعض الكتابات حتى هذا اليوم. وقد جمع بعض المحققين شواهد كثيرة على ما قاله أرباب المذاهب في بعضهم البعض من ذمّ وقذح<sup>(١)</sup>.

(٣) انقسامات حزبية، ويا ليت الأمر يقف عند فرح كلّ حزب بما لديه، بل تتفاقم المشكلة إلى السعي الحثيث لتشويه صورة الحزب الآخر وتسقيطه في أعين الناس.

(٤) انقسامات على أساس العرق واللغة.

ونجد أنّ كلّ لون من ألوان التمايز والانقسام قد صنع لنفسه فلسفةً وتنظيراً، وشاد عليها مواقف وهياكل؛ بهدف الدفاع عن الذات والخصائص المميزة في

مواجهة ما يعتبره تهديداً لتلك الخصائص.

ويجب أن نعلم بأن النزاعات والخلافات الداخلية تستنزف قدرات الأمة أكثر من النزاعات الخارجية. ففي تقرير صادر عن مركز الدراسات الاستراتيجية في جريدة الأهرام المصرية: أن عدد ضحايا الأمة العربية في صراعها مع العدو الإسرائيلي خلال العقود الخمسة الماضية يبلغ مئتي ألف شهيد. يقابلها (٢.٥) مليون ضحية في صراعاتنا الداخلية. وأما على المستوى الاقتصادي فيقول هذا التقرير: إن الأمة تكلفت في صراعها مع العدو الصهيوني خلال الخمسين سنة الماضية (٣٠٠) بليون دولار، ولكن خسائرها في الصراعات الداخلية (١.٢) ترليون دولار.

#### المراد بالتقريب بين المذاهب:

اختلف دعاة التقريب في شرح مرادهم من هذه الدعوة ومحتواها وشرائطها، وبالتالي تفاوتت ردود الفعل من التقريب.

وهنا نذكر باختصارٍ منهجين رئيسيين مختلفين للتقريب:

**المنهج الأول:** يحاول أصحاب هذا المنهج حذف بعض العقائد أو الأحكام الفقهية أو السلوكية من هذا المذهب تارةً ومن ذاك أخرى؛ وذلك لغرض تقليل دائرة الاختلاف وحصول التقارب.

وفي أحسن الأحوال لا يدعو أصحاب هذا المنهج إلى الحذف، ويكتفون بدعوى التعطيل ولو بشكل مؤقتٍ مراعاةً للمصالح العليا.

**المنهج الثاني:** يطرح أصحاب هذا المنهج التقريب بمعنى التآزر والتكاتف والتناصر، وتراض الصف، والتراحم والتعاطف ودفاع بعضهم عن البعض الآخر.

وهذا التقريب يتم من خلال ما يلي :

(١) التّركيز على مساحات الاتّفاق والهموم المشتركة بين المذاهب؛ فإنّ هناك مساحاتٍ شاسعةً من الأمور المتّفق عليها بين جميع المسلمين، فلماذا نتجاهل جميع ذلك وننظر إلى الجزء الفارغ من الكأس؟! ولماذا لا نتعاون في إيجاد حلولٍ ومعالجة الهموم المشتركة؟! أفلا يُمكننا التّحرّك والعمل معاً في تلك الدّوائر.

(٢) التّعارف العملي والفكري؛ فقد انقطع جبل التّواصل العلمي المباشر بين علماء المذاهب لحقبةٍ طويلةٍ من الزّمن، وأصبحت معرفة كلّ طرفٍ بالآخر تتمّ غالباً عن طريق الكتابات الوسيطة، والانطباعات المنقولة، وعادةً ما يصل إلى كلّ طرفٍ أسوأ ما في وسط الطرف الآخر من آراء وأفكار، ويجري تعميمها وتشكيل صورة الآخر من خلالها.

فإصلاح العلاقات بين المذاهب الإسلاميّة لا يتحقّق إلا بإصلاح المعرفة بين المذاهب، والمعرفة لا تعني بالضرورة الاتّفاق، بل يبقى الحقّ في الاجتهاد واختلاف وجهات النّظر قائماً، كما هو واقع التّعُدّد والاختلاف.

وكثيراً ما نجد أنّ بعض النزاعات العلميّة - بعد التأمّل فيها - إنّما هي خلافاً لفظيّة ناتجة عن اختلاف زوايا النّظر، أو اختلاف في المصطلحات.

(٣) إيضاح الموقف العام المتبنى؛ ففي أوساط كلّ مذهبٍ هناك آراءٌ شاذةٌ، وتوجّهاتٌ فرديّةٌ، وسلوكيّاتٌ خاطئةٌ، وضمن أجواء الإثارة والخلاف يتمّ إيصالها للآخر وتضخيمها وتعميمها، فينظر أتباع كلّ مذهب إلى الآخر من خلالها، ممّا ينتج رؤيةً مشوّشةً، وظنوناً سيّئةً، تكرّس حالة الخلاف والصّراع.

إذن يتّضح ممّا تقدّم:

أنّ المنهج الصّحيح للتّقريب بين المذاهب ليس هو عبارة عن إيجاد مذهبٍ جديدٍ يتّفق عليه المسلمون، وليس هو التّنازل أو حذف بعض العقائد هنا أو هناك، كالقول بعصمة أهل البيت (عليه السلام)، أو عدالة جميع الصّحابة، وليس هو

التبديل في الأحكام الفقهيّة الفرعيّة، كأحكام الصّلاة أو الوضوء أو الحجّ أو غيرها.

ولو رجعنا إلى علاقة اليهود والنّصارى بالمسلمين إبان حياة رسول الله ﷺ، وإبان خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، فتساءل:

هل ألزم الرّسول ﷺ اليهود والنّصارى بالتّخليّ عن عقائدهم ليعيشوا في كنف وحماية الدّولة الإسلاميّة؟!

إذا كنّا لا نشترط تخليّ النّصراني عن عقيدة الثّالوث لنقيم معه علاقات دبلوماسية واقتصاديّة وعسكريّة وغيرها، بل وليعيش هو - أيضاً - تحت رعاية الدّولة الإسلاميّة، فلماذا نتشدّد نحن المسلمون مع بعضنا البعض، ونرفض مدّ الجسور فيما بيننا إلّا بعد إلزام الطّرف الآخر بالتّخليّ عن الامتيازات العقائديّة والفكريّة لكلّ مذهب وطائفة.

وقد رأينا أنّ الاختلافات بين اليهود والنّصارى لم تمنعهم من توحيد الجهود في المشتركات، ولم يشترط النّصراني على اليهودي الدّخول في دينه أو التّخليّ عن عقيدته.

كما أنّ التّقريب لا يعني سدّ باب دعوة كلّ مذهب إلى نفسه، ما دام يعتمد أسلوب الدّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة دون تجريح أو استغلال. وإنّما نرفض محاولات الاستغلال السيّئ، والاستضعاف، والجدال العقيم، وفرض الرّأي، وأمثال ذلك.

### التّقريب والوحدة والتّعايش:

أولاً: الوحدة بين المسلمين، وهي - أيضاً - تطرح على وفق منهجين مختلفين:

المنهج الأول: صهر الفرق والطوائف في بوتقة مذهب واحد.

المنهج الثاني: الوحدة في المواقف السّياسيّة والمهموم الاجتماعيّة المشتركة.

ولعلَّ الأفضل التعبير عن هذا المنهج بـ (الاتِّحاد) لا (الوحدة). ومن هنا قد يفضِّل البعض استعمال مفردة (التَّقريب)؛ هرباً من الوحدة بالمنهج الأوَّل. وفي قبالة هناك من يفضِّل التعبير بـ (الوحدة أو الاتِّحاد) احترازاً عن التَّقريب بالمنهج الأوَّل المذكور آنفاً.

ثانياً: التَّعايش، وهو يعبر عن مرحلة سلامٍ وسطيَّة بين الاحتراب وبين الاتِّحاد. ففي هذه المرحلة يعيش الجميع معاً دون اعتداءٍ أو بغضاء، فالتَّعايش لا يدلُّ بمفرده على عملٍ مشتركٍ وتناغمٍ في الحركة، ولا على تناصُرٍ وتكاتفٍ.

#### الجهة المسؤولة عن إيجاد (التفرقة) أو (التقريب والوحدة):

- (١) الحكومات السِّياسِيَّة: فالحكومة عبر ممارساتها وتعاملها مع المواطنين قد تخلق بينهم الألفة والمحبة والتَّعاون، وقد يكون الحال بالعكس. والكثير من الآمال والأحلام العالميَّة إنَّما تتحقَّق من خلال التَّعاون بين الدُّول والحكومات، وليس بين الأفراد أو المؤسَّسات.
- (٢) علماء الدِّين، أفراداً ومؤسَّسات: فعالم الدِّين ولجنة الإفتاء وما شابه يؤثِّرون في قناعات وسلوكيات الفئة المتديِّنة من المجتمع. وذلك من خلال الفتاوى أو الآراء العلميَّة أو المواقف العمليَّة الميدانيَّة.
- (٣) المؤسَّسات الاجتماعيَّة والفكريَّة: إذا كانت هذه المؤسَّسات ترعى جميع الطَّوائف وتستقطبهم فهذا يسهم في إذابة الجليد بين النَّاس، وعكسه ما لو كانت تمارس سياسة التَّمييز.
- (٤) وسائل الإعلام: فمع ثورة وسائل الإعلام والمعلومات قد زادت مسؤوليَّة هذه الجهة؛ فهي القادرة على نشر وترويج ما تريد وتغيير قناعات النَّاس، لا سيَّما إذا انضمَّ إلى ذلك الفنون الحديثة للإعلام والإقناع.
- (٥) أهل الفكر والقلم: ربَّ كلمةٍ غيَّرت مسار التَّاريخ، وربَّ كلمةٍ أو قلمٍ

انضمَّ إلى آخر فأوجد التَّغيير والتَّبديل.

### طرق ووسائل التَّقريب أو الوحدة:

(١) نشر الوعي بأهميَّة الوحدة والتَّقريب - بالمعنى الصَّحيح - وتعميقه وتحذيره.

هذا، وقد درج البعض على مبدأ (فرق تسد)، فهو يرى أنَّ إيجاد التَّفَرُّق والتَّزاعات وسيلته للسيادة والزَّعامة؛ لذا لا ننتظر منه جهوداً واقعيَّة في سبيل لم الشَّمْل، وترميم أو تجديد البيت الدَّاخلي أو الموقف الخارجي. نعم، قد ينادي هؤلاء بالوحدة في بعض الطُّروف من باب اضطرارهم إلى ذلك، وخداع الرَّاأي العام.

إذن، نحن بحاجة إلى إيمانٍ واقعيٍّ بأهميَّة المسألة يتغلغل في جذور الأُمَّة والمسؤولين، ويجري في شرايينهم، إلى أن تصبح المسألة من قضاياهم الرِّئيسيَّة التي يدافعون عنها ويمارسون عليها رقابتهم.

(٢) إبداء كُلِّ الأطراف حسن النِّوايا قولاً وعملاً.

(٣) حسن الظَّنِّ بالآخرين، ولكن بلا سداجة.

(٤) ترك التَّنظير الأسطوري والأحلام، والبدء بالتَّخطيط الواقعي والتَّنفيذ الميداني؛ فالتَّقريب والوحدة يقومان على مشاريع علميَّة وعمليَّة يلمسها النَّاس، وتؤثِّر فيهم، وتبنيهم من الدَّاخل، وتحقِّق آمالهم. ولسنا بحاجة إلى خطبٍ وكلماتٍ رنانة، كما نحن في غنى عن مؤتمراتٍ ومؤسَّسات عاجزة عن التَّنفيذ والعمل. نحن بحاجة إلى الخطط والمشاريع والأفكار الواقعيَّة الممكنة التَّحقيق وفق أولويَّات ومراحل.

(٥) البداية بالأقرب؛ فعلينا أن نبدأ بالوحدة والتَّقريب بين الأقرب فالأقرب. ولذا لا نفهم لماذا نسعى للاقتراب من المذهب الآخر في الوقت الذي

نتجاهل فيه الاقتراب من أبناء مذهبنا الذين نختلف معهم في بعض الجوانب.  
٦) تحقيق مفهوم المواطنة وحقوق الإنسان؛ فعندما يحرم الإنسان من الأمن أو لقمة العيش أو حق التعليم بناء على اختلافه في العرق أو المذهب أو ما شابه، فلا نتوقع منه الاندماج مع مَنْ سلبه حقوقه وحاربه، كما لا ننتظر منه المحبة والألفة مع من يتنعم بما سلب منه.

لذا نقول بضررٍ قاطع: إنَّ التَّمييز بين المواطنين من دون أساسٍ عقلائيٍّ هو من أكبر عوامل إيجاد التَّفَرُّقَة والبغضاء والشَّحناء بين النَّاسِ.  
أمَّا توفيرُ حدٍّ أدنى كريم لكلِّ مواطن، وإعادة توزيع الثَّروة بالأساليب المشروعة، وبالطَّريقة التي تحقِّق المبادئ الإسلاميَّة للعدالة الاجتماعيَّة، وتجسيد روح الإسلام بإقامة مبادئ الضَّمان الاجتماعي، والتَّوازن الاجتماعي، والقضاء على الفوارق بين الطبقات؛ كُلُّ ذلك يدفع بالأُمَّة نحو التَّلاحم والتَّرابط والمحبة.

٧) القبول بواقع التَّعدُّدِيَّة المذهبيَّة والفكريَّة والسِّيَاسِيَّة؛ فلو نظرنا إلى التَّجربة العالميَّة نرى أنَّ قبول التَّعدُّدِيَّة يولِّد حالةً من الاطمئنان والاستقرار بين الأطراف المختلفة، ويمكنُها من صنع إطارٍ جامع، تحافظ من خلاله على المصالح المشتركة.  
وليُعلم أنَّ القبول بواقع التَّعدُّد يعني الاعتراف بحقِّ مختلف الأطراف في الأمور التَّالية:

- أ- حقَّ التَّعبير عن الرَّأي وإعلان الموقف.
  - ب- حقَّ ممارسة الشَّعائر الدينيَّة.
  - ت- حقَّ المشاركة في اتِّخاذ القرار.
  - ث- حقَّ إقامة المؤسَّسات والجمعيَّات المختلفة.
- كُلُّ ذلك ضمن قانونٍ يخضع له الجميع، دون هيمنةٍ واستعلاءٍ من أحد، أو



تتميش وإقصاء لأحد.

٨) قبول الآخر كما هو؛ ففي الواقع يندرج هذا الأمر تحت البند السابق، وإنما أفردناه بالذكر لأهميته وشدة الاختلاف فيه. فلا تُطالب فئة أو فرقة بالتخلي عن بعض عقائدها أو أحكامها. وقد ذكرنا هذا سابقاً.

٩) الوضوح والتحديد الكامل لمطالب الوحدة ومجالها وجميع شؤونها؛ فمن المتفق عليه عند العقلاء ضرورة الوضوح الكامل في جميع بنود الاتفاقيات والمعاهدات؛ ليفهم كل طرف ما له وما عليه. أمّا إذا كانت الصورة غائمة ومشوشة فيصعب حصول اتفاق، بل سرعان ما يعود الخلاف.

ومن أوضح الأمثلة الواقعية على ذلك: مسألة تجريم التعرض لذم الصحابة، فما زال التقريبيون يدورون في دائرة مفرغة؛ وعلة ذلك هو عدم الاتفاق على معنى واضح للتعرض لشأن الصحابة. فهل المطلوب الكف عن بعض الممارسات في الفضاء العام، أم المطلوب هو تحريم وتجريم تلك الممارسات حتى على نطاق داخلي؟! وهل يحظر قراءة قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقُ بِنَايَ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]؛ نظراً لما تحويه هذه الآية من وصف لأحد الصحابة بالفسق؟! أو يجوز قراءة الآية ويحظر بيان سبب النزول فقط؟!

قبل توضيح جميع هذه التفاصيل وغيرها لا يمكنك تشخيص أحقية المطلب والمقدار والكيفية المطلوبة.

حتى الآن ما زلنا ندور في دائرة مفرغة، هذا يطالب، وذاك يحرم، وثالث يعترض. ولم نر حتى الآن من يطرح الموضوع بصورة موضوعية واضحة المعالم والحدود..

لهذا ولأمثاله قلنا سابقاً بضرورة قبول الآخر كما هو.

(١٠) اهتمام المؤسسات الدينية بقضية الوحدة والتّكريب، وحثّ أتباعها، وإبداء المواقف الواضحة من ذلك، لا سيّما المواقف العملية التّطبيقية. ومن الضّروري تطبيق التّكريب والاتّحاد بين المؤسسات الدينية أنفسها. ولا يخفى أنّ التزاور - مثلاً - بين القيادات الدينية ينعكس على أتباعهم ومحبيهم. فلا ينبغي الاقتصار في ذلك على المناسبات أو داخل أروقة المؤتمرات.

(١١) تجريم التّحريض على الكراهية والإساءة؛ ولا نقصد مجرّد الشّجب والاستنكار، بل يجب محاسبة ومعاقبة المحرّضين، كتجريم من يحرّض على الإرهاب والسّرقه والفساد.

(١٢) ترويج الآداب الإسلامية في المعاشرة؛ فقد جاء في الحديث الصّحيح عن معاوية بن وهب، قال: «قلت له: كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من النّاس ممّن ليسوا على أمرنا؟ قال ﷺ: تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقىمون الشّهادة لهم وعليهم، ويؤدّون الأمانة إليهم»<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث الصّحيح عن زيد الشّحام عن الإمام الصادق ﷺ في حديث قال: «... صلّوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم؛ فإنّ الرّجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدّى الأمانة، وحسّن خُلُقَه مع النّاس قيل: هذا جعفريّ، فيسرّني ذلك ويدخل عليّ منه السّرور، وقيل: هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر، فوالله لحدّثني أبي ﷺ أنّ الرّجل كان يكون في القبيلة من شيعة عليّ ﷺ فيكون زينها، آداهم للأمانة، وأقضاهاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان! إنه لأدانا للأمانة وأصدقنا للحديث»<sup>(٣)</sup>.

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قوله: «اجعل نفسك ميزاناً

فما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تکره لها، ولا تظلم كما تحب ألا تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك»<sup>(٤)</sup>.

(١٣) إحياء البعد الاجتماعي والوحدوي في العبادات؛ فقد وصل الخلاف والشقاق بين المسلمين إلى عدم اتفاقهم على يوم الصيام ويوم الفطر، ولم يفلح مجلس التعاون ولا الجامعة العربية في توحيد المسلمين في مسألة الهلال. وهلال الحج تستفرد به جهة واحدة دون أن تراعي آراء بقية المذاهب في شروط إثبات الهلال.

وأصبح الحج مجرد أعمال جافة يؤدّيها كل حاج بمعزل عن الآخرين، في حين أن من أهداف الحج إيجاد التفاهم وتعزيز أواصر الوحدة الإسلامية. وفي هذا السياق ركز الإمام الخميني رحمته الله على مسيرة الوحدة والبراءة من المشركين، وقال: «من مهمات فلسفة الحج إيجاد التفاهم، وتعزيز الأخوة بين المسلمين، وعلى العلماء والخطباء طرح المسائل الأساسية والسياسية والاجتماعية مع إختوتهم في الدين وتهيئة مشاريع حلّها؛ ليطرحوها بدورهم على العلماء وأصحاب الرأي عند عودتهم إلى بلدانهم».

كما قال عليه السلام: «ليس حجاباً ذلك الحج الخالي من الروح والتحرّك والقيام، والفاقد للبراءة والوحدة، وغير الداعي لهدم الكفر والشرك».

(١٤) إيجاد المؤسسات التّقريبية من قبيل النوادي الاجتماعية والثقافية والرياضية المشتركة.

(١٥) تفعيل مسألة الوحدة والتّقريب في الصّروح العلمية (المدارس، الجامعات، الجوامع)، والتّشجيع على القيام بدراسات وبحوث علمية تتسم بنزعة التّقريب والوحدة، ويجب الاهتمام في نشر وتوزيع تلك البحوث والدراسات بدرجة قويّة وفعّالة.

لقد كان وعي الشهيد الصدر رحمه الله عميقاً عندما أنجز عدّة بحوثٍ ودراساتٍ في حقول المعرفة الإسلامية، تهدف إلى تأسيس قناعاتٍ مشتركةٍ بين أبناء الإسلام، أو تثبت أسساً ومقرراتٍ شرعيةً مقبولةً تصح أن تكون منطلقاً لقيام دراساتٍ ذات سمةٍ تقرّيبيةٍ. فكان من ذلك كتاب (فلسفتنا)، (اقتصادنا)، (البنك اللاربوي في الإسلام)، (الأسس المنطقية للاستقراء).

(١٦) السعي المشترك المتضافر لاتخاذ المواقف الوجودية النموذجية في كل القضايا المصيرية.

(١٧) تقدّم لزوم إنشاء وترويج ثقافة التقريب والاتحاد، وهذا يقتضي مشاركة الفنّ والأدب والتّمثيل وغيرها ممّا يساهم في تكوين الثقافة الصحيحة أو الخاطئة عند عامة الناس، شعروا بذلك أم لم يشعروا.

(١٨) الإعلام المسؤول والمهادف، ونشر ثقافة التقريب والوحدة، وهي عبارة عن ثقافة التسامح والمحبة واحترام الرأي المخالف والقبول بالتعددية والعمل المشترك والمساواة إلى الخيرات... مضافاً إلى تغطية جميع الأنشطة التّقرّيبية والتّوحيديّة، وإبداء الوجه المشرق لهذه القضية.

#### ضوابط الاختلاف العلمي الصحيح غير المؤدّي إلى التفرقة والاختلاف:

- (١) الاحترام وعدم الاستفزاز والترشق بالتّهم. فلنتعلم من القرآن الكريم أسلوب الحوار، وكذا من الرسول الأعظم عليه السلام كيف كان يتحاور مع المشركين، وكذا من الأئمة عليهم السلام طريقة الحوار مع شتى الطوائف والملل والمذاهب. ولا نكن أشدّ غيرة على الدّين والحقّ من الله تعالى، ومن رسوله وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.
- (٢) عدم المؤاخذه بلوازم الرّأي؛ فإنّه من المنطقي أن يحاسب الإنسان على رأيه، ويناقش بكلّ دقة وأناة، ولكن من الخطأ المؤاخذه بلوازم الآراء إذا كان

صاحب الرأى لا يقبل تلك الملازمة.

(٣) التّعذير عند الاختلاف؛ فإنه ما دما نؤمن بانفتاح باب الاجتهاد، وما دامت أسباب اختلاف النتائج الاجتهادية قائمة وطبيعية.. فمعنى ذلك القبول باختلاف الآراء والمواقف. وعليه فيجب أن يُوطّن الفرد المسلم - عالماً كان أو متعلماً، مجتهداً كان أو مقلداً - نفسه على تحمّل حالة المخالفة في الرأى، وعدم اللجوء إلى أساليب التهويل والتسقيط وأمثالها.

والجدير بالذكر أن الحوارات المذهبية من أعقد الأساليب وأخطرهما؛ لأنه في أكثر الحالات تصاحب التشنج والجدال العقيم والبحث عن الغلبة وتسقيط الآخر.

#### إعادة كتابة التاريخ لا تعتبر مدخلاً للوحدة:

أرى ضرورة إعادة كتابة التاريخ وقراءته بشكل موضوعي ومنصف. ولكن لا أعتبر ذلك من الوسائل المعتمدة للتقريب أو الاتحاد. فما دما لم نتحلّ بالصّفات المطلوبة سيكون قراءة التاريخ مدعاةً للتمزّق أكثر فأكثر.

#### وأخيراً...

لا بأس بالإشارة إلى شيء من الآثار السلبية لممارسات التقريب الخاطئة؛ فقد برز على السطح تيارٌ تقريبيٌّ مفرطٌ يصل إلى درجة التنازل عن المبادئ والثوابت المذهبية، وذلك بحجة المحافظة على مصالح الإسلام العليا، وما لم تنضم إليهم وتوافقهم على ما يرون فأنت تكفيريٌّ إرهابي. فقد خلا قاموسهم إلا من قائمتين:

القائمة الأولى: التقريب بالمعنى الذي يفهمونه، وبأسلوب الذي يرتأونه.

القائمة الثانية: الإرهاب والتكفير.

ومن يصدر فتاوى موافقة لما يرون فهو المجتهد المجدد الفذ الشجاع الجريء، ومن لا يفتي بذلك فهو مجتهدٌ مقلدٌ تنقصه الجرأة والشجاعة، يعيش خارج الزمن المعاصر.

ومن الطبيعي أن يتولد في قبال هذا القاموس تيارٌ آخر على طرف النقيض، يغلق أبواب الاجتهاد، ويتهم خصمه بالمتاجرة بالدّين، وضعف العقيدة أو الضلال.

وأرى أن الأول وقع في التّفريط، والثاني وقع في الإفراط. وعلينا أن نعقل ولا نتسرّع، ولا نغلق أبواب البحث العلمي، ولا نواجه الخطأ بخطأ آخر مضاد له. والله ولي التّوفيق.

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) راجع: كتاب مسائل خلافة حار فيها أهل السنة، للشيخ علي آل محسن.
- (٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٦٣٦، باب: ما يجب من المعاشرة، الحديث: ٤، تصحيح وتعليق علي أكبر غفاري، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلامية طهران.
- (٣) المصدر نفسه، الحديث الخامس.
- (٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١٢٦، من وصية له لابنه الحسن عليه السلام، نسخة المعجم المفهرس، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين بقم المقدّسة.

## مشكلة التقريب وأزمة المقاربات

### رؤية موجزة حول المقاربة التاريخية والأصولية

□ الأستاذ: إدريس هاني (\*)

تقديم

أظهرت الأحداث المتعاقبة على العالم الإسلامي أنه لا تكفي المجاملة في مقام نشدان التقريب والوحدة، بل وجب أن يكون سؤال التقريب والوحدة الإسلامية امتحاناً للعقل الإسلامي في اللحظات الأليمة والمنعطفات الكبرى التي تمرُّ بها الأمة الإسلامية.

وقد وُضح بما فيه الكفاية اليوم أن عنوان «الأمة الإسلامية» ومفهوم «الرابطة الإسلامية» ليس أنه بات مهدداً بالانقراض فحسب، بل بات يُلاحظ أن أكبر مفارقة يعيشها مسلمو اليوم هي أنهم أصبحوا أغرق الأمم في آفة التجزئة والتشردم.

فأضحت فكرة الأمة والعالم الإسلامي تعبيراً مجازياً لا يجد في دنيا المسلمين مصداقاً واقعياً مشخّصاً.

وربما ستظلّ الأمور على حالها ما دام العقل الإسلامي المعاصر قد ركه العناد في الأعم الأغلب، حتى بات غير محصّن من اختراق النزعات الطائفية

(\*) باحث في الفكر الإسلامي، وناشط في مسائل التقريب والوحدة/ المغرب.

المقيّنة. وهذا هو الدّاء المزمّن الَّذِي ما برح فناء الأمم - منذ زمنٍ بعيد - يتحقّق على يده.

لم يكن العالم الإسلامي منذ فترةٍ طويلةٍ مهيباً لطرح الأسئلة الجذريّة في مواجهة مشكلاته الكبرى، بل اكتفى بأنصاف الحلول والترقيع والمجاملة والالتفاف على مشكلاته. إنّنا وبتعبيرٍ آخر لم نكن في قائمة الحلول الممكنة؛ لأنّنا لم نكن في قائمة الأسئلة الجذريّة التي سمحت لآفاتنا وأمراضنا أن تستفحل أكثر فأكثر، حتّى غدا داء الفرقة والطائفية سرطاناً ما فتئ يتوسّع وينهش في جسد الأمة ويَعِدّها بموتٍ محقّق.

لقد ظلّت الثقافة الإسلاميّة منذ عهدٍ بعيدٍ مرتبطةً لثقافة عدم الدّنو من الاستشكالات الكبرى والأسئلة الجذريّة. فكان الخوف من الفتنة غولاً يحتاج العقل المسلم ويبعثه على الانزواء والسلبية، دون أن يدرك بأنّ الفتنة هي في جوهرها امتحانٌ وابتلاءٌ للأمة، وجب فيه على العلماء التصدّي له بالقول الصّادح والصّبر على البلاء. وقد بات واضحاً - أيضاً - أنّ بعضاً من العلماء وقعوا في فخّ هذا الامتحان، وبدل أن يرأبوا الصّدع صبّوا الزيت على النّار.

يتساءل المتابعون لوقائع المؤتمرات والفعاليات التي تُعقد من أجل بحث مسألة التّقريب بين المذاهب والوحدة بين المسلمين حول جدوى هذه الفعاليات ومدى تأثيرها، وهل تأتي بما هو حقيقٌ ببناء الثقة وخلق مناخ للاستئناس بين النّاشطين الدّينيين من شتى المذاهب الإسلاميّة؟!

لكن ما يبدو ملحاً في هذا السّياق أنّه هل استطعنا أن نوّسس مبانٍ تقريبيةً ووحوديةً، بغية الوصول إلى نسقٍ تقريبيٍّ ووحديٍّ مفهوميٍّ يجعل لهذه المسألة معجمها الذي يرفد الوعي التّقريبي والوحدوي بعلمٍ كاملٍ في المقام، وثقافةٍ نسقيّةٍ تُحوّل النّداء إلى التّقريب والوحدة إلى علمٍ، وليس مجرد نداءٍ يتيّم وتظاهراتٍ ينفرد بها فاعلون، قد يكونون نافذين في مجتمعاتهم وقد لا يكونون،



قد تكون لهم صولةً بالغةً وقد لا تكون، قد يشكّلون الوسيط الكفوء وقد لا يفعلون..

فالتَّحوُّل بتظاهراتنا وفعالياتنا الوجدوية والتَّقريبية إلى نموذجٍ إرشاديٍّ جديدٍ أمرٌ مطلوبٌ اليوم أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، كما أنَّ رسم استراتيجياتٍ جادةٍ ومتخصصةٍ تنبني على مقاربات ليس فقط وعظية وخطابية، بل تحتلّ فيها تخصّصاتٌ كثيرةٌ مكانةً محترمة.

وبعبارةٍ أخرى: إنّ المطلوب والمَّلح أن تعالج مسألة التَّقريب والوحدة ليس فقط بنموذجٍ إرشاديٍّ فقهيٍّ ووعظيٍّ وكلاميٍّ وربما إنشائيٍّ، كما هو حال ندائنا اليوم للتَّقريب والوحدة، بل المطلوب أن ندخل تخصّصاتٍ تغور بالمطلب بمقدار عمق الآفة وتجدُّ المرض.

فمشكلة التَّقريب والوحدة ليس بالضرورة أن تكون دينيّةً أو فقهيّةً بحثة، بل هي ثقافية واجتماعية واقتصادية وجغرافية ومناخية... وعليه، وجب أن تكون المقاربة سوسيو - ثقافية وتاريخية واقتصادية واثربولوجية وسيكولوجية...

إنّ المعالجة السَّريعة لما عليه واقع الفعاليات والتَّظاهرات التي نشهدها اليوم في بحث هذه المسألة، هي تكرارٌ مملٌ أحياناً، يصيب الوعي بالضَّجر، ويفقد جاذبيته عند المخاطب، فكأننا أمام حالةٍ مهرجانيةٍ ومواسم يضرب لها موعدٌ روتيني، فلا تأتي بجديدٍ يرفد انتظارات النَّاس بالجديد.

إننا نتساءل: لماذا نجد أنّ المذاهب نفسها المتصارعة في هذا البلد قد تتآخى في بلدٍ آخر؟!

ولماذا كلّما حلّت الأزمات بالمسلمين لاح من جديدٍ شبح الفتنة الطائفية والفرقة، كما لو أنّ هذه الآفة لم تعالج في عالمنا الإسلامي قط؟!

ولماذا يصرُّ المسلمون أن يفتخروا بأنهم أُمَّةٌ بلغت المليار والنِّصف بينما هذا

العدد لا يكتمل إلا إذا دمجنا كافة الطوائف والفرق الإسلامية؟! ولماذا أصبح لنا موعدٌ مع المشكل الطائفي، وأصبح يسيراً على دوائر الاستكبار العالمي أن تزفَّ إلينا من خلاله كافة مخططاتها، وتنسج على منواله كُبرى مؤامراتها؟! أسئلةٌ كثيرةٌ يتعيَّن وضعها في عين الاعتبار قبل أن نمضي قدماً في بحث هذا السؤال الخطير في تاريخنا وراهننا.

### المقاربة التاريخية ضرورة

نقصد بالمقاربة التاريخية: توثيق أولى مظاهر الخلاف الإسلامي - الإسلامي، ورصد تحولاته عبر أطواره المختلفة؛ بقصد الوقوف على تمثلاته وتعبيراته وتوتراته أولاً بأول.

فالمقاربة التاريخية تضع المتلقي لخطاب الوحدة على مستوى من الفهم والاستيعاب لظاهرة الخلاف بحيث يخفف من غلوائها البنيوي، ويجعلها قابلةً للفهم والنقد، لولا أننا في العالم الإسلامي نجد أنفسنا الأمة الوحيدة غير القادرة على نقد الخطاب التاريخي.

ولعلَّ غياب السؤال التاريخي هو جوهر مشكلة نهضة المسلمين وسبب إخفاقهم؛ فإنَّ ثقافة رفض التأثيم، ومنع الدنو من السؤال التاريخي من شأنها أن تؤبّد الخلاف الإسلامي - الإسلامي لقرونٍ مديدة.

تفيدنا المقاربة التاريخية في تقويض مظاهر الأسطورة التي خضعت لها الصورة النمطية المتبادلة بين المتخالفين. فالمقاربة التاريخية تدفع باتجاه الاقتصاد في الخلاف. ذلك الصّرب من التقويض المقاصدي الذي يوقف الباحث أمام الحد الأدنى من الخلاف الذي تبدّد على هامشه حالة التّضحّم في طلب الخلاف والانزواء، ويحصل في مقابل ذلك حالة التّسامح في القبول بعناصر الاختلاف

بدل التعسير؛ حيث إن مقتضى التسامح، التعسير في اعتبار ما من شأنه مخالفة المقصود من الائتلاف.

إن إطلالة سريعة على أدبيات الصراع الطائفي تُظهر إلى أي حد بلغ الإسراف في قبول الصورة النمطية عن الآخر المسلم، إلى حد طغت موارد الاختلاف الزائفة وابتلعت معها عناصر التوافق والتلاقي التي هي من الأهمية بحيث يعظم على اللبيب تجاوزها؛ لأنها تمثل أعظم القيم الإسلامية. ولا نعتقد أن مسألة التوحيد والنبوة والمعاد وما شابهها من باقي الأصول التي بها يكون المسلم مسلماً، هي دون سائر الأصول المعتبرة في ديننا الحنيف حتى لا يلتفت إليها في المقام، أو يتذرع بعدم كفايتها في بناء التقارب المنشود والوحدة المتوخاة. تتيح المقاربة التاريخية إمكانية النظر إلى موضوع الخلاف بوصفه ثمرة لاعتمالات سياسية متراكمة، وصيرورة من التشكُّل الثقافي على خلفية الانزواء بالمذاهب والطوائف وإحاطتها بأسوارٍ منيعة لا تؤمن الحد الأدنى من الذهاب والإياب بين الطوائف والمذاهب الإسلامية.

لقد فعلت السياسة الكثير في التاريخ الإسلامي، وساهمت في تحويل المذاهب الإسلامية - بوصفها مدارس للفكر والمعرفة والاجتهاد - إلى محميات مغلقة ومدن محروسة؛ إمعاناً في الثُغور المذهبي، ومبالغة في تدمير الجسور بينها. وإذا كانت السياسة قد فعلت فعلتها في التاريخ الإسلامي فلما لا تنهض سياستنا اليوم بتدارك خطأ الماضي والعمل على مدِّ جسور الوصال بين المذاهب، ومنح المجتهدين الحق في الاندماج في مناخ من التواصل كما سارت عليه العادة في حواضر العالم الإسلامي منذ أمده بعيد.

إن المتتبع لجملة الشبهات التي يحملها بعضنا عن البعض يلاحظ أنها نات بالخلاف عن حدود الأمر الطبيعي إلى حدود المبالغة والتخريف. وإذا كان التحقيق يصادم هذا النوع من التهريج الطائفي، فإن ضرباً من النسيان

والتَّجاهل تؤمَّنه السِّياسات في الأعمَّ الأغلب، وتستفيد الحكومات ممَّا في أيدي النَّاس من صورةٍ نمطيَّةٍ على حساب التَّحقيق والنَّظر.

هكذا نجدنا - مثلاً - نحاكم - بأثر رجعيٍّ - الخواجة نصير الدِّين الطُّوسي في تعامله مع هولاكُو، ونعتبر سقوط بغداد ثمرةً لهذه المؤامرة التي لعب فيها ابن العلقمي دوراً بارزاً. ولكنَّنا ننسى أنَّ ابن العلقمي كان هو الشَّخصية الأكثر استقامةً في دولة العباسيين، وهو وحده - بحسب الفخري - من لم يخمر، بل إنَّه صاحب فكرة شرح النَّهج؛ حيث طلب من ابن أبي الحديد المعتزلي التَّهوض بهذا المشروع الكبير<sup>(١)</sup>. ويمكن معرفة رأي هذا الأخير في ابن العلقمي الوزير في الشَّرح نفسه<sup>(٢)</sup>. لكن - وللأسف الشديد - لم يبعثنا وازع البحث والتَّحقيق أنَّ نتأمَّل في محاولة ابن العلقمي تجنب بغداد كارثة التَّدمير الوحشي المغولي؛ فإنَّ اختزال سقوط بغداد فيه دورٌ سرِّيٌّ لابن العلقمي قد غفل عنه الكثير.

فهذا ابن خلدون حينما يصف قوة التَّتار، يعتبرها الدَّولة الأقوى في العالم، بل لا وجود لأُمَّةٍ بهذه القوَّة منذ آدم عليه السلام. فهل كان يحتاج المغول إلى ابن العلقمي أو رجلٍ أسيرٍ مثل الخواجة نصير الدِّين الطُّوسي حتَّى يتمكَّنوا من بغداد؟!

ولكن مع ذلك لم نجد أحداً وقف عند الطَّريقة التي تعامل بها ابن خلدون مع تيمور لانك حسب ما يصف هو نفسه ذلك في سيرته<sup>(٣)</sup>. وهو حديثٌ مطوَّل جمع ابن خلدون مع تيمور لانك، وأعطاه ابن خلدون معلوماتٍ جغرافيَّةٍ غايَّةً في الخطورة عن المغرب، وكُتب ذلك وتُرجم فوراً إلى اللُّغة المغوليَّة، وهي معلوماتٌ ليس من شأنها أنْ تغري أيَّ غازٍ عسكريٍّ لغزو المغرب فحسب، بل تمكَّنه - أيضاً - من فعل ذلك على أيسر السُّبل.

إنَّ مقايسةً سريعةً بين علاقة الخواجة نصير الدِّين الطُّوسي الأسير مع هولاكُو، وبين ابن خلدون الذي يروي لنا بنفسه كيف انحنى وقبَّل يد تيمور

لأنك، وأظهر له من التذلل والدونية ما لم يجد مندوحة من وصفه بنفسه، تعطينا صورةً عن التعاطي المزدوج مع التاريخ الإسلامي، وهذا النوع من التحقيق التاريخي يوجب استبعاد مدّ الجسور بين المختلفين.

وقس ذلك على فرية التآمر الصفوي، الذي باتت اليوم شعاراً ثقيلاً راسخاً في دنيا إعلامنا كالطود الأشم. بينما الغور البسيط في التحقيق التاريخي يكشف عن أن الصفويين ليسوا سوى تلك الفرقة الصوفية التركية الأورديلية التي تبنت التشيع، وفتحت المجال للدور العربي في كثير من القضايا.

فالتشيع الصفوي هو بالأحرى التشيع العربي؛ حيث نجد أن ما من دولة في تاريخ إيران مكنت العرب من النفوذ، ومنحتهم مناصب عليا في الحكم كالدولة الصفوية.

إنّ المقاربة التاريخية لجملة الشبهات التي يستقوي بها إعلام التفريق المعاصر ضرورية منهجية واستراتيجية للتخفيف من وطأة الخلاف، وعلى الأقل يرفع الخلاف إلى قاب قوسين أو أدنى من الممارسة العلمية وأخلاقية الحوار بين المختلفين، ولا يهدم أسس التواصل المطلوب بين المسلمين.

#### المقاربة الأصولية: إشكالية القطع

انتهز هذه الفرصة كي أبدي رأياً في هذا الجدل الذي سيتيه بنا إلى ما لا تحمد عقباه، إن لم نستحضر الحكمة ونحكم العقل ونتقي الله في فتنة لها رجال شداد تأخذهم العزة بالإثم، وهم - وربك - لا يراعون..

وليس ذلك أن المرء ليس مطالباً بإحقاق الحقّ والدّود عن حمى الثقلين الذين جعلهما الله تعالى عصمة للمسلمين من الضلالة.. لكن لا بدّ من أن يحكم النقاش الرغبة الصادقة في المعرفة، والخلق الرفيع في الحوار، فليست الصراحة هي المشكلة في البين، بقدر ما أن المشكلة في القلوب حينما تعميها المكابرة،

ويتراخي الوازع الديني والأخلاقي، ويضمّر الإحساس الإنساني الذي يجعل الإنسان لا يدري متى وقع على الفتنة ومتى تقع عليه.

ومن المؤكد أنّ الهدف من النقاش والمناظرة - بغض النظر عن الشروط العلمية والأخلاقية التي يجب توفرها فيمن ينوي الخوض في هذا الميدان - لا بدّ أن يكون متّجهاً إلى تعزيز موقف الأمة ووحدة المسلمين.

فحينما أناقشك - أخي المسلم - سلفياً كنت أو غير ذلك، فالغاية أن أجعلك تتعرّف على آراء من كفّرتهم عدواً بغير علم. لكي أقول لك: أنا مسلمٌ مثلك، فلنتعاش ونبجّ بعضنا البعض، ونعبد ربنا حتى يأتينا اليقين.

إنّ علماء الأصول وإن كانوا قد تحدّثوا كثيراً عن القطع بوصفه حجة، ولكن لا يكفي هذا عزيزي المسلم؛ لأنّه في كثيرٍ من الأحيان لا يكون الطّريق الذي من خلاله حصل القطع مشروعاً، فلا تعني الحجّية الذاتية للقطع عدم المؤاخذه على الطّريق غير المشروع الذي سلّكه صاحب القطع. فأمثال القطّاع وغير السّوي في قطعه من ناحية الطّريق في حكم الجاهل الذي يجب عليه أن يحتاط لنفسه بالرجوع إلى العالم متى لم يكن في ذلك حرج؛ لأنّ أمثال هؤلاء قد يحصل لهم القطع عن طريق الأطروحة ونقيضها سواء بسواء.

غير أنّه لا بأس بالحديث عن أنّ القطع المعتبر في المقام قد قال به الفقهاء والأصوليين لجهة تناسب مع التّسهيل ورفع الحرج؛ حيث كان مجال الفقه هو الظّنون المعتبرة التي تحتل المساحة الكبرى في مجمل الأحكام بعد الانسداد. فالشارع المقدّس لعدله وحكمته عبّداً بهذه الظّنون دفعاً للحرج. وحيث ليس في الوسع إحراز الواقع، فكان القطع هاهنا بمنزلة الواقع كما لا يخفى.

غير أنّ القطع في مجال الاعتقاد ليس له إلّا طريق الدّليل. ولكن أيّ دليل؟! هل يقال: إنّ الدّليل في المقام هو البرهان؟ من قال ذلك؟ نعم القرآن يقول: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، لكنّ البرهان هنا

لا يعني بالضرورة البرهان المنطقي الذي يقابل صنوف الحجج التي تقوم على غير القياس البرهاني بالضرورة؛ لأنّ المتلقي المفترض في خطاب الوحي هو الإنسان كلّ الإنسان، بكُلّ مستوياته الإدراكية.

وكُلّ متلقٍ محاسبٌ بقطعه من ناحية الوسيلة والطريق الذي يتوسّل به للوصول إلى الواقع؛ حيث إنّهُ مكلفٌ بأنّ يستثير دفائن عقله قدر الوسع.

لكن لا يخفى أنّ من ضروب القطع ما خالف الواقع، فيكون صاحبه بمنزلة الجاهل، وهو ما يُسمّى بالجهل المركب. وقد حار المناطقة في أمر الجهل المركب، هل هو من ضروب العلم أو الجهل؟ والحق أنّ هذه الحيرة راجعةٌ إلى الزاوية التي ينظر من خلالها إلى مسألة الجهل المركب. والمسألة في اعتقادنا نسبيةٌ بامتياز؛ فالذي غلب عليه الذوق المنطقي جعله من أقسام الجهل، والذي غلب عليه الذوق الفقهي جعله من أقسام العلم. وعليه فالجهل المركب من الناحية المنطقية جهلٌ في جهل، وإن كان في نظر الفقه ضربٌ من العلم والقطع. فالمنطقي يستحضر الواقع الوجودي على نحو الحقيقة، سواء أكان الوجود ذهنياً أم خارجياً. فالقطع الذي يخالف الواقع هو جهل، فكأنّ الجاهل هنا جهل مرتين بالمطلوب؛ جهل بالمحمول، و جهل بحقيقة الجهل بالمحمول.

فمن قال - مثلاً - لمؤمن: إنّك كافرٌ، فهو جاهل بحال المؤمن في الواقع، وجاهل أنّه يكون جاهلاً. ولذا فهو قد جهل مرتين، وإن شئت فقل: ظلم مرتين، بخلاف الجهل البسيط فإنّه جهلٌ مرة واحدة بالمحمول، يلزمه علم بالجهل بالمحمول.

وكيف كان، فعلى الأقلّ لن يكون الجهل المركب في مجال الاعتقاد علماً. فالخوارج الذين طلبوا الحق فلم يصيبوه، كان التشديد عليهم ليس بأقلّ من طلب الباطل فأصابه؛ لجهة اعتبار النوايا، وحوربوا لما حاولوا أن يرتّبوا آثاراً عمليةً على جهلهم المركب. فإنّ القاطع بكفر المؤمن يستبيح دمه وعرضه وماله.

ومن هنا تظهر أهمية استمرار النقاش، وبأن لا يقطع المعتقد في مجال المناظرة إلا بدليل؛ لأنَّ منهج الرسول ﷺ في الدَّعوة كان كما يُشير القرآن إلى ذلك: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. وحتمًا لم يكن الرسول الأكرم ﷺ يشك مقدار ذرة أو أدنى في مضمون رسالته، لكنَّها قوانين التَّواصل والحوار تفرض أن يخرج المناظر عن قطعه، لنقل الخروج المنهجي عن القطع؛ حتى يكون الحوار ممكنًا.

إنَّ النَّظر في مجمل الوقائع التي ذهب ضحيتها أبرياء من البشر، حدثت بجهلٍ مرَّكب. ومن هذا المنطلق احتاطت الشَّريعة الإسلاميَّة في الدِّماء حتَّى في الحدود التي شرَّعها الله تعالى. ومن هنا - أيضًا - شدَّد الشَّرْع على عدم اتِّباع الظَّن؛ كي لا نصيب قوماً بجهالة<sup>(٤)</sup>.

المهمُّ من كُلِّ هذا أن نعرف أنَّ الحوار بين المختلفين يجب أن يستأنس بمباحث القطع استئناساً يهذَّب العقول ويلطِّف النُّفوس، ويجعل المناظرة قائمةً على الاحتياط في أحكام القيمة والتَّثبت والتَّبين. فإذا أدركنا ذلك، كان لا بدَّ من الحديث عن الغاية الأخلاقية والدِّينية والإنسانية التي توطَّر الحوار المذهبي، أعني: أن يكون المتناظران يريدان دينياً وجه الله في إحقاق الحقِّ، فلا حيلة مع الله أمام من يحاول ركوب متن المكابرة والمراءاة.

وأما الغاية الأخلاقية، فهي أن يكون الحوار والمناظرة هادفةً إلى تهدئة النُّفوس ونزع ما من شأنه تحييشها وتهيتها لتكون مطيَّةً للشَّيطان. وأما إنسانياً؛ فلأنَّ إدراك الحقيقة والمعرفة مطمحٌ إنسانيٌّ على كُلِّ حال.

وعلى هذا الأساس يمكننا الحديث عن ضربٍ بديلٍ من المناظرة، هي: «المناظرة المسؤولة». فأیُّ ضربٍ من المناظرة يهدف إلى التَّخريب ونشر الكراهية والعداوة والتَّكفير... يكون خارجاً عن شروط ومقومات المناظرة المسؤولة. لذا فإنَّ استفزازات البعض، وإمعانهم في السَّباب والشَّتْم والتَّكفير، لن يثني



الموالي الحقيقي لأهل البيت عليه السلام عن التمسك بالأخلاق الحميدة والهدف الكبير الذي ائتمنوا عليه.

وهناك من يستغل هذه الأخلاق الرفيعة، ويأنس من تعفف أتباع أهل البيت عليه السلام، لمواصلة التهريج الطائفي من طرف واحد، لكن أمثال هؤلاء لا يحسنون في صناعتهم سوى تكفير المسلمين. ومع ذلك، فلن نكفر أحداً، ولن نسيء لأحد...

فالذين امتلأت قلوبهم بأخلاق محمد وآل محمد عليه السلام، ليس أمامهم من مندوحة ليقعوا في فخ من هذه الفخاخ. فلا نحاجج المغالط إلا بمثل ما حاجج به محمد عليه السلام المشركين وعلي عليه السلام الخوارج؛ فما خاب من تمسك بكم سادق.

وليعلم كل منصف أن المشكلة ليست بين المذاهب الإسلامية بقدر ما هي مشكلة مع من فتح نار التكفير على من خالفه من المسلمين، بدون فقه وبيّنة.

إن الغائب في مقاربتنا لمسألة التقريب والوحدة هو المقاربة التاريخية القائمة على السؤال التاريخي الجذري، وأيضاً المقاربة الأصولية الناهضة على تفكيك مفهوم القطع وفلسفته، تلك الفلسفة التي أبدع فيها العقل الأصولي، لا سيما الإمامي، وحقّق وفرّع، لكن ضرورات التواصل وما نراه من نوازل من أحكام القطع تذهب حدّ إزهاق الأرواح البريئة، يقتضي مزيداً من التحقيق والبحث والنظر. فكون الدماء عند أهل البيت عليه السلام شديدة، تفرض تفصيلاً استثنائياً وجهداً آخر مضاعفاً لبحث مسألة القطع، لا سيما ما كان من جنس القطع الذي به يكفر المسلم المسلم، وبه يستحلّ دمه ويستتهر بالحرّمات.

\* \* \*

الهوامش:

(١) في كتاب الفخري: ٢٦٥: «هو مؤيد الدين، أبو طالب، محمد بن أحمد بن العلقمي البغدادي،

وزير المستعصم بالله، الخليفة العباسي، اشتغل في صباه بالأدب، ففاق فيه، وكتب خطأ مليحاً، وترسل ترشلاً فصيحاً، وكان لبيباً كريماً، ورئيساً متمسكاً بقوانين الرئاسة، خبيراً بأدوات السياسة، محباً للأدب، مقرباً لأهل العلم، اقتنى كتباً كثيرة نفسية، وصنّف له الناس، منهم: الصّغاني صنّف له العباب، وهذا (أي: شرح نهج البلاغة) المصنّف الذي ألف برسمه.

(٢) راجع: شرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي ٨: ٢٤٠، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربيّة.

(٣) كما هو مسطورٌ في آخر جزءٍ من كتاب العبر.

(٤) إشارة إلى الآية السادسة من سورة الحجرات.

## الإمام الخميني رحمته الله

### وكرامة الإنسان (\*)

□ العلامة الشيخ عبد الله جوادي آملي (\*\*)

الخميني، وما أدراك من الخميني؟! هو القائد الكبير، الذي ترك على مجتمعاتنا المعاصر أبلغ الأثر وأعظمه، فنقل إليه صفاته الفردية العظيمة والمميّزة، حتى أضحي المجتمع، بهيئته العامة، مجتمعاً عظيماً ومميّزاً.

لو أردنا أن نتأمل هذه الشخصيّة العظيمة، لوجدنا أنّها توفّرت على صفتين اثنتين يُمكن أن نعتبرهما السرّ الحقيقيّ الكامن وراء كلّ هذه العظمة ووراء هذا الامتياز والفراة.

فالإمام أولاً: لم يرَضْ لنفسه أن يعيش إلاّ حرّاً كريماً؛ فحياة الإنسان عنده لا طعم لها ولا فائدة منها بدون الكرامة. وهو ثانياً: كان يرى أن كرامته تسبح في

(\*) إعداد قسم الترجمة، نقلاً عن ملحق صحيفة جمهوري إسلامي الصادر بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لرحيل الإمام الخميني رحمته الله، الخميس: ١٤ جمادى الأولى ١٤٢٨ - ٣١ / ٥ / ٢٠٠٧، العدد: ٨٠٦٦.

(\*\*) مفكّر ومفسّر وفيلسوف إسلامي كبير / إيران.

فلك الدين، وأنّ الدين هو من يتطلّبها ويدعو إليها ويحضّ عليها.

وتمثّل هاتان الصّفتان العنصرين الأساسيين اللّذين ساهما في إعداد محور متكامل أذى من جهة، إلى تلاحم العلوم وتكاملها، ومن جهة أخرى، إلى إيقاع الصّلح والوئام بين العقل والنقل؛ لتعود آثار هذا الانسجام بين العقل والنقل على المجتمع مباشرة. هذه الآثار المشرفة التي كانت باكورتها:

أ. الوحدة الإسلاميّة، التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، وتشدّد على التّلاحم بين السنّة والشيعة.

ب. الوحدة الإلهيّة، التي تربط الأديان الإلهيّة بعضها ببعض، وتجمع وتوحد بين اليهود والمسيحيين والمسلمين.

ج. الوحدة الإنسانيّة، التي توحد أجزاء المجتمع الإنسانيّ كافّة، وتُحكّم من سيطرة رابطة الأخوة بين أفرادهم ومختلف أطيافه وألوانه، كلّ في إطاره الخاصّ به.

لقد كانت هذه الآثار الثلاثة هي الثّمار اليانعة التي حملتها شجرة «الكرامة» الزّاهرة، والتي غرسها الإمام ودافع عنها وعاش لأجلها وجاءت حياته طافحة ومشحونة بمفرداتها. فلا نَعجب بعد ذلك، إذا رأينا إصراراً على إدراج هذه الآثار الثلاثة في القانون الأساسي للبلاد، وتأكيداً على جعلها من الأغراض التي يتوجّب على هذا القانون أن يحرص على ضمان تحقيقها والحفاظ عليها. وهذه الآثار التي ذكرنا أنّها مُستمدّة ومُنتزعة من حياة الإمام الخميني (عليه السلام) ومن فصول سيرته الذاتيّة، هي - في حقيقة الأمر - مطالب دينيّة ومساائل أكّد عليها القرآن الكريم مُشيراً إليها بما هو فوق التّلميح والتّلويح.

فقد دعا القرآن الكريم إلى الوحدة الإسلاميّة بقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، والذي هو نداء صارخ للشّعب المسلم في كلّ مكان، بضرورة أن تسود الوحدة بين أبنائه، الذين هم إخوة تجمعهم أسرة

واحدة هي أسرة الدين الواحد.

وعن الوحدة بين الأديان، التي عبّرنا عنها بـ «الإلهية»، تحدّث القرآن - أيضاً - بوضوح لا يقبل التأويل ولا الشكّ، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤].

كما أنّه أقرّ مبدأ الوحدة الإنسانية كضرورة بشرية ملحّة، بقوله تعالى: ﴿لَا يَهْجُرْ إِلَّا اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْنِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]، وقد تمّ اقتباس لفظ هذه الآية واستخدامه في متن القانون الأساسي للبلاد.

فالإنسان وأخوه الإنسان كائنٌ واحد، والموحد مع الموحد كيانٌ واحد، والمسلم مع المسلم نفسٌ واحدة. إنّ هذه الوحدات الثلاث تنضوي تحت لواءٍ جامع، هو لواء الكرامة الإنسانية، هذا اللّواء الذي رفعته الأديان كافّة، ونادت به البشرية والعقلانية.

وأما كيف سار الإمام الخميني في ركاب الدين، بل كيف يكون الإنسان، أيّ إنسانٍ، سائراً في ركابه ومتعلّقاً بعراه وحباله؟! فذلك يكمن بنظرنا في استجماع الفرد لأوصافٍ ثلاثة، هي: أولاً: المعرفة بالدين، وثانياً: التصديق والاعتقاد بالدين، وثالثاً: التّدين العملي. وهذا المثلث الكثير البركة هو ما تعنيه وتمثله هويّة الإمام عليه السلام عندنا.

وقد استفاد الإمام هذه الحقيقة من القرآن الكريم نفسه؛ حيث إنّ القرآن الكريم يُعطي للإنسان أصالةً ومحوريّةً في هذا الكون، ويعتبره الضّلعة الرئيسيّة والعمود القائم في مثلث التّكامل المؤلّف من: العالم، والإنسان، والتّكامل والرّابطة بين الإنسان والعالم. فليس الإنسان موجوداً لأجل العالم، بل العالم موجودٌ لأجل الإنسان وخدمته. والعلاقة الرّابطة بين الإنسان والعالم لا تُمسك بمفاتيحها أيدي الكون، بل إنّها أزمّتها بيد الإنسان، وهي تقع تحت تأثيره

وتصرّفه. ويُعبّر عنه القرآن عن هذا المبدأ وهذه الحقيقة بـ «التَّسخير»، والتَّسخير - بحسب ما يكشف عنه القرآن - هو الحاكم والسائد في العلاقة بين الإنسان وبين كلّ ما هو سواه في هذا الكون، فالسّماوات وأهلها والأرضون وأهلها، كلّ ذلك مسخَّر له، وكلّه موجودٌ لأجله.

لا شك ولا ريب، في أنّ المسخَّر هو الله تبارك وتعالى، إلّا أنّ الجلوس إلى مائدة التَّسخير والانتفاع منها لما فيه خير الإنسان وصلاحه، لا يُمكن أن يتمّ إلّا باختيارٍ من الإنسان نفسه، ولا بدّ أن يكون مقروناً ومتوافقاً بحسّ الأمانة والمسؤوليّة.

فالكون مسخَّرٌ لأجل الإنسان، أجل، إلّا أنّه في الوقت عينه، أمانةٌ بين يديه، وهو مسؤولٌ عنها، عن جميع ما فيه، من أعماق البحار وإلى عنان السّماء وأعاليتها، ولو أنّه أحسن ذلك، وصان البيئة التي يُحيا فيها، واختار أن يُحافظ على كائناتها ومواردها وخيراتها، لوجد أنّ الخير الذي يُمكن أن يناله منها وفيرٌ وكثير، وأنّ سُبُل الاستفادة الصّحيحة منها متعدّدة، وأنّها - أي: هذه السّبل - لا تقبل الحصر ولا العدّ، ولا استطاع أن يفتح أمام نفسه آفاقاً لا تنتهي من المنافع والمصالح.

كلّ ذلك، باختيار الإنسان، ولأجل ذلك كان هو المحور الذي يقوم عليه المثلث المذكور؛ لأنّ مفاتيح الزّاويتين الأخرين، أعني: العالم، والاتّصال بينه وبين الكون، هي بيده هو وحده. وقد أكّد القرآن الكريم على محوريّة الإنسان وأصالته، إذ قال جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. كما أكّد على ذلك عندما دعا في كثيرٍ من آياته إلى حفظ حرمة الإنسان وإلى الحرص على كرامته.

### منشأ تكريم الإنسان في أصل خلقته

إنّ تكريم الخالق ﷻ للإنسان، الذي أشارت إليه الآية الآنفه الذّكر، بإمكانه

أن يقدم لنا الأجوبة للكثير من الأسئلة التي ترد أذهاننا، من قبيل: أنه لماذا كان النظام الكوني بأسره مسخراً لأجل خدمته وفي سبيل سعادته؟! ولماذا يجب علينا رعاية حُرُمته والمبادرة والمصارعة إلى تلبية احتياجاته؟! فتأتي الآية الشريفة، آية التَّكريم، لتقول لنا: النظام مسخَّر له؛ لأنَّه كريمٌ، وتجب المبادرة إلى خدمته ويجب رعاية حُرُمته للسبب عينه؛ لأنَّ له كرامةً، ولأنَّه قد خُلِقَ كريماً. إِلَّا أن سلسلة الأسئلة، لا تقف عند هذا الحد - كما أنها لا تبدأ عنده - فلذلك، لو سألنا أنفسنا السؤال التالي، وهو: أنه لماذا كان الإنسان كريماً؟! ولماذا كرَّمنا بني آدم؟! فقد لا نجد جواباً له في نفس الآية المذكورة. إِلَّا أننا لو قمنا باللجوء إلى آية أُخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، لوجدنا الجواب فيها، فالسَّـر الذي جعلنا نكرِّم الإنسان في خلقه هو أننا أردنا له أن يمارس دور الخلافة على الأرض.

ولكي نقف على المغزى من هذه الآية الشريفة بشكل أوضح، لا يسعنا إِلَّا أن نُظِّل قليلاً على ألفاظها. ومن جملة هذه الألفاظ: التَّاء في كلمة «خليفة»، فهي ليست تاء التأنيث، وإنما هي التَّاء المفيدة للمبالغة، نظير التَّاء في كلمتي «علامة» و«عقيلة»، بدليل أنه لا يُفَرَّق فيها بين صورتَي التذكير والتأنيث، فمثلاً: لا يُقال: زينب عقيلة بني هاشم، والحسين بن عليّ عقيل بني هاشم؛ وإنما يُقال: زينب عقيلة بني هاشم، والحسين - أيضاً - هو عقيلة بني هاشم.

وهكذا الإنسان، فإنَّه هو الخليفة في هذه الأرض، والخلافة الممنوحة له هي على قدرٍ عظيمٍ للغاية، بحيث استدعت أن يقوم الباري تعالى، بنفسه، بالتذكير بها، مُستخدِماً المبالغة أسلوباً للتعبير عن ذلك، وناسباً جعلها إلى ذاته القدسيَّة مباشرة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

### معنى الخلافة

ومرَّة أُخرى، نجد أننا لم نصل في أسئلتنا إلى آخر السلسلة، بل يبقى هناك

سؤال آخر، وهو: أن هذا الإنسان الذي وُجِدَتْ معه الكرامة منذ أن خُلِقَ، فسُخِّرَ له الكونَ وجميع ما فيه، وجُعِلَ خليفةً في الأرض ما دام صائناً لكرامته، ما هو معنى خلافته؟! وما هي حقيقة الخلافة التي جُعِلَتْ له؟! فهذا ما يبقى بحاجة إلى جواب آخر.

والجواب: أن الإنسان لا يكون خليفةً إلا إذا:  
 أولاً: فهم جيداً كلام الشخص الذي هو مُسْتَخْلَفٌ عنه.  
 وثانياً: بادر إلى تطبيق كلامه وإخراجه إلى حيز الإجراء والتنفيد.  
 وأما لو أنه حلَّ محلَّ المُسْتَخْلَفِ عنه، وجلس في مكانه، وأكل من خُبْزِ خلافته، ثم في النهاية لم يفهم كلامه، ولم يصل إلى درك مقاصده ولم يبلغ كُنْهها، فإنه - حينئذٍ - سيتحوّل ليصير مؤرداً تنطبق عليه الآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والتي نستطيع أن نشاهد مصاديقها وأمثلتها في كل من فلسطين المحتلة والعراق وأفغانستان.

وكذا لو كان الإنسان متلبساً بصفة الخلافة، ومتسناً مقاليدها، ومُرتقياً سدة الأمر فيها، ولكنه في الوقت عينه كان تصرفه تصرفاً بهيمياً، كتصرف السباع والوحوش، فإنه في هذه الحالة سيكون معدوداً في جماعة شياطين الإنس والجن ومحسوباً عليهم، ولن يكون خليفةً.

إن الخلافة تعني أنه يجب على الإنسان أن لا ينطق ولا يتفوّه إلا بكلام المُسْتَخْلَفِ عنه، وأنه يجب عليه أن يفهم خطاباتهِ وبياناتهِ، وأن يطبقها عملياً. فالإنسان خُلِقَ كريماً لأجل الخلافة، والخلافة تعني أن لا يكون في حياته غاصباً ولا ظالماً.

لا يُمكن للإنسان أن يكون خليفةً لله تعالى إلا إذا كان «الله» عنده هو المحور والمدار، وإذا كان يشكّل بالنسبة للإنسان كلّ همّه وكلّ تفكيره. وأما إذا كان الهوى هو المحور، وهو الفلك الذي تسبح فيه جميع تصرفاته وأفعاله وشؤونه



وأحواله، إذا كان كذلك، فمن البديهي جداً أنه لن يكون - حينئذٍ - خليفةً لله. وعلى هذا الأساس، يُمكن القول: بأن الكرامة التي شرف الله الإنسان بها تكمن في خلافته لله، وهي رهنٌ بها، فالإنسان الكريم هو الإنسان الذي يُمارس خلافة الله، وهو الإنسان الذي وضع «الله» نصب عينيه في جميع أحواله وأطوار حياته.

### كيفية الوصول إلى مقام الخلافة

وهنا نصل إلى الجزء المهم في هذا البحث، وهو: كيف يكون الإنسان خليفةً لله؟! وما هو معنى أن يكون الإنسان في موقع الخلافة عن الله تعالى؟! يوجد في المؤسسات العلميّة والصّروح الدّينيّة أناسٌ كثير تمكّنوا من جمع العلوم العقليّة والنّقليّة معاً، والكثيرون - أيضاً - قد تمكّنوا من الإحاطة بالعلوم المعقولة والمنقولة والمشهورة معاً، والكثيرون - أيضاً - جمعوا بين الفقه والعرفان وقاموا بدراستهما جيّداً، بل وكتبوا في الفلسفة أيضاً. نعم، لدينا الكثير من العلماء الجامعين للعلوم. إلّا أنّ الجمع - بتعبير علماء الحكمة والعرفان أنفسهم - نوعان، جمعٌ سالمٌ، وجمعٌ مكسّر. والقلّة القليلة ممّن ذكرناهم ممّن تمكّنوا من الجمع بين العلوم جمعاً سالماً، ونعني بالجمع السّالم للعلوم: أن يكون الشّخص مُحيطاً بالمعقول والمنقول والعرفان والحكمة والسياسة و... من دون أن يسلبه أيّ واحدٍ من هذه العلوم نصيبه من سائر العلوم، فلا العرفان يُجرّمه من ممارسة الفقه والتعمّق فيه، ولا الفقه يُبعده عن العرفان والسياسة، ولا الفلسفة تكون حاجزاً حائلاً بينه وبين الفقه والعرفان. وأمّا الجمع المكسّر للعلوم، فهو لا يُفيد أحداً، ولا يصلح دواءً ولا علاجاً لأمراض أحد.

لقد كان الإمام الرّاحل رضوان الله تعالى عليه جامعاً - بحقٍ - العرفان إلى الدّنيا، جمعاً سالماً لا تكسير فيه. ولكنّه قبل أن يقوم بالدّخول فعليّاً إلى المُجتمع، وينقل أفكاره ومعتقداته إلى هذا المُجتمع، عمّد أولاً إلى صناعة نفسه وتهذيبها

خلال مدّة من الزّمن استغرقت ثلاثاً وستين عاماً من عمره الشريف. الأمر الذي خوّلَه أن يقف، بكلّ عزَم، في المسجد الأعظم من مدينة قم المقدّسة ليقول:

«من أيّ شيء تريدون إخافتي؟! وقد بلغتُ من العمر ٦٣ سنةً، هذا العمر الذي توفي فيه النّبيّ الأعظم (عليه وعلى آله آلاف التّحيّة والثناء)، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأسلما روحيهما إلى بارئهما. إنني اليوم على أتمّ الاستعداد للرّحيل». كانت المهمّة الأولى التي أخذها الإمام الرّاحل على عاتقه مهمّة تشخيص حقل الوظائف والتكاليف الدّينيّة، ومجال النّفوذ الدّينيّ، وحدود دائرة السّلطة الدّينيّة؛ لتكون هذه النّقطة منطلقاً تحرّك منه في مسيرة تعظيم الدّين وتقديسه، واحترام الإنسان وتكريمه، وكان هذا هو ما دعاه إلى عدم السّماح بإهانة الدّين وتجاوزه ولا بإهانة الإنسان وظلمه.

فالإنسان يظلم نفسه ويُهينها عندما يُخرج الدّين من عقله وتفكيره، عندما يستبعد الدّين من عقله، ولا يُعطيه الحقّ في التعرّف على الدّين أو حتّى في التّفكير فيه، والظلم والإهانة اللّاحقان له من جرّاء ذلك ظلم وإهانة هو اختارهما، ويدها صنعتهما، لا أنّ الكرامة خذلته وأهانته، ولا أنّه لم يؤكّد كريماً وعزيراً.

والدّين بدوره يُظلم ويُهان، عندما يُجعل حدّ فاصل بينه وبين العقل، بل إنّ أكبر ضربة قاصمة وباغية يُمكن أن توجه إلى الدّين، هي أن يُختصر الدّين في النّقل ومُفرداته، ويدّعى - ظلماً وعدواناً - أن لا علاقة له بالعقل، ولا للعقل علاقة به، أو أنّ كلاّ منهما من وادٍ غير الآخر؛ لأنّ في ذلك تقطيعاً لأوصال الدّين، وتمزيقاً لأعضائه أشلاء. إنّ الذي يزعم أنّ الدّين كتابٌ وسنةٌ فقط، فهو بزعمه هذا يقوم بانتزاع قلب الدّين وروحه منه، ويُبقي جسدًا لا حياة فيه، وقد فصلت أعضاؤه ويدها ورجلاه، بعضها عن بعض.

وعندئذٍ، فالدين الذي يُعَرَض على هذا الشَّكل، دين الأعضاء الجامدة الخالية من الرُّوح والحركة، دين اليد والقدم من غير رأسٍ ولا قلب، عندما تكون هذه هي الصُّورة التي نعرضها ونقدّمها للدين، فمن الطَّبِيعِيّ جدًّا، أنْ يَدْخُل هذا الدين الفاقد للحياة، بل أنْ يُقَحَّم ويُزَجَّ، في معركة خاسرة بينه وبين العلم، في معركة يُقضى عليه فيها على يد أمثال: غاليلو، وكوبرنيك، ونيوتن، وأتباع هؤلاء وأنصارهم. وبهذا يُكْتَب للدين الزوال؛ لأنَّ جمعه لم يكن سالمًا، بل مكسَّرًا.

وأما لو كان الجمع سالمًا، ونظرنا إلى الدين كجسدٍ متكامل الأعضاء، متوفِّر على الجوارح والجوانح كافَّةً، كجسدٍ يغلي بالحياة ويتدفَّق بالحيويَّة والحركة، ولو نظرنا إليه كحرمٍ آمنٍ يسع العقل والنقل معًا، ويحتفظ بمكانٍ وحيزٍ لكلٍّ منهما، فهذه النظرة الواقعيَّة للدين، لا يصحَّ أنْ يُجْعَلَ الدين في قبال العقل والعلم؛ إذ لا تناحر بينهما ولا تضارب، بل كمال الانسجام وتام الوئام، كيف لا؟! والعقل بهذه النظرة واحدٌ من أهمِّ عناصر الدين، بل هو قلبه وروحه، كما عرفنا. وإنَّما الذي قد يصحَّ جعله في قبال العقل وبإزائه فهو النقل، والنقل ليس كلَّ الدين، ولا الدين مُنحصَرٌ به، بل هو مجرد جزءٍ من محتويات الدين وأحد مكوناته الداخليَّة.

وحقًّا نقول: إنَّ العقل لو لم يفهم كلام الله، ولو لم يدرك ما وراء كلامه من مقاصد، فلن يكون ولن يبقى خليفة له. وكيف لشخصٍ أن يكون خليفة عن الغير، وهو لا يفهم ولا يعقل شيئًا من كلام المُستخَلَف والمنوب عنه؟! وكيف لنا أن نقبل ونُصدِّق بأنَّ الله الذي خلق هذا الإنسان لم يعرفه كلامه؟! أو أنه لم يُبين له ما يريد؟! أو أنه لم يهده إلى الطريق التي تُوصله إلى رضاه؟! أو لم يكشف له عن الطرق التي تُوصله إلى غضبه وتورده مهالك سخطه؟!

كلا، بل عطاء الله للإنسان لم يقتصر على العقل الذي يُنير الطريق أمامه،

وَيُجَنَّبُهُ عَنِ الْغَفْلَةِ، فَحُسْبٍ، بَلْ إِنَّهُ تَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ عِبْرَ إِعْطَائِهِ أَمْرًا آخَرَ، هُوَ أَيْضًا عَلَى قَدْرِ عَالٍ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ فِي مَسِيرَةِ الْحَرَكَةِ نَحْوَ الْحَقِّ، أَلَا وَهُوَ «الْفُطْرَةُ»، تَوَامَ الْعَقْلِ وَشَقِيْقِ رُوحِهِ.

وبهذا يكون الإنسان قد حصل على الجناحين اللذين يلزمانه في سبيل الوصول إلى معرفة الدين، ثمَّ التَّصْدِيقُ بِهِ والإِذْعَانُ لَهُ. وبالعقل والْفُطْرَةَ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْقِلَ كَلَامَ الْمُنُوبِ وَالْمُسْتَخْلَفِ عَنْهُ، وَبِنَفْسِ الْعَقْلِ وَالْفُطْرَةِ يَلْتَفِتُ إِلَى عَجْزِهِ عَنْ دَرْكِ هَذَا الْكَلَامِ بِجَمِيعِ مَعَانِيهِ وَمَرَامِيهِ؛ لِيَكْتَشِفَ أَنَّهُ مِنَ الْبَعِيدِ، بَلْ مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ، أَنْ لَا يَكُونَ لِلَّهِ رَسُولٌ مُدْرِكٌ لِحَقِيقَةِ كَلَامِهِ وَلَدِيهِ الْقُدْرَةُ عَلَى تَوْضِيحِهِ وَبَيَانِهِ لِلنَّاسِ وَإِصَالِهِ إِلَى أَذْهَانِهِمْ، وَلِيُدْرِكَ - أَيْضًا - أَنَّ الْعَالَمَ الَّذِي هُوَ عَلَى اتِّصَالٍ وَارْتِبَاطٍ بِهِ، عَالَمٌ مُحَدُودٌ فِي إِمْكَانِيَّاتِهِ وَطَاقَاتِهِ، وَهَذِهِ الْمَحْدُودِيَّةُ تَجْعَلُهُ - أَيُّ: الْعَالَمُ - مُفْتَقِرًا إِلَى الرَّسُولِ وَمُحْتَاجًا مَعَهُ إِلَى الْوَحْيِ.

وبملاحظة ما تقدَّم نكون قد توَصَّلْنَا إِلَى أَنَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَى وَجُودِ الْوَحْيِ، بَلِ الَّذِي أَفْتَى بِكَوْنِهِ ضَرُورَةً لَا مَجَالَ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْهَا، هُوَ الْعَقْلُ نَفْسُهُ. فَالْعَقْلُ وَالْفُطْرَةُ وَالتَّنْقُلُ شُرَكَاءُ فِي الْمَنْظُورِ الدِّينِيِّ، وَشُرَكَاءُ - أَيْضًا - فِي إِثْبَاتِ الْوَحْيِ وَالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ. وَهُوَ مَا يَجْعَلُ الْوَحْيَ يَتَرَبَّعُ عَلَى عَرْشِ الْعُلُومِ وَيُكْرِّسُهُ سُلْطَانًا عَلَيْهَا، بَلْ وَمِنْ شَأْنِهِ - أَيْضًا - أَنْ يَنْصَبَ النَّبِيَّ وَالْإِمَامَ سُلْطَانًا عَلَى النَّاسِ وَمَقَدَّمًا عَلَيْهِمْ.

يعتمد الدين على مجموعة من الطُّرُقِ الْكَاشِفَةِ، وَهَذِهِ الطُّرُقُ، مِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِي الْوَسَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ، وَمِنْهَا مَا يَنْدَرِجُ فِي الْوَسَائِلِ النَّقْلِيَّةِ. فَالنَّقْلُ مِنْهُ مَا هُوَ صَحِيحٌ وَمُعْتَبَرٌ وَمِنْهُ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْعَقْلُ أَيْضًا، مِنْهُ مَا هُوَ مُعْتَبَرٌ، وَهُوَ الْعَقْلُ الْبُرْهَانِي، وَمِنْهُ مَا لَيْسَ مُعْتَبَرًا وَلَا يُمَكِّنُ الْاعْتِمَادَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْقِيَاسُ وَالتَّمَثِيلُ وَالْخِيَالُ وَالتَّخْمِينُ وَالْوَهْمُ.

وَالْعَقْلُ الْبُرْهَانِي وَالنَّقْلُ الْمُعْتَبَرُ نِعْمَتَانِ وَوَسِيلَتَانِ أَعْطَاهُمَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ

للإنسان، لتكون الأولى من داخله ومن صميمه، والثانية أجنبيّة عنه ومن خارجه، وهما عاملان قويّان يدفعان بالإنسان إلى معرفة الدّين، ويؤمّنان له الوسائل والأدوات اللاّزمة لفهم كلام المُستخَلَف عنه والقبول والتّصديق به، ويُتيحان له الفُرصة لممارسة دور الخلافة الذي خُلِق لأجله.

وبناءً عليه، فكرامة الإنسان رهْنٌ بخلافته، وخلافته وقْفٌ على المعرفة العقليّة والفطريّة لله عزّ وجلّ. ولو أنّ الإنسان استطاع أن يَحْصِلَ على الفهم والإيمان والعمل معاً، فإنّه سيصل - لا محالة - إلى مقام عظيم يُصبح معه مظهرًا من مظاهر الأسماء الإلهيّة، وموردًا للتّكريم والتّعظيم الإلهيّين؛ حتّى تُزَيَّن له الجنان، وتتوافد الملائكة عليه لاستقباله، وتُدخله الجنّة آمنًا ومُطمئنًا.

والحمد لله ربّ العالمين..

\* \* \*

## البيعة في المنهج الإسلامي

### أسس ومبادئ ومقومات

□ السيد سعيد كاظم العذاري (\*)

تقديم

من أساسيات المنهج الإسلامي الاعتماد على الأمة في إنجاح المسيرة التكاملية لحركة الإسلام الميدانية؛ بإقرار المفاهيم والقيم السامية في الواقع، وتحقيقها في صورة عملية ذات معالم واضحة وملموسة، تترجم فيها التصورات والنصوص إلى مشاعر وأوضاع وارتباطات وحركات وأعمال وأخلاق، في جميع مجالات الحياة الإنسانية.

وهذه المسؤولية تكليف عام يشمل الجميع من غير استثناء، فتشمل القائد والأمة، أو الحاكم والمحكومين، فكلٌّ منهم دورٌ محدّد يساهم من خلاله في إنجاز المهمّات وإنجاح سير الأعمال. ومن هنا جاءت البيعة تعبيراً عن توزيع المسؤولية، وعن دور الأمة في اختيار القائد والحاكم الأصح من بين المؤهلين للقيادة والحاكمية، وبالبيعة تشعر الأمة بمساهمتها في البناء وفي إرساء أركان ومقومات النظام الإسلامي والحكومة الإسلامية، وفي تحمّل المسؤولية في تنفيذ

(\*) باحث إسلامي / العراق.

البرامج الإسلامية أو المساهمة في تقريرها.

وللبيعة دورٌ كبيرٌ في انطلاقة المسلمين الأولى في صدر الرسالة؛ لتحقيق الأهداف وإنجاز التكليف، وكان لها دورٌ ملموسٌ في اختيار الحاكم الإسلامي أو توكيد حاكميته في الواقع، أو في متابعة أوامره وإرشاداته ونواهيها، والعمل على ضوئها.

وقد حرص رسول الله ﷺ على العمل بها، وحرص الإمام علي عليه السلام على العمل بها، وكذلك حرص جميع الحكّام على العمل بها وإن كانوا غير مؤهلين لمنصب الحاكمية طبقاً للشروط التي حدّدها الشارع المقدّس. وفي هذا البحث نتطرّق إلى الأسس والمبادئ والمقومات الفقهية والتاريخية للبيعة؛ لنصل إلى صورة واضحة المعالم عن خصوصياتها النظرية والتطبيقية.

### البيعة في معناها اللغوي

البيعة هي: «الصفقة على إيجاد البيع»<sup>(١)</sup>.

وهي عبارة عن «المعاقدة والمعاهدة»<sup>(٢)</sup>.

وورد في تفسير روح البيان: «سمّيت المعاهدة مبايعة تشبيهاً بالمعاوضة المالية أي: مبادلة المال بالمال في اشتغال كلّ واحدٍ منهما على معنى المبادلة»<sup>(٣)</sup>.

فالبيعة هي معاهدة بين طرفين، ويكون التّعهد منهما منصباً على تنفيذ ما تعاهدا على تنفيذه، وهي عهدٌ حقيقيٌّ قائمٌ بين طرفين على أسسٍ متفقٍ عليها بينهما.

### البيعة في معناها الاصطلاحي

المعنى الاصطلاحي للبيعة هو المعنى اللغوي نفسه، وهو: المعاقدة والمعاهدة، ولكن غلب استعماله في الميثاق الذي يحصل بين القائد وأتباعه، أو

بين الرئيس ومرؤوسيه.

فيقال: بايع السلطان: «إذا تضمّن بذل الطّاعة له بما رضى له، ويقال لذلك بيعة ومبايعة»<sup>(٤)</sup>.

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ألا تبايعوني على الإسلام» وهو عبارة عن «المعاقدة والمعاهدة، كأنّ كلّ واحدٍ منهما باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره»<sup>(٥)</sup>.

وكانت البيعة في لغة العرب «علامة على وجوب البيع، وأصبحت في الإسلام علامة على معاهدة المبايع المبايع له أن يبذل له الطّاعة فيما تقرّر بينهما، ويقال: بايعه عليه مبايعة: عاهده عليه»<sup>(٦)</sup>.

والبيعة: «عهد من قبل الحاكم على تطبيق الإسلام، والبيعة من قبل الأُمّة طاعة هذا الحاكم في غير معصية»<sup>(٧)</sup>.

والبيعة هي «المعاهدة على الطّاعة والنّصرة، وذلك بإيكال القيادة والرّأي في كلّ الأمور العامّة - بل الخاصّة - إلى القائد الذي أُعطيت البيعة له، بحيث لا يحول دونه بذل مال ولا نفس»<sup>(٨)</sup>.

وفي القرآن الكريم ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي يَبَايِعُكَ إِنَّمَا يُبَايِعُكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الفتح: ١٠].

فالبيعة بالمعنى الاصطلاحي هي المعاهدة والمعاقدة بين القائد أو الحاكم والأُمّة أو بين الرؤساء والأتباع. وهي من الوسائل التي استخدمت قبل الإسلام لتعيين الرّعاة العشائريّة أو توكيدها، وقد أقرّها الإسلام وأضاف إليها شروطاً، وقبدها بقيودٍ منسجمةٍ مع مفاهيمه وقيمه في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة.



## البيعة في عهد رسول الله ﷺ

### أولاً: البيعة على الرسالة

في بداية الدعوة الإسلامية بايع بعض الأنصار رسول الله ﷺ على الرسالة كعقيدة وشريعة، فعن عبادة بن الصّامت قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بهتانٍ من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غششتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غفر»<sup>(٩)</sup>.

وتلحق بها بيعة النساء بعد فتح مكة بالمضامين نفسها، حيث وردت في سورة الممتحنة: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١٢)</sup>.

ومقتضى البيعة - وهو عدم الإشراف بالله وعدم ممارسة الفحشاء والمنكر - وإن كان واجباً عليهم قبل البيعة؛ لأنه من مستلزمات الدخول في الإسلام، إلا أن البيعة هنا أفادت التأكيد، فاجتمع على المبايعين واجبان، واجب الالتزام بمفاهيم وقيم وأخلاق الرسالة، وواجب الوفاء بالعهد الذي عاهدوا رسول الله ﷺ عليه، فيكون الالتزام أكد عليهم؛ لأنهم اختاروه بالبيعة التي كان ثمنها استغفار رسول الله ﷺ لهم، وإدخالهم الجنة جزاءً لوفائهم للعهد بالبيعة.

### ثانياً: البيعة على الولاية

بايع جمعٌ من الأنصار في بيعة العقبة الثانية رسول الله ﷺ على الولاية وما يترتب عليها من طاعة واستسلام لأوامره في جميع الظروف والأحوال. فقال لهم رسول الله ﷺ: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل،

والنَّفَقَة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة»<sup>(١٠)</sup>.

وعن عبادة بن الصَّامِت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السَّمْع والطَّاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنّا، لا نخاف في الله لومة لائم»<sup>(١١)</sup>.

وعن أسعد بن زرارة قال: «يا رسول الله... ودعوتنا ونحن جماعة في دار عزٍّ ومنعة لا يطمع فيها أحدٌ أن يرأس علينا رجلٌ من غيرنا، قد أفرد قومه وأسلمه أعمامه، وتلك رتبةٌ صعبةٌ فأجبناك إلى ذلك...»<sup>(١٢)</sup>.

والأنصار حين البيعة - كما هو المستفاد من النصوص المتقدمة - كانوا يتعاملون بروح إنشاء الولاية للرسول ﷺ وليس توكيدها؛ لأنهم قد بايعوه قبل نزول آيات الولاية والطَّاعة.

فالآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ إِلَىٰ عِندِ رَبِّهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. والآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

نزلتا بعد بيعة العقبة وبعد هجرته إلى المدينة، وكذلك جميع آيات الولاية والطَّاعة، فقد نزلت بعد البيعة، وبعد تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة. وقد تعامل رسول الله ﷺ مع الأنصار على ضوء البيعة، فحينما أتاه خبر مسير قريش نحو المدينة قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيُّها النَّاس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنَّهم عدد النَّاس، وأنَّهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: «يا رسول الله إنا براء من ذمَّتنا نمنعك ممَّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا»، فكان رسول الله ﷺ يتخوَّف ألا تكون الأنصار ترى عليها النُّصرة إلَّا من دهمه بالمدينة من عدوِّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم<sup>(١٣)</sup>.

وبعد البيعة أصبح رسول الله ﷺ قائداً وحاكماً ورئيساً - في نظر الأنصار -؛ لأنهم قد يرون - والله العالم - بأن الدين عقيدة وعبادة وأخلاق، وليس له علاقة بالحكومة والدولة والسياسة، فقد أفادت البيعة معنى الولاية والطاعة.

#### ثالثاً: البيعة على الثبات في الجهاد

في بيعة الرضوان قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أتبايعوني على الموت؟» فبايعوه على أن لا يفروا<sup>(١٤)</sup>.

وكان المسلمون يقولون: «بايعهم رسول الله ﷺ على الموت»، وكان جابر بن عبد الله يقول: «إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر»<sup>(١٥)</sup>.

الثبات وعدم الفرار في الجهاد واجب شرعي، فرضه القرآن الكريم، وفرضه رسول الله ﷺ كقائد وولي، إلا أن البيعة عليه أفادت التأكيد، بل هي أكثر تأكيداً، وأكثر تأثيراً من الوجوب الشرعي؛ لأن بعض المسلمين أو أغلبهم كانوا يخالفون بعض الأحكام الشرعية، ولكنهم لا يخالفون العقد والعهد الذي قطعوه على أنفسهم ببيعتهم لرسول الله ﷺ، وتعاهدوا على الوفاء به؛ لأنه مخالف لشرف الكلمة التي تعاهدوا عليها. فالبيعة هنا أكثر تحريكاً لهم من الوجوب الشرعي، ومن هنا فقد أخذها ﷺ منهم في أحلك الظروف وأشدّها، لكي تكون ملزمة لهم في تجسيد مضامينها في الواقع العملي، إضافة إلى الالتزام بالمسؤولية الشرعية في الثبات على الجهاد، وعدم الفرار حين اشتداد الهجمة الشرسة عليهم.

#### بيعة أبي بكر بالخلافة

بعد حوار صاحب بين ثلاثة من زعماء الأنصار وثلاثة من المهاجرين، قام عمر بن الخطاب بترشيح أبي بكر للخلافة وبايعه، ثم تبعه بشير بن سعد

الأنصاري حسداً لسعد بن عباد، وقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فبادروا إليه وأخذوه منه<sup>(١٦)</sup>.

ثم خرجوا من مكان الاجتماع، وأعلنوا بيعه أبي بكر بالخلافة، وفي ذلك قال البراء بن عازب: «... وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة... لا يمرُّون بأحدٍ إلَّا خبطوه، وقدموه فمدُّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء ذلك أم أبى»<sup>(١٧)</sup>.

وكانت البيعة فلتة كما وصفها القائمون بها، فقد خاطب أبو بكر الرافضين لبيعته بالقول: «إِنِّي بَيْعْتِي كَانَتْ فِلْتَةً وَقَى اللَّهَ شَرَّهَا»<sup>(١٨)</sup>.

ووصفها عمر قائلاً: «فَلَا يَغَرَّنَّ أَمْرُؤُ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فِلْتَةً فَتَمَّتْ، وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَقَى شَرَّهَا»<sup>(١٩)</sup>.

وقد تخلَّف عن هذه البيعة الكثير من المهاجرين والأنصار، وقال عمر بن الخطاب واصفاً الأحداث: «إِنَّ عَلِيًّا وَالزُّبَيْرَ وَمَنْ مَعَهُمَا تَخَلَّفُوا عَنَّا فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ، وَتَخَلَّفَتْ عَنَّا الْأَنْصَارُ بِأَسْرَهَا»<sup>(٢٠)</sup>.

وعلى الرغم من معارضة عددٍ كبيرٍ من الصحابة لتسلُّم أبي بكر زمام الأمور إلَّا أنَّ أبا بكر تنصَّب خليفة ببيعة رجلٍ واحدٍ وهو عمر بن الخطاب، ولا نريد هنا إثبات عدم صحَّة الخلافة أو صحَّتْها بهذه الطَّريقة، وإنَّما استعرضناها كواقعة تاريخيَّة تنبَّأها جمعٌ من الفقهاء فيما بعد كنظريَّة من نظريَّات الحكم، وهي انعقاد الخلافة ببيعة رجلٍ واحدٍ؛ حيث كانت البيعة إنشاءً للخلافة.

### بيعة عمر بن الخطاب بالخلافة

أصبح عمر بن الخطاب خليفةً بنصٍّ من أبي بكر<sup>(٢١)</sup>، فكانت بيعته من قبل المسلمين تأكيداً لهذه الخلافة بغضِّ النَّظر عن صحَّتْها أو عدم صحَّتْها، فقد جاءت البيعة في مرحلةٍ لاحقةٍ من النصِّ عليه من قبل أبي بكر.

### بيعة عثمان بن عفان بالخلافة

جعل عمر بن الخطاب أمر الخلافة أو تعيين الخليفة شورى بين ستة من الصحابة، وأوصى صهيياً بقتل من يخالف الاتفاق إذا كان واحداً أو اثنين، وإن رضي ثلاثة رجالاً وثلاثة رجالاً أرجع الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال: «فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقيين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس»<sup>(٢٢)</sup>.

وفي اجتماع الشورى أصبح الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف يختار من يشاء، فوضع شروطاً لمن يتصدى للخلافة، وهي العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفيتين من بعده<sup>(٢٣)</sup> فقبلها عثمان ورفض علي<sup>عليه السلام</sup> الشرط الثالث، فاختر عثمان خليفة<sup>(٢٤)</sup>.

ثم جاءت البيعة في مرحلة لاحقة لهذا الاختيار، فهي تأكيد لاختياره من قبل عبد الرحمن بن عوف.

### بيعة علي<sup>عليه السلام</sup> بالخلافة

بعد مقتل عثمان هرع المسلمون إلى علي<sup>عليه السلام</sup> ليبايعوه على الخلافة فأجابهم: «دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول... وأنا لكم وزيراً، خير لكم مني أميراً»<sup>(٢٥)</sup>.

وبعد إلحاحهم عليه قبل بالأمر، وقد وصف شدة الزحام علي بيعته قائلاً: «فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي يتالون علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفائي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم...»<sup>(٢٦)</sup>.

ولم يتخلف عن بيعته إلا جماعة من بني أمية<sup>(٢٧)</sup>.

وبيعة الإمام علي<sup>عليه السلام</sup> بالخلافة كانت أول بيعة عامة حضرها جميع الصحابة من مهاجرين وأنصار عن قناعة وقبول، وكان المبايعون على نحوين: الأول بايع

بروح إنشاء الولاية والخلافة له؛ لأنه لا يتبنّى النّصّ على خلافته من قبل رسول الله ﷺ، والثّاني: بايع بروح تأكيد الولاية والخلافة؛ لأنه يؤمن بأنّه وليّ وخليفة بالنّصّ، فجاءت البيعة له بالخلافة بعد ثبوتها له بالنّصّ.

وبعد شهادة الإمام علي عليه السلام، ببيع الإمام الحسن عليه السلام حيث كانت البيعة له بيعة عامّة<sup>(٢٨)</sup>.

أمّا بعد عهد الإمامين علي والحسن عليهما السلام، فإنّ البيعة لم تتمّ بالطّرق المعهودة، فقد استولى معاوية بقوة السّيف، ثمّ قام بتثبيت البيعة بالترّهب والترّغيب حيث يقول: «أمّا بعد فإنّي والله ما وليت أمركم حين وليته إلّا وأنا أعلم أنّكم لا تسرّون بولايتي ولا تحبّونها، وإنّي لعالم بما في نفوسكم، ولكنّي خالستكم بسيّفي هذا خالسة»<sup>(٢٩)</sup>.

وفي حياته أخذ البيعة لابنه يزيد دون استشارة، ودون قبول من قبل كبار الشّخصيّات وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام، وفرض البيعة بالإرهاب، كما في وصيّته ليزيد: «إنّي قد كفيتك الرّحلة والرّجال ووطأت لك الأشياء، وذللّت لك الأعزّاء»<sup>(٣٠)</sup>.

وبعد خلافة الإمام الحسن عليه السلام فقدت البيعة شروطها وأجوائها السّليمة، وحدودها الموضوعة لها من قبل رسول الله ﷺ، فتسلّط على رقاب المسلمين حكّام بقوة السّيف ثمّ أخذوا البيعة بالترّهب والترّغيب.

وبعد هذه النّبذة التّاريخيّة عن مسار البيعة نتطرّق إلى أسس ومقومات ومبادئ البيعة.

### شروط البيعة

البيعة من الأمور التي أقرّها الإسلام وعمل بها رسول الله ﷺ والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام؛ ولذا فهي مقيدة بقيود ومشروطة بشروط مشروعة لكي لا

تستغل استغلالاً سلبياً يقوم على أساس الأهواء والمصالح الذاتية الضيقة، فحينما تبدل وتتغير تبعاً لتبدل وتغير الأمزجة والمصالح، فإنها تفقد غاياتها التي أقرت من أجلها.

ومن هذه الشروط:

**الشرط الأول:** أن تكون البيعة في أمر مشروع؛ فالبيعة باعتبارها معاهدة ومعاهدة تنوزع فيها المسؤولية بين المبايع والمبايع له، ويقومان معاً للتطلع إلى الأهداف الكبرى وتحقيقها في الواقع بالتآزر والتعاون، فلا بد وأن يكون متعلقها أمراً مشروعاً واجباً كان أم مندوباً أم مباحاً في أمور الدين أو الدنيا. وقد دلت سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام وسيرة الفقهاء الصالحين على ذلك، فقد بويع رسول الله ﷺ على النصرة والجهد والطاعة، والامتنال لأمر الله تعالى في عبادته والالتزام بأوامره ونواهيه، وبويع الإمام علي عليه السلام على الخلافة وجهاد الناكثين والقاسطين والمارقين، وبويع الإمام الحسن عليه السلام بالخلافة وجهاد المتمردين على حكومته، وبويع الإمام الحسين عليه السلام على جهاد الحكم الأموي، وبويع الإمام علي الرضا عليه السلام على ولاية العهد، وسيبايع الإمام المهدي عليه السلام على - كما جاء في قوله -: «ثلاثين خصلة تلزمكم، لا تغيرون منها شيئاً، ولكم عليّ ثمان خصال»<sup>(٣١)</sup>.

ويدل على هذا الشرط قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إن أتاكم آت منّا، فانظروا على أيّ شيء تخرجون، ولا تقولوا خرج زيد، فإنّ زيدا كان عالماً صدوقاً، ولم يدعكم إلى نفسه، وإنّا دعاكم إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفر لوفى بما دعاكم إليه، إنّما خرج إلى سلطانٍ مجتمع لينقضه»<sup>(٣٢)</sup>.

وعلى ذلك لا تصح البيعة للقيام بمعصية الله تعالى، أو معصية من نصبه الله ورسوله ﷺ بالتّنصيب الخاص كما في تنصيب الإمام المعصوم عليه السلام، أو بالتّنصيب العام كتّنصيب الفقيه الجامع للشرائط، وكذلك لا تصح البيعة على

أمر فيه مفسدة عقائدية أو تشريعية أو سلوكية، كبيعة البعض لطلحة والزبير ومعاوية على قتال الإمام علي عليه السلام المنصب من الله والمنتخب من قبل الأمة.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمَبَايِعَ لَهُ مَمَّنْ تَصَحُّ مَبَايِعَتُهُ؛ فَصَحَّةُ الْبَيْعَةِ مَشْرُوطَةٌ بِأَنْ يَكُونَ الْمَبَايِعَ لَهُ مَمَّنْ تَصَحُّ مَبَايِعَتُهُ شَرْعاً كَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَالْفُقَهَاءِ الْعَدُولِ، أَوْ مِنْ نُصِّبَ مِنْ قَبْلِهِمْ، أَوْ مَمَّنْ سَمَحُوا لِلْمُسْلِمِينَ بِبَيْعَتِهِ اضْطِرَّاراً، أَوْ لظُرُوفٍ تَتَنَاسَبُ مَعَ الْمَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعُلْيَا، فَلَا تَصَحُّ بَيْعَةٌ غَيْرُ الْمَعْصُومِ مَعَ وَجُودِ الْمَعْصُومِ أَوْ مَعَ عَدَمِ إِقْرَارِهِ لِبَيْعَةٍ غَيْرِهِ، وَلَا تَصَحُّ بَيْعَةٌ غَيْرُ الْعَادِلِ.

ولهذا نجد أَنَّ الإمام علياً عليه السلام رفض بيعته من تقدّمه قائلاً: «أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكُمْ، لَا أَبَايَعُكُمْ وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْبَيْعَةِ لِي...»<sup>(٣٣)</sup>.

وقال الإمام الحسين عليه السلام: «ويزيد رجلٌ فاسقٌ، شاربٌ الخمر، قاتلٌ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ، معلنٌ بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»<sup>(٣٤)</sup>.

ويرى القرطبي أَنَّ أَحَدَ طَرِيقِ إِثْبَاتِ الْوَلَايَةِ أَوْ الْخِلَافَةِ هُوَ بَيْعَةُ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ «إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِمَامُ مُعْلِناً بِالْفُسْقِ وَالْفُسَادِ»<sup>(٣٥)</sup>.

ويرى المودودي أَنَّهُ «لَا يُنْتَخَبُ لِلْإِمَارَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَثْقُونَ بِهِ، وَبَسِيرَتِهِ وَبَطْبَاعِهِ وَخَلْقِهِ، فَإِذَا انْتَخِبُوهُ فَهُوَ وَلِيُّ الْأَمْرِ الْمَطَاعِ فِي حُكْمِهِ»<sup>(٣٦)</sup>.

ويرى السيّد كاظم الحائري أَنَّ التَّرْجِيحَ بِالْبَيْعَةِ يَصَحُّ بَعْدَ فَرْضِ صِلَاحِيَّةِ الْوَلَايَةِ لِمَنْ تَبَايَعَهُ الْأُمَّةُ، وَهُوَ «الْفَقِيهُ الْجَامِعُ لِلشَّرَائِطِ فِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ»<sup>(٣٧)</sup>.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: الْبَيْعَةُ اخْتِيَارِيَّةٌ؛ فَإِنَّ الْمَنْهَجَ الْإِسْلَامِيَّ مِنْهَجُ حَيَاةٍ وَاقِعِيَّةٍ لَا يَصْطَلِمُ بِالْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ التَّوَاقُّةَ لِلْحُرِّيَّةِ، وَلِهَذَا جَعَلَ الرَّضَى النَّفْسِيَّ وَالْقَبُولَ الْقَلْبِيَّ دَافِعاً لِلْعَمَلِ وَالسُّلُوكِ لِأَدَاءِ الْمَسْئُولِيَّةِ، فَهُوَ لَا يَسْتَنْدِ إِلَى الْإِكْرَاهِ أَوْ الْإِجْبَارِ فِي مَجْمَلِ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ، وَإِنَّمَا تَرَكَ الْأَمْرَ لِلَاخْتِيَارِ، لِكَيْ يَسَاهِمَ الْإِنْسَانُ بِالْبِنَاءِ وَالْعَمَلِ الرَّسَالِيِّ عَنْ قَنَاعَةٍ وَقَبُولٍ ذَاتِيٍّ؛ وَلِهَذَا جَعَلَ الْبَيْعَةَ



اختيارية، فرسول الله ﷺ لم يُكره أحداً على بيعته، وإنما جعلها باختيار المسلمين - وإن كانت واجبة عليهم من الناحية الشرعية -، وكذلك فعل الإمام علي عليه السلام فلم يُكره أحداً على بيعته بالخلافة، أو بيعته في جهاد الناكثين والقاسطين والمارقين، ففي جوابه لمن نقض بيعته قال: «إنما كان لكما ألا ترضيا قبل الرضا وقبل البيعة، وأما الآن فليس لكما غير ما رضيتم به، إلا أن تخرجا مما بويعت عليه بحدث»<sup>(٣٨)</sup>.

ولهذا يكون اختيار ورضا الأمة شرطاً في انعقاد الخلافة<sup>(٣٩)</sup>.  
وقيل: لا تكون القيادة شرعية حقاً إلا إذا جاءت نتيجة الاختيار الحر والبيعة الصحيحة، لا بالضغط والمناورات<sup>(٤٠)</sup>.

### وجوب الوفاء بالبيعة

البيعة مسؤولية أريد منها المساهمة في البناء والعمل الجدي لتحمل أمانة الدعوة وتحمل تكاليف الشريعة، والنهوض بأعبائها في عالم الضمير وعالم الواقع على حد سواء، والاستقامة على المنهج الذي يريده الله تعالى، وهذا المنهج هو حركة دائمة متصلة، وهو عمل وبناء، وليس انكماشاً في مكنونات الضمير، وليس مجرد نوايا طيبة لا تتجدد في الواقع، ولذا فالبيعة واجبة ينبغي الوفاء بها، وإلا تصبح لغواً.

من الأدلة على وجوب الوفاء بالبيعة:

أولاً: القرآن الكريم

البيعة هي معاهدة ومعاهدة وميثاق بين طرفين، وهي تندرج تحت قوله تعالى: ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

ووجه الاستدلال على الوجوب: أن الوفاء بالعقد والعهد واجب، وبما أن

البيعة عقدٌ وعهدٌ فإنَّها تدرج تحت مفاد الآيتين الكريمتين.  
وإضافة إلى ذلك فإنَّ البيعة في أهمِّ مجالاتها وهو مجال تثبيت الولاية لمن تتوافر فيه شروطها أو إنشاء الولاية له، فيصبح من أولي الأمر الذين أوجب الله تعالى طاعتهم بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

#### ثانياً: الروايات

قال الإمام علي عليه السلام: «... لأنَّها بيعةٌ واحدة، لا يثنى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار، الخارج منها طاعن، والمروى فيها مDAHن»<sup>(٤١)</sup>.

فلولا وجوب البيعة لأمكن فيها الخيار كما جاء في قول الإمام علي عليه السلام.  
وقال عليه السلام: «أيُّها الناس، إنَّ لي عليكم حقّاً، ولكم عليّ حقٌّ، فأما حقُّكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقِّي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم»<sup>(٤٢)</sup>.

فقد جعل الإمام عليه السلام الوفاء بالبيعة حقّاً له على المبايعين، وهذا دليل واضح على وجوبها وإلا لما جعلها حقّاً.

وجعل الإمام موسى الكاظم عليه السلام نكث البيعة من الموبقات، فقال: «ثلاث موبقات: نكث الصّفة، وترك السنّة، وفراق الجماعة»<sup>(٤٣)</sup>.

#### ثالثاً: السيرة التاريخية

أخذ رسول الله ﷺ البيعة من المسلمين في موارد مختلفة، فقد أخذ البيعة من الأنصار قبل نزول آيات الولاية والطاعة، فكانت البيعة لازمةً يجب الوفاء بها؛ لأنَّها عقدٌ يجب الوفاء به من الناحية الشرعيّة، وطالبهم بها بعد نزول آيات الولاية والطاعة فأفادت البيعة التأكيد؛ لأنَّها انضمت إلى ملزم آخر وهو وجوب طاعة الرسول ﷺ، فلولا وجوبها أو لزوم الوفاء بها، لما أكّد عليها.

ولولا وجوب الوفاء بالبيعة لما أصرَّ أبو بكر وعمر وعثمان على أخذ البيعة من الإمام علي عليه السلام بعد أن كان رافضاً لها في أوَّل الأمر، حينما احتجَّ بقوله: «أنا أحقُّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي»<sup>(٤٤)</sup>.

وفي خلافته طالب أهل الشَّام وغيرهم بالبيعة له؛ لأنَّ الوفاء بها واجب، وقد رفض معاوية وآخرون بيعته الإمام عليه السلام؛ لأنَّهم لا يريدون أن يكونوا ملزمين بها - وإن كانت طاعته واجبة عليهم - وقد وضح الإمام عليه السلام هذه الحقيقة في قوله لجرير بن عبد الله البجلي: «أما بعد، فإنَّ معاوية إنَّما أراد بما طلب ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحبَّ»<sup>(٤٥)</sup>.

ولولا وجوب الوفاء بالبيعة لما حرص معاوية ويزيد وجميع الحُكَّام المتعاقبين على أخذ البيعة من الأُمَّة، وخصوصاً من الشَّخصيات البارزة وفي مقدِّمتهم أئمَّة أهل البيت عليه السلام، وقد توسَّلوا بشتَّى الوسائل من أجل أخذها بالتَّرهيب والتَّضليل.

### شروط نقض البيعة

إذا انعقدت البيعة ضمن الشُّروط المتقدِّمة تصبح واجبة، بمعنى وجوب الوفاء بمقتضاها، والعمل على إدامتها من قبل الطَّرفين، ولا تنقض إلا إذا أُخلَّ أحد الأطراف بما بايع وبويع عليه، أو اختلَّت بعض الشُّروط، ومن هنا أكَّدت الرِّوايات الشَّريفة على حرمة نقض البيعة المستوفية للشُّروط، فقد عدَّها الإمام الكاظم عليه السلام من الموبقات - كما تقدَّم - وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنَّه قال: «من فارق جماعة المسلمين، ونكث صفقة الإمام جاء إلى الله عزَّ وجلَّ أجذم»<sup>(٤٦)</sup>.

فإذا وفي المبايع له بمقرَّرات البيعة وبما عاهد المبايعين له من العمل بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وكلَّ عمل فيه صلاح للأُمَّة، كانت البيعة لازمةً وكان

الوفاء بها واجباً ابتداءً وإدامة، ولكن إذا لم يفِ بعده، وأخلَّ ببعض مقرّرات البيعة عن تقصيرٍ أو قصور، فإنَّ للمبايعين حقَّ نقض البيعة وفسخ ما تعاقدوا عليه.

ورد في احتجاج الإمام علي عليه السلام على ناكثي بيعته أنّه قال: «إنّما كان لكما ألاّ ترضيا قبل الرضى وقبل البيعة، وأمّا الآن فليس لكما غير ما رضيتما به، إلّا أن تخرجا ممّا بويعت عليه بحدث، فإن كنت أحدثت حدثاً فسمّوه لي»<sup>(٤٧)</sup>.  
فللمبايعين حقُّ نقض البيعة إن خالف المبايع له بنودها.

وحول نكث البيعة من قبل أصحاب الجمل قال عمّار بن ياسر: «نكثنا بيعتهما - أي طلحة والزبير - من غير حدث»<sup>(٤٨)</sup>.

فالحدث الذي يحدثه المبايع له وهو الخليفة أو الأمير، والذي يخالف فيه شروط البيعة يكون شرطاً أو مقدّمة لجواز النّقض، فمخالفة الشريعة موجبة لنقض البيعة أو عدم الالتزام بنودها، بل موجبة إلى عزل المبايع له عن منصبه الذي تولّاه بالبيعة.

عن عبد الله بن مسعود قال: إنّ النّبي صلّى الله عليه وآله قال: «سيلي أموركم بعدي رجال يطفئون السّنة، ويعملون بالبدعة، ويؤخّرون الصّلاة عن مواقيتها»، فقلت: يا رسول الله! إن أدركتهم كيف أفعل؟ قال: «تسألني يا ابن أم عبد كيف تفعل؟ لا طاعة لمن عصى الله»<sup>(٤٩)</sup>.

وقال الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «لا دين لمن دان بطاعة من عصى الله، ولا دين لمن دان بفرية باطل على الله، ولا دين لمن دان بجحود شيء من آيات الله»<sup>(٥٠)</sup>.  
فالمعصية الصّادرة من الحاكم موجبة لنقض البيعة، بل موجبة لعزله عن منصبه.

قال الإمام الخميني رحمه الله: «وإذا خالف الفقيه أحكام الشرع - والعياذ بالله - فإنّه ينزل تلقائياً عن الولاية؛ لانعدام عنصر الأمانة فيه»<sup>(٥١)</sup>.

وحول فسق الخليفة قال الماوردي: «... فهذا فسقٌ يمنع من انعقاد الإمامة ومن استدامتها»<sup>(٥٢)</sup>.

### خصائص المبایع له بالولاية والخلافة

وضع الإسلام شروطاً ومواصفات وخصائص للمبایع له بالولاية والخلافة؛ لتكون ميزاناً ومعياراً يتّم من خلالها اختيار المؤهل للتصدّي لأُمور المسلمين، ولم يترك لهم الخيرة في الاختيار القائم على أساس المصالح والأمزجة والإدراك المحدود، وإنّما تكون لهم الخيرة في تشخيص المؤهل من بين مجموعة من المؤهلين ضمن تلك المواصفات والخصائص، وقد جمعها الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله: «للإمام علامات: يكون أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقى الناس، وأحلم الناس، وأشجع الناس، وأسخى الناس، وأعبد الناس»<sup>(٥٣)</sup>.

وهذه الصفات والخصائص هي المصادق الأمثل والتي لا تتوافر في أغلب الأوقات إلّا في الإمام المعصوم، وإن كانت ممكنة في غيره من الناحية النظرية. وحدّد الإمام علي عليه السلام جملة من الخصائص نظر فيها إلى مطلق الولاية والخلفاء مع قطع النظر عن المعصومين وغيرهم، وجعل اختياره مقدّماً على سائر الأعمال، وأمر المسلمين بأن لا يبدأوا بشيء بعد موت الخليفة قبل «أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً عارفاً بالقضاء والسنة»<sup>(٥٤)</sup>.

وحدد الإمام الحميني عليه السلام العلم والعدالة ملاكاً في اختيار الخليفة أو الحاكم فقال: «إنّ تعيين شخص الحاكم الآن مرهونٌ بمن جمع في نفسه العلم والعدل»<sup>(٥٥)</sup>.

ويرى الجرجاني أنّ مستحقّ الخلافة هو «مجتهدٌ في الأصول والفروع؛ ليقوم بأُمور الدين، متمكناً من إقامة الحجج وحلّ الشُّبه في العقائد الدينيّة، مستقلاً

بالتقوى في النوازل والأحكام والوقائع نصّاً واستنباطاً؛ لأنّ أهمّ مقاصد الإمامة حفظ العقائد، وفصل الحكومات، ورفع المخاصبات، ولن يتمّ ذلك بدون هذا الشرط... يجب أن يكون عدلاً في الظاهر لئلاّ يجور»<sup>(٥٦)</sup>.

ومن الخصائص التي تلحق بالفقاهة والعدالة أن يكون الشخص المراد انتخابه من أهل الدراية بالأحداث والمواقف، والكفاءة في الإدارة والقيادة، والتوازن السلوكي والأخلاقي، كما ورد في الروايات الشريفة:

قال رسول الله ﷺ: «لا تصلح الإمامة إلّا لرجلٍ فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم»<sup>(٥٧)</sup>.

وقال الإمام علي عليه السلام: «من علامات المأمون على دين الله بعد الإقرار والعمل: الحزم في أمره، والصّدق في قوله، والعدل في حكمه، والشفقة على رعيّته، لا تخرجه القدرة إلى خرق، ولا اللين إلى ضعف، ولا تمنعه العزة من كرم عفو، ولا يدعوه العفو إلى إضاعة حقّ، ولا يدخله الإعطاء في سرف، ولا يتخطّى به القصد إلى بخل، ولا تأخذه نعم الله بيطر»<sup>(٥٨)</sup>.

فينبغي مراعاة هذه الموصفات والخصائص في بيعة الولي أو الخليفة، لكي يكون قادراً على النهوض بالمسؤوليّة المشتركة بينه وبين المبايعين.

### دور البيعة في تعيين الخليفة أو الحاكم

البيعة أحد الطّرق في تعيين الخليفة أو الحاكم ضمن الموصفات التي حدّدها الإسلام، وهي طريقة مستحسنة ولا غبار عليها، إن لم يوجد نصّ على شخصٍ معيّن كما هو الحال في عصر الغيبة، أمّا في عصر المعصوم عليه السلام، فإنّها لا تقوى كنظريّة أو طريقة أمام النصّ، فمجالها الوحيد هو عصر الغيبة، أو في عصر المعصوم الذي تواجهه ظروفٌ سياسيّة لا يستطيع على ضوئها التّصدّي

للخلافة، بأن يكون محاصراً أو ملاحقاً أو ما شابه ذلك، مع إقراره للبيعة إن توفرت شروطها المتقدمة، وهذا الأمر لم يحصل، فقد تصدّى للخلافة والحاكمة من ليس أهلاً لها، ومَن لم يمارسوا الطريقة السليمة في التصدي.

والبيعة المنسجمة مع روح الإسلام وروح الشريعة هي أن تنطلق الأمة باختيارها وكمال حرّيتها لتبايع أحد المؤهلين للخلافة والحاكمة، حيث تتصفح المؤهلين من حيث خصائصهم وصفاتهم، وتختار أحدهم ما دام متصفاً بالصفات المطلوبة كالفقاها والعدالة والكفاءة وسائر الصفات. وفي هذه الحالة ينبغي أن يكون المرشحين والمؤهلين لهم الولاية بالقوة، ويأتي دور البيعة بتحويل القوة إلى فعل، فمن تبايعه الأمة أو ممثّلوها يكون هو الولي أو الخليفة الفعلي، ويبقى غيره في طور القوة.

وبعبارة أخرى: إنَّ حقَّ الولاية والخلافة ثابتٌ للفقير العادل الكفو، ويكون دور الأمة تنجيز ولايته وخلافته في الواقع ببسط اليد له وتمكينه من تسلّم مقاليد الأمور، ويتم ذلك عن طريق البيعة، وهي توكيدٌ لولايته وخلافته الثابتة من قبل الله سبحانه وتعالى ومن قبل المعصومين عليهم السلام، والتوكيد يتم عن طريق تنجيزها في الواقع.

وقد أشار الشهيد السيّد محمد باقر الصدر رحمته الله إلى دور الأمة في تعيين المرجع ولياً بالولاية الفعلية العملية بعد ثبوت تعيينه من الله، فقال: «أمّا المرجع فهو معيّن تعييناً نوعياً، أي: أنّ الإسلام حدّد الشروط العامة للمرجع وترك أمر التعيين والتأكّد من انطباق الشروط إلى الأمة نفسها، ومن هنا كانت المرجعية كخطّ قراراً إلهياً، والمرجعية كتجسيد في فرد معيّن قراراً من الأمة»<sup>(٥٩)</sup>.

وقال أيضاً: «والمرجع الشهيد معيّن من قبل الله تعالى بالصفات والخصائص، أي بالشروط العامة في كلّ الشهداء... ومعين من قبل الأمة بالشخص؛ إذ تقع على الأمة مسؤولية الاختيار الواعي له»<sup>(٦٠)</sup>.

وقال السيّد محمد حسين الطّباطبائي رحمته الله: «إنّ عليهم تعيين الحاكم في المجتمع على سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وهي سنّة الإمامة»<sup>(٦١)</sup>.  
فقد أوكل إلى الأُمّة اختيار الحاكم على طبق المواصفات التي حدّدها الشّارع المقدّس.

والبيعة هي أحد مصاديق الاختيار والتّعيين من قبل الأُمّة، وليست الطّريق الوحيد، فقد تثبت الولاية والخلافة والحاكميّة باختيار أهل الحلّ والعقد أو مجلس اختيار الولي والحاكم، فتأتي البيعة لتثبيت الولاية أو بسط اليد، وقد تثبت الولاية بالتّصدي من قبل المؤهل لها، ثمّ يأتي دور البيعة لإقرار وتثبيت وتوكيد الولاية، وخير تجربة في ذلك تجربة الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، فقد تصدّى الإمام الخميني رحمته الله لولاية الأُمّة ثمّ جاءت البيعة له بعد تصديّه، وبعد ارتحاله إلى الرّفيق الأعلى اختار مجلس الخبراء الإمام الخامنئي قائداً وولياً، ثمّ جاءت البيعة من قبل الأُمّة لتؤكّد ولايته عن قناعة ورضا.

وذهب فقهاء السنّة - باستثناء بعض الشّواذ - إلى ما ذهب إليه فقهاء الشيعة حول دور الأُمّة في تعيين الولي والخليفة بالبيعة أو دور أهل الحلّ والعقد، وهم يمثّلون الأُمّة في توجّهاتهم.

فالماوردي يرى أنّ التّعيين بيد أهل الحلّ والعقد طبقاً للمواصفات الشرعيّة وإسراع الأُمّة إلى الطّاعة، وفي ذلك يقول: «إذا اجتمع أهل العقد والحلّ تصفّحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدّموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً، ومن يسرّع النّاس إلى طاعته»<sup>(٦٢)</sup>.

ويرى المودودي أنّه: «لا ينتخب للإمارة إلّا من كان المسلمون يثقون به وبسيرته وبطباعه وخُلُقِه، فإذا انتخبوه فهو وليّ الأمر المطاع في حكمه»<sup>(٦٣)</sup>.

ويرى الدّكتور محمّد الرّيس: «إنّ الأُمّة هي مصدر السّلطان، وكُلّ ما يصدره الخليفة من سلطات أو ولايات يرجع إلى إرادة الأُمّة؛ إذ أنّ الخلافة



تعتبر حقّ الأُمّة جمعاء»<sup>(٦٤)</sup>.

ويرى الشَّيخ عبد العزيز البدرى أنّ أمر التَّرجيح موكولٌ إلى الأُمّة: «فلأُمّة أن تختار من اتَّصف بصفات الأفضليّة اتِّباعاً للأفضل... وبيعتهم ينعقد الحكم للحاكم أو الخلافة للخليفة»<sup>(٦٥)</sup>.

وإقرار أهل الحلّ والعقد هو الفيصل لدى الشَّيخ محمَّد رشيد رضا فيقول: «إنّ للإمام أن يستخلف غيره بشرط أن يكون الإمام جامعاً لشروط الإمامة، ولكن الاستخلاف يكون متوقِّفاً على إقرار أهل الحلّ والعقد له»<sup>(٦٦)</sup>.

ولا إشكال في هذه الطَّريقة وهي الاستخلاف ما دامت متوقِّفةً على: اتِّصاف الحاكم بالمواصفات المطلوبة، وعلى إقرار أهل الحلّ والعقد؛ لأنّ ولايته وحاكميَّته ثابتة ما دام فقيهاً عادلاً كفوئاً، فيأتي دور الاستخلاف أو إقرار أهل الحلّ والعقد لتنفيذ ولايته وحاكميَّته في الواقع.

### اختيار أوبيعة أهل الحلّ والعقد

يتنَجَّز دور الأُمّة بشرط أن تتمتَّع بالوعي والإدراك والقدرة على التَّشخيص بعد الاطِّلاع على خصائص وأحوال وصفات المرشَّحين أو المؤهَّلين للولاية أو الحاكميَّة، وإذا لم تتمتَّع الأُمّة بذلك، فيرجع الأمر إلى أهل الحلّ والعقد وهم مرجع الأُمّة الدِّيني أو السِّياسي، فمن اختاره أهل الحلّ والعقد ينصَّب وليّاً وحاكماً وخليفة ما دام متَّصفاً بصفات الولاية والحاكميَّة.

ومن الشُّروط الواجبة في أهل الحلّ والعقد هي: العلم والعدالة والكفاءة، وهذا ظاهر من آراء الفقهاء<sup>(٦٧)</sup>.

ولا يشترط لأهل الحلّ والعقد عددٌ معيَّن، فالنَّووي يرى تحقُّقهم بأربعين أو أقلّ أو أربعة أو ثلاثة أو اثنين أو واحد<sup>(٦٨)</sup>.

وذهب الباقلاني إلى انعقاد الولاية برجلٍ واحدٍ من أهل الحلّ والعقد، فقال:

«تعتقد وتتمّ برجلٍ واحدٍ من أهل الحلّ والعقد إذا عقدها لرجلٍ على صفة ما يجب أن يكون عليه الأئمة»<sup>(٦٩)</sup>.

ولا عبرة لعدم أهل الاختيار عند أكثر الفرق كما ورد عن التفتازاني: «الإمامة تثبت عند أكثر الفرق باختيار أهل الحلّ والعقد وإن قلوا»<sup>(٧٠)</sup>.

وأنا اعتقد بصحة هذا الرأي ما دام المنتخب أو المعين يتّصف بصفات الولاية مع تأييد الأمة له، فلا إشكال من أن ينتخب من قبل واحدٍ من أهل الحلّ والعقد؛ لأنّ ولايته تثبت ما دام فقيهاً عادلاً كفوءاً ثمّ تتحوّل إلى طور القوة بالانتخاب أو التعيين.

وأما مذهب الوليّ المنتخب فغير محدّد، ولم نجد في كتب الفقه والكلام من يشترط ذلك، فالآراء ناظرة إلى الفقاهاة والعدالة والكفاءة دون أيّ صفة إضافية، ومن الطّبيعي أن يميل أبناء كلّ المذاهب إلى اختيار من ينتمي إلى مذهبهم، ولعلّه اشتراطٌ ضمنيّ أو غير مصرّح به.

وذهب أبو بكر الباقلانيّ إلى التّصريح بعدم اعتبار الانتماء المذهبي، فكلّ فقيه له الحقّ في التّصدّي فيقول: «... فكلّهم ولاة هذا الأمر، فأئهم سبق بالعقد لرجلٍ تمّت بيعته ولزمت طاعته، وصار المخالف عليه باغياً»<sup>(٧١)</sup>.

وهذا الرأي هو الرأي الأصوب المنسجم مع مصلحة الإسلام العليا التي تتجسّد بوحدة المسلمين قيادة وحكومة وأمة وخصوصاً في مرحلتنا الرّاهنة التي يواجه فيها المسلمون عدوّاً واحداً جنّداً جميع إمكاناته البشريّة والاقتصاديّة والإعلاميّة والسّياسيّة للقضاء على الصّحوة الإسلاميّة والكيان الإسلامي.

ولعلّ قول الإمام جعفر الصّادق عليه السلام للمنصور العبّاسي دالاً على هذا المدعى؛ حيث يقول: «نحن لك أنصارٌ وأعوانٌ ولملكك دعائم وأركان، ما أمرت بالمعروف والإحسان، وأمضيت في الرّعيّة أحكام القرآن، وأرغمت بطاعتك أنف الشّيطان»<sup>(٧٢)</sup>.

وهذا المدعى إلزامٌ للجميع بالتَّباع المتصدّي الفعلي لولاية المسلمين وهو الإمام الخامنّي عليه السلام؛ حيث لم يسبقه أحدٌ إلى التّصدّي، وقد انتخب من قبل الفقهاء العدول. ويؤيّد هذه الدّعوة عدم اشتراط الفقهاء اتّفاق أهل الحلّ والعقد من سائر الأقطار البعيدة<sup>(٧٣)</sup>.

### وجوب الطّاعة على غير المبايعين

من الثّوابت المتّفق عليها عند أغلب المسلمين أنّه لا إكراه في البيعة؛ فإنّ المسلمين أحرارٌ فيها، ومن يبايع ينبغي أو يجب عليه الالتزام ببند البيعة سواء كانت بيعةً على الولاية والخلافة، أم على الجهاد، أم على بقيّة القضايا المشروعة، أمّا غير المبايعين فهل يجب عليهم الطّاعة سواء كانوا متواجدين داخل البلد الّذي انعقدت فيه أم متواجدين في البلدان البعيدة؟ وفي مقام البيعة على الولاية والقيادة، هل تكون ولاية وقيادة المبايع له شاملةً لغير المبايعين، وهل يجب عليه الطّاعة؟

والجواب عن ذلك: أنّ الولاية المتأّتية عن البيعة ثابتةٌ بحقّ غير المبايعين ولازمةٌ وكذلك الطّاعة، فيكون المبايع له وليّاً وقائداً على الجميع، والأدلة على ذلك عديدة وأهمّها:

#### أولاً: الروايات

احتجّ الإمام علي عليه السلام على معاوية بصحّة ولايته ما دام مختاراً من قبل أهل الحلّ والعقد، أو من قبل أهل المدينة وهي عاصمة الحكومة آنذاك، والإمام وإن كان في مقام إلزام معاوية بما ألزم به نفسه من مبايعته لأبي بكر وعمر وعثمان، إلّا أنّه أراد وضع قاعدةٍ كلّيةٍ للاستفادة من كبرى المسألة، سواء كان المبايع له منصوباً عليه من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله أم لم يكن منصوباً عليه؛ تبعاً للارتكاز

الذهني عند المسلمين، ومِمَّا جاء في احتجاجه: «أنَّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشَّاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردَّ، وإنَّما الشُّورى للمهاجرين والأنصار، فإنَّ اجتمعوا على رجلٍ وسَّموه إماماً<sup>(٧٤)</sup> كان ذلك لله رضى، فإنَّ أبى قاتلوه على اتِّباعه غير سبيل المسلمين وولَّاه الله ما تولى»<sup>(٧٥)</sup>.

فلا عبرة بتخلُّف البعض عن البيعة إنَّ كان المبايع له متَّصفاً بصفات أو شروط الولاية، وتمَّت البيعة حسب الشُّروط الصَّحيحة، فيجب اتِّباعه وإطاعته على الجميع حتى وإنَّ لم يبايعوه، وهم أحرارٌ في البيعة له، وتكون البيعة له ملزمةً إنَّ طالبهم بها، وقد حارب الإمام عليه السلام معاوية؛ لأنَّه تمرَّد على الخليفة المنتخب وشقَّ صفوف المسلمين، ولم يحاربه لمجرَّد رفض مبايعته، فقد رفض بيعته بعض الصَّحابة إلَّا أنَّه تركهم أحراراً، ويظهر ذلك من الحوار الذي دار بين الإمام علي عليه السلام وطلحة حيث قال له: «ألم تعلم أنَّي ما أكرهتُ أحداً على البيعة، ولو كنت مكرهاً أحداً أكرهت سعداً وابن عمر ومحمَّد بن مسلمة، أبوا البيعة واعتزلوكم، فتركهم»<sup>(٧٦)</sup>.

ثانياً: مصداق الولاية

إنَّ المبايع له بعد توافر شروط الولاية فيه يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا طِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فهو وليُّ الأمر، وطاعته واجبةٌ على الجميع، فعلى المبايعين تتأكَّد الطَّاعة، وعلى غيرهم تكون واجبة.

ثالثاً: ضرورة الإمامة

الإمامة بمعناها الأعمَّ هي من مختصَّات أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، ويمكن توسعة المفهوم في عصر الغيبة ليشمل نائب الإمام وهو الفقيه العادل الكفوء، وقد وردت الروايات المتواترة التي تؤكِّد على الإمامة والطَّاعة.

قال رسول الله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»<sup>(٧٧)</sup>.  
 وقال ﷺ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»<sup>(٧٨)</sup>.  
 وقال أيضاً: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»<sup>(٧٩)</sup>.  
 وقال ﷺ: «ثلاث لا يغُلُّ عليهنَّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله،  
 والنصيحة لأئمة المسلمين، واللُّزوم لجماعتهم»<sup>(٨٠)</sup>.  
 وهنالك مئات الروايات الدالة على الانقياد للإمام والطاعة له وردت في  
 كتب جميع المذاهب.

رابعاً: آراء العلماء  
 يرى الماوردي أنَّ انعقاد الإمامة بالبيعة يترتب عليه إلزام «كافة الأمة  
 الدخول في بيعته والانقياد له»<sup>(٨١)</sup>.

ويرى التفتازاني أنَّ انعقاد الإمام بالبيعة من قبل الذين يتيسر حضورهم  
 ملزم لمن في سائر البلدان، فيقول: «ولا اتفاق من في سائر البلدان، بل لو تعلق  
 الحلُّ والعقد بواحدٍ مطاع كفت بيعته»<sup>(٨٢)</sup>.

وإذا تصدَّى من تتوفر فيه الشروط ببيعة أو بغير بيعة فيجب طاعته.  
 قال ابن حزم الظاهري: «إن مات الإمام ولم يعهد إلى أحد، أن يبادر رجلٌ  
 مستحقٌ للإمامة، فيدعو إلى نفسه ولا منازع له، ففرض أتباعه والانقياد لبيعته،  
 والتزام إمامته وطاعته»<sup>(٨٣)</sup>.

ومن الفقهاء المعاصرين نختار رأي الإمام الخميني رحمه الله الذي قاد أعظم ثورة  
 في واقعنا المعاصر دون أن يلجأ إلى السلاح أو يفتي بالجهاد لإسقاط الطاغوت.  
 قال رحمه الله: «وإذا نهض بأمر تشكيل الحكومة فقيه عالم عادل، فإنه يلي من أمور  
 المسلمين ما كان يليه النبي ﷺ منهم، ووجب على الناس أن يسمعوا له  
 ويطيعوا»<sup>(٨٤)</sup>.

خامساً: السيرة التاريخية

إِنَّ السَّيْرَةَ التَّارِيخِيَّةَ للمسلمين خير دليل على صَحَّةِ المدَّعى ما دامت منسجمةً مع ثوابت الشريعة، فكانت قائمةً على طاعة المايِّع له حتى عند غير المايِّعين، فقد وقف المسلمون مع الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في قتال معاوية وأتباعه؛ لأنَّهم تَمَرَّدُوا على حكومته وإن لم يكونوا قد بايعوه، واعتبر كلُّ من لم يطعه شاقًّا لعصا المسلمين ووحدتهم، وكانت السَّيْرَةُ قائمةً على ذلك وإن كان بعض المتصدِّين لا تنطبق عليهم شروط الولاية والخلافة.

#### سادساً: حكم العقل

وحدة الولاية والخلافة حقيقةٌ يحكم بها العقل، فمن يتصدَّى لها بالبيعة تكون ولايته وخلافته عامَّةً وشاملةً للجميع؛ لأنَّ تعدُّد البيعة يؤدِّي إلى الاضطراب وعدم الاستقرار، ولا يبقى ميزانٌ ومعيَّارٌ في اختيار واحدٍ من المتنافسين؛ حيث يبايع كلُّ وجود وكيان ومجتمع شخصاً معيَّناً، فتتمزَّق الحكومة والأُمَّة في آنٍ واحد، والتَّمزُّق مخالفٌ للثَّواب الإسلامية ويتعارض مع المصلحة الإسلامية العليا.

وبعد استعراضنا لأُسُس ومبادئ ومقوِّمات البيعة نجد أنَّ البيعة آيَّةٌ موصلةٌ لتحمُّل المسؤولية المشتركة في إقرار مفاهيم وقيم الإسلام في واقع الحياة الاجتماعية والسياسية، بالتآزر والتكافل والتناصح القائم على أساس المودة والمحبة والأخوة والنخوة والنجدة؛ حيث يساهم الجميع في إقامة القيم والموازن، وفي تعديل النهج والسلوك باتِّساع أفق النظر والتعامل مع الوجود الكبير للإسلام، واستصغار الصَّعاب من أجل الوصول إلى سموِّ المقاصد ونيل الأهداف.

ويأقرُّ البيعة تعامل الإسلام مع الإنسان في حدود فطرته وحدود طاقته وحدود حاجاته المتنوعة؛ لكي يتوجَّه نحو تحقيق الأهداف والغايات المتنوعة، فيلبي دون انزعاج، ويستسلم دون جزع، ويطيع دون اضطراب، وإنَّما عن قبول

ورضى وطمأنينة؛ لأنه يتبع المنهج السليم قبل أتباعه للأشخاص، بل يتبع الأشخاص قادة كانوا أو مسؤولين بمقدار قربهم أو بعدهم عن المنهج، وتجسيدهم لقيمه في أفكارهم وعواطفهم وممارساتهم، ليكون المنهج حركة وعملاً وبناءً يساهم الجميع في إرساء أركانه في جميع جوانب الحياة.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) ترتيب كتاب العين: ١٠٢، الخليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٤هـ.
- (٢) لسان العرب ٨: ٢٦، محمد بن مكرم بن منظور، نشر أدب الخوزة، قم، ١٤٠٥هـ.
- (٣) روح البيان ٩: ١٩، إسماعيل حقي البروسوي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٥م.
- (٤) مقررات القرآن: ٦٦، الراغب الأصفهاني، المكتبة الرضوية، طهران.
- (٥) لسان العرب ٨: ٢٦.
- (٦) معالم المدرستين ١: ١٥٣، مرتضى العسكري، مؤسسة البعثة، قم، ١٤٠٦هـ، ط ١.
- (٧) الإسلام بين العلماء والحكام: ٤٩، عبد العزيز البدر، المدينة المنورة، ١٩٦٦م.
- (٨) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٤٥، محمد الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٢هـ.
- (٩) السيرة النبوية ٢: ٧٥، عبد الملك بن هشام، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ١٣٥٥هـ.
- (١٠) السيرة النبوية ٢: ١٩٥، إسماعيل بن كثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٣هـ.
- (١١) السيرة النبوية ٢: ٧٢، عبد الملك بن هشام.
- (١٢) حياة الصحابة: ٨١، محمد الكاند هلوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- (١٣) السيرة النبوية ٢: ١٨٨، عبد الملك بن هشام.
- (١٤) إعلام الوري بأعلام الهدى: ١٠٥، الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- (١٥) السيرة النبوية ٣: ٣٣٠، عبد الملك بن هشام.
- (١٦) الإمامة والسياسة ١: ٩، ابن قتيبة الدينوري، مطبعة البابي، مصر، ١٣٨٨هـ.

- (١٧) شرح نهج البلاغة ١: ٢١٩، عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني، دار إحياء الكتب العربية. القاهرة، ١٣٧٨هـ.
- (١٨) المصدر نفسه ٦: ٢١.
- (١٩) تاريخ الطُّبري ٣: ٢٠٥.
- (٢٠) تاريخ الطُّبري ٣: ٢٠٥.
- (٢١) الكامل في التَّاريخ ٢: ٤٢٥.
- (٢٢) تاريخ الطُّبري ٤: ٢٢٩، الكامل في التَّاريخ ٣: ٦٧، ونحوه في: الطُّبقات الكبرى ٣: ٦١.
- (٢٣) تاريخ الطُّبري ٤: ٢٣٨، الكامل في التَّاريخ ٣: ٧١.
- (٢٤) الكامل في التَّاريخ ٣: ٧١.
- (٢٥) شرح نهج البلاغة ٧: ٣٣.
- (٢٦) نهج البلاغة: ٤٩، الخطبة الشَّقْشَقِيَّة.
- (٢٧) الإمامة والسِّياسة ١: ٤٧.
- (٢٨) تاريخ الطُّبري ٥: ١٥٨، الكامل في التَّاريخ ٣: ٤٠٢.
- (٢٩) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٤٥، مُحَمَّد بن مكرم بن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- (٣٠) البداية والنهاية ٨: ٧٩، ١١٥، أبو الفداء الحافظ بن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- (٣١) عقد الدرر: ١٣٤، يوسف بن يحيى المقدسي، انتشارات نصايح، قم، ١٤١٦هـ.
- (٣٢) وسائل الشَّيعة ١١: ٣٦، مُحَمَّد بن الحسن الحرَّ العاملي، مؤسَّسة آل البيت لإحياء التَّراث، قم، ١٤١٢هـ.
- (٣٣) الإمامة والسِّياسة ١: ١١.
- (٣٤) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥، مُحَمَّد باقر المجلسي، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.
- (٣٥) الجامع لأحكام القرآن ١: ١٦٨، مُحَمَّد بن أحمد القرطبي، دار الفكر، بيروت، ١٣٧٢هـ.
- (٣٦) نظريَّة الإسلام وهدية: ٥٧، أبو الأعلى المودودي، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ١٣٨٩هـ.
- (٣٧) ولاية الأمر في عصر- الغيبة: ٢١٤، السَّيِّد كاظم الحائري، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ١٤١٤هـ.
- (٣٨) الإمامة والسِّياسة ١: ٧٥.
- (٣٩) الإسلام وأوضاعنا السِّياسيَّة: ١٥٤، عبد القادر عودة، مؤسَّسة الرِّسالة، بدون تاريخ.
- (٤٠) الحُلَّ الإسلامي: ١٥٤، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٧هـ.



- (٤١) نهج البلاغة: ٣٦٧.
- (٤٢) نهج البلاغة: ٧٩.
- (٤٣) بحار الأنوار ٢: ٢٦٦.
- (٤٤) الإمامة والسياسة ١: ١١.
- (٤٥) الإمامة والسياسة ١: ٩٥.
- (٤٦) الكافي ١: ٤٠٥.
- (٤٧) الإمامة والسياسة ١: ٧٥.
- (٤٨) الإمامة والسياسة ١: ٦٧.
- (٤٩) سنن ابن ماجه: ٦٦٣، محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٤ هـ.
- (٥٠) الكافي ٢: ٣٧٣.
- (٥١) الحكومة الإسلامية: ٧٠، الإمام الخميني، المكتبة الإسلامية الكبرى، قم، ١٣٨٩ هـ.
- (٥٢) الأحكام السلطانية: ١٧، علي بن محمد الماوردي، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٦ هـ.
- (٥٣) عيون أخبار الرضا ١: ١٢٣، الشيخ الصدوق، انتشارات جهان، طهران، ١٣٨٩ هـ.
- (٥٤) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٧٥٢، مطبعة الهادي، قم، ١٤١٥ هـ.
- (٥٥) الحكومة الإسلامية: ٤٩.
- (٥٦) شرح المواقف ٨: ٣٤٩، ٣٥٠، علي بن محمد الجرجاني، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٥ هـ.
- (٥٧) الكافي ١: ٤٠٧.
- (٥٨) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٢٥.
- (٥٩) الإسلام يقود الحياة: ١٢٨، محمد باقر الصدر، دار الكتاب الإسلامي، قم، ١٤٢٦ هـ.
- (٦٠) الإسلام يقود الحياة: ١٤٩.
- (٦١) الميزان في تفسير القرآن ١٣: ٤، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٣ هـ.
- (٦٢) الأحكام السلطانية: ٧.
- (٦٣) نظرية الإسلام وهدية: ٥٧، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، ١٣٨٩ هـ.
- (٦٤) النظريات السياسية الإسلامية: ١٧٨، الدكتور محمد الرئيس، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩ م.
- (٦٥) الإسلام بين العلماء والحكام: ٤٩.

- (٦٦) الإسلام وأوضاعنا السّياسيّة: ١٤٦، عبد القادر عودة، مؤسّسة الرّسالة.
- (٦٧) الأحكام السّلطانيّة للماوردي: ٧، الأحكام السّلطانيّة للفرّاء: ٢٠.
- (٦٨) روضة الطّالّين ٧: ٢٦٣، مجيى بن شرف النّووي، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- (٦٩) تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل: ٤٦٧، أبو بكر الباقلاني، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، ١٤١٤هـ.
- (٧٠) شرح المقاصد ٥: ٢٥٢، سعد الدّين التّفّازاني، منشورات الشّريف الرّضي، قم، ١٤٠٩هـ.
- (٧١) تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل: ٤٧٠.
- (٧٢) بحار الأنوار ١٠: ٢١٨.
- (٧٣) مغني المحتاج ٤: ١٣٠، محمّد الخطيب الشّربيني، دار الفكر، بيروت.
- (٧٤) المقصود من الإمام هنا الخليفة.
- (٧٥) نهج البلاغة: ٣٦٦.
- (٧٦) الإمامة والسّياسة ١: ٧٥.
- (٧٧) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٦١.
- (٧٨) شرح المقاصد ٥: ٢٣٩.
- (٧٩) مسند أبي يعلى الموصلي ١٣: ٣٦٦، مجمع الزّوائد ٥: ٢٢٥.
- (٨٠) الكافي ١: ٤٠٣.
- (٨١) الأحكام السّلطانيّة: ٧.
- (٨٢) شرح المقاصد ٥: ٢٣٣.
- (٨٣) الفصل في الملل والأهواء والنّحل ٤: ١٧٠، علي بن حزم الطّاهري دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ.
- (٨٤) الحكومة الإسلاميّة: ٤٩.

## وقفه موضوعية

### مع حديث البضعة

□ الشيخ باقر الفخار (\*)

من الأحاديث المهمة التي تُشكّل مفصلاً بين الحقّ والباطل ما صدر عن النّبيّ مُحَمَّدٍ ﷺ في حقّ بضعته الطّاهرة فاطمة البتول عِليها السلام، وهو الحديث الَّذي يُعرف بحديث البضعة، فكان لزاماً على الباحثين أن يتناولوه بالبحث والتّحقيق؛ ليكون مورداً لاستفادة الأُمَّة، ومن هنا تولّد هذا المقال في ضمن المقاطع التّالية على وجه الاختصار.

#### متن الحديث

حدّث البخاري، قال: حدّثنا أبو الوليد، حدّثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن مليكة، عن المسور بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة منّي، فمن أغضبها أغضبني»<sup>(١)</sup>.

وعن مسلم، قال: حدّثني أبو معمر إسماعيل بن إبراهيم الهذلي، حدّثنا سفيان، عن عمرو، عن ابن أبي مليكة، عن المسور بن مخرمة، قال: قال رسول

(\*) كاتب وباحث في الفكر الإسلامي / إيران.

الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني، يؤذيني من آذاها»<sup>(٢)</sup>.

وعن النسائي في الفضائل بإسناده إلى المسور بن مخرمة، أن النبي ﷺ قال: «إن فاطمة بضعة مني، من أغضبها أغضبني»<sup>(٣)</sup>.

وعن الحاكم في حديث صححه بإسناده إلى المسور: «فاطمة بضعة مني، يقبضني ما يقبضها، ويُسْطِنِي ما يُسْطِئُهَا»<sup>(٤)</sup>.

### المداليل والأبعاد

إن المتن المتقدم بألفاظه المختلفة كان مورداً لعناية العلماء، وهناك كلمتان فيه جديرتان بالتناول والتحليل:

الكلمة الأولى: بضعة مني

قال ابن الأثير: «وفي الحديث: (فاطمة بضعة مني)، البضعة بالفتح: القطعة من اللحم، وقد تُكسر، أي: أمها جزء مني، كما أن القطعة من اللحم جزء من اللحم»<sup>(٥)</sup>.

وقال ابن منظور: «وفلان بضعة من فلان: يذهب به إلى الشبه، وفي الحديث: (فاطمة بضعة مني) من ذلك»<sup>(٦)</sup>.

وعليه، فالزهراء البتول عليها السلام قطعة من النبي ﷺ إماماً على نحو الاستعارة المبنية على التشبيه، وإمّا نفسه وشبهه على سبيل المجاز المرسل.

وهذا المعنى بنفسه يتضمّن أنه يغضب لغضبها ويرضى لرضاها، فيكون ذكره من التأكيد؛ لأهمية المعنى.

ثم إن قوله ﷺ: «بضعة مني» يذكرني بقوله ﷺ في حقّ عليّ عليه السلام في مواطن عديدة: «عليّ مني، وأنا من علي»<sup>(٧)</sup>.

فعن النسائي في فضائله بإسناده إلى عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ علياً مني وأنا منه، وهو وليّ كلّ مؤمنٍ من بعدي»<sup>(٨)</sup>.

وبإسناده - أيضاً - عن حبشي بن جنادة السلولي، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليٌّ منِّي، وأنا منه، ولن يؤدِّي عني إلا أنا أو عليٌّ»<sup>(٩)</sup>.

وروى مثله ابن أبي شيبة الكوفي، والضَّحَّاك، والنَّسَائِي، والترمذي، وابن ماجه، والطبراني، والسيوطي، والمتقي الهندي.

وهؤلاء من أعظم علماء العامة، وكتبهم عندهم محسوبة في الطليعة، وعليه فلا يُصغى إلى تضعيف الألباني له، كيف! وقد نقله كل هؤلاء وغيرهم في كتبهم من دون تضعيف، بل صرح الترمذي بأنه حديث حسن غريب صحيح<sup>(١٠)</sup>.

ووصفه بالغرابة لا يمنع من صحته وترتيب الأثر عليه؛ حيث إنَّ الغريب عندهم: «ما ينفرد بروايته شخص واحد في أي موضع وقع التفرُّد به من السند»<sup>(١١)</sup>، كيف! ولو كانت الغرابة مانعة من الصَّحة والعمل؛ لسقط العمل بأكثر ما في سنن ابن داود، وأفراد الدارقطني.

ثمَّ إنَّ الغرابة في خصوص هذا المتن، وأمَّا في المتن الأوَّل الَّذِي نقله أحمد، فليس فيه غرابة ولا تفرُّد.

قال العلامة المناوي: «عليٌّ منِّي وأنا من عليٍّ، أي: هو متَّصل بي وأنا متَّصل به في الاختصاص والمحبة وغيرهما، و(من) هذه تُسمَّى اتِّصاليَّة، من قولهم: فلانُ كأنَّه بعضه متَّحدٌ به؛ لاختلاطهما»<sup>(١٢)</sup>.

ثمَّ إذا تأملت بعين الإنصاف تذكرت أنَّ الزَّوجيَّة الواقعة بين سيِّدنا عليٍّ ﷺ والحوراء النَّسيَّة ﷺ زوجيَّة في كلِّ الأمور، فارجع البصر كرتين إلى قوله ﷺ: «مَنْ آذَى علياً فقد آذاني»، وقوله ﷺ: «عليٌّ منِّي، وأنا من عليٍّ»، وقوله ﷺ: «فاطمة بضعةٌ منِّي، يؤذيني ما آذاها»، و«فاطمة بضعةٌ منِّي، فمن أغضبها أغضبني»، تتذكَّر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[الذاريات: ٤٩].

وهذه المنيّة تدلُّ على أنَّ كلَّ ما هو ثابتٌ للنبيِّ ﷺ ثابتٌ لمن استعملت في حقِّهم المنيّة، إلّا ما خرج بالدليل «إلّا أنّه لا نبيَّ بعدي». ويشهد لصحّة ذلك في حقِّ فاطمة عليها السلام أنّ أبا لبابة حين ربط نفسه، وحلف ألاّ يحلّه إلّا رسول الله ﷺ، وجاءت فاطمة لتحلّه فأبى من أجل قسمه، فقال رسول الله ﷺ: إنّ فاطمة مُضغَةٌ مِنِّي، فحلّته<sup>(١٣)</sup>.

#### الكلمة الثانية: يغضب لغضبها

شرح هذه الكلمة، وبيان مغازيها، والجواهر التي تسيح في طيّاتها، واللّثالي التي تكمن في مكنونها، يتمُّ في ضمن النُّقاط التّالية:

**النُّقطة الأولى:** إنّ الفقرة المرتبطة بالغضب وردت بأسانيد مختلفة وفي كتب كثيرة، قد تقدّمت الإشارة إلى أربعة أحاديث تنتهي أسانيدُها إلى المسور بن مخرمة، ولم نكن بصدد الحصر، وإلّا فهناك أسانيد أخرى لا تنتهي إليه.

منها: ما رواه الحاكم في مستدركه، قال: «حدّثنا أبو العباس مُحمَّد بن يعقوب، ثنا الحسن بن عليّ بن عفان العامري، وأخبرنا مُحمَّد بن عليّ بن دحيم بالكوفة، ثنا أحمد بن حاتم، عن أبيه، عن عليّ بن الحسين، عن أبيه، عن عليّ، قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة: إنّ الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك»<sup>(١٤)</sup>.

وعلق عليه بقوله: هذا حديثٌ صحيح الاسناد، ولم يُخرجاه.

ومنها: ما رواه الضّحّاك بقوله: «حدّثنا عبد الله بن سالم المفلوج، وكان من خيار النّاس، ثنا حسين بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، عن عمر بن عليّ، عن جعفر بن مُحمَّد، عن أبيه، عن عليّ بن الحسين بن عليّ، عن عليّ رضي الله تعالى عنه، عن النبيِّ ﷺ أنّه قال لفاطمة: إنّ الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك»<sup>(١٥)</sup>.

ومنها: ما رواه الطّبراني بقوله: «حدّثنا مُحمَّد بن عبد الله الحضرمي، حدّثنا عبد الله بن مُحمَّد بن سالم القرزّان، حدّثنا حسين بن زيد بن عليّ، عن عليّ بن عمر

ابن علي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين، عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنه، عن علي رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله تعالى عنها: إِنَّ الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك»<sup>(١٦)</sup>.

وقال الهيثمي: «رواه الطبراني، وإسناده حسن»<sup>(١٧)</sup>.

وحسن إسناده الصالح الشامي أيضاً<sup>(١٨)</sup>.

وعليه، فالحديث مستفيض مصحح من كثير من نقاد الأخبار، فلا ينبغي التوقف والارتباب فيه.

**النقطة الثانية:** إِنَّ هذه الفقرة تدلُّ دلالة واضحة على حرمة إيذائها، ووجوب إرضائها، كيف! وفي إيذائها إغضب للرب الجبار، وفي إرضائها إرضاء للرحمة الإلهية.

**النقطة الثالثة:** إِنَّ هذه الفقرة تدلُّ على عصمتها صلوات الله وسلامه عليها؛ إذ لما كان الغضب والرضا لا يصدران من الباري عز وجل إلا عن حق، فيستحيل أن يغضب تبارك وتعالى في مورد غضبها صلوات الله عليها، إن لم يكن غضبها في محلّه. كما أنه لا يصدر منه الرضا عند رضاها إذا لم يكن رضاها عن حق، فهي في الغضب والرضا والحزن والسرور خاضعة للحق، وإلا لما ترتب على ذلك غضب الرب ورضاه.

ولذا نجد السهيلي المالكي<sup>(١٩)</sup> في الروض الأنف يُعلّق على قصة أبي لبابة المتقدمة بقوله: «فهذا حديث يدلُّ على أَنَّ من سبها فقد كفر، ومن صلى عليها فقد صلى على أبيها صلى الله عليه وآله وسلم»<sup>(٢٠)</sup>.

فهنا مقدمات:

**الأولى:** إِنَّ فاطمة عليها السلام إذا غضبت على شخص يغضب الله عليه، بمقتضى

الحديث الصحيح عن النبي ﷺ.

**الثانية:** إِنَّ الله تبارك وتعالى إذا غضب على شخص فإنه يهوي؛ بمقتضى

قوله: ﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

الثالثة: إِنَّ مكان الهوي هو النَّار؛ ولذا سُمِّيت النَّار بالهاوية، قال تعالى في سورة القارعة: ﴿فَأُتُّهُ هَاوِيَةٌ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۝٢ نَارُ حَامِيَةٍ ۝٣﴾. فينتج ذلك بوضوح: إِنَّ مَنْ يُغْضِبُ فاطمة عليها السلام يدخل النَّار الحامية. وفي المقابل توجد مقدماتٌ أخرى: الأولى: إِنَّ فاطمة عليها السلام إذا رضيت على شخصٍ يرضى الله تبارك وتعالى عنه؛ للحديث.

الثانية: إِنَّ مَنْ يَرْضَى الله عنه يدخله في حربه؛ لقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ويشفع فيه ملائكته؛ لقوله: ﴿وَلَا يَسْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. الثالثة: إِنَّ مَنْ يدخل في حزب الله يأمن من الخوف والحزن، كما دلَّ على ذلك القرآن الكريم. جعلنا الله مِمَّنْ تَرْضَى عليه بضعة المصطفى صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) صحيح البخاري ٤: ٢١٠، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، نشر دار الفكر ١٤٠١.
- (٢) صحيح مسلم ٧: ١٤١، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٣) فضائل الصحابة: ٧٨، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٤) المستدرک على الصحيحين ٣: ١٥٨، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨.
- (٥) النهاية في غريب الحديث ١: ١٣٣، تعليق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- (٦) لسان العرب، مادة (بعض).



- (٧) رواه جمعٌ من المحدثين، منهم الطبراني في المعجم الكبير ٤: ١٦، حَقَّقَه وخرَّجَ أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، طباعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٨) فضائل الصحابة ١٥.
- (٩) المصدر نفسه.
- (١٠) سنن الترمذي ٥: ٣٠٠، تحقيق وتصحيح: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية ١٤٠٣، نشر دار الفكر، بيروت.
- (١١) د. الطحان، تيسير مصطلح الحديث: ٢٨.
- (١٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٤٧٠، تصحيح: أحمد عبد السلام، الطبعة الأولى ١٤١٥، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١٣) السهيلي، عبد الرحمن، الرُّوضُ الْآنْفُ في شرح السَّيْرَةِ النَّبَوِّيةِ لابن هشام ٢: ٢٨٨، تحقيق وتعليق وشرح: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي، القاهرة.
- (١٤) المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٥٣.
- (١٥) الآحاد والمثاني ٥: ٣٦٣، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الدراية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١.
- (١٦) المعجم الكبير ١: ١٠٨.
- (١٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩: ٢٠٣، دار الكتاب، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٧م.
- (١٨) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١١: ٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١٩) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي الأندلسي المالكي، كان ضريراً، مؤرخ ومحدث، حافظ، نحوي، لغوي، مقارئ أديب، ولد بسهيل، وأخذ عن ابن العربي وغيره، ووصل خبر نبوغه إلى مراكش، فطلبوه إليها وأحسن إليه، وأقبل عليه.
- (٢٠) الرُّوضُ الْآنْفُ ٦: ٣٢٨.

## التفسير الموضوعي والكلام الحديث

دراسة على ضوء فكر الشهيد الصدر رحمته الله

□ الأستاذ: الشيخ شبيب علي بن بديرة (\*)

### ١- نظرية التفسير الموضوعي: أبعادها وحدودها

منذ ظهور الكتابات الأولى لرؤاد عصر النهضة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت ملامح النقص والمحدودية تظهر في التراث الإسلامي المندرج تحت عنوان «علم الكلام». فإذا كان علم الكلام - كما يُعرّفه الفارابي - عبارة عن «الصناعة التي يُقتدر بها على نصره الأقوال والأفعال التي صرح بها واضع الملة، وتزييف ما يخالفها بالأقوال»<sup>(١)</sup>، فإنّ هذه النصرة لم تكن محرزة بمجرد العودة إلى ذلك التراث، فكانت محاولات بعض مقالات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده أول البوادر لما يمكن تسميته بمحاولات تجديد علم الكلام. ثمّ ظهر تيار الإخوان المسلمين وطرح في الساحة الثقافية كتابات أكثر شعبية وجماهيرية، ويمكن اعتبارها هي الأخرى محاولة لتجديد المباحث الكلامية طبقاً لاعتضاءات الصراع الثقافي مع الغرب الاستعماري.

(\*) باحث إسلامي، وأستاذ في الاقتصاد المعاصر والإسلامي / تونس.

## ١ / ١ دواعي التحديث الكلامي وتجديد المنهج في تفسير القرآن

يُمكن القول بلسان الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر رحمته الله أنه: «حينما وقع هذا التفاعل بين إنسان العالم الإسلامي وإنسان العالم الغربي، وجد الإنسان المسلم نفسه أمام نظريات كثيرة في مختلف مجالات الحياة، فكان لا بدّ لكي يُحدّد موقف الإسلام من هذه النظريات، كان لا بدّ وأن يستنطق بنصوص الإسلام، لا بدّ وأن يتوغّل في أعماق هذه النصوص لكي يصل إلى مواقف الإسلام الحقيقية سلباً وإيجاباً، لكي يكتشف نظريات الإسلام التي تُعالج نفس هذه المواضيع التي عالجتها التجارب البشرية الذكيّة في مختلف مجالات الحياة»<sup>(٢)(٣)</sup>.

في هذا الإطار من السّجال الثقافي والصّراع الفكري ظهر للعيان أنّ هناك حاجة ماسّة لتجديد المنهج في التعامل مع أقدس النصوص الإسلامية وأصحّها، وهو القرآن الكريم. والمنهج المتعارف في التفسير لم يكن يفي بالحاجات المتجدّدة للمباحث الكلاميّة الحديثة، فاتّخذ المحقق السيد الشهيد الصدر رحمته الله منذ أواخر ستينات القرن المنصرم وبشكل تصاعديّ تدريجيّ في الكثير من كتاباته<sup>(٤)</sup> منهجاً جديداً في تفسير القرآن الكريم، يتجاوز محدوديات المنهج القديم التجزيئيّ دون أن يستغني عن فوائده الجمّة.

وقد كان المنهج التجزيئيّ مهيمناً بشكلٍ مطلقٍ على ساحة التفسير، «ومما ساعد على شيوع الاتجاه التجزيئيّ للتفسير وسيطرته على السّاحة قروناً عديدة النّزعة الروائيّة والحديثيّة للتفسير؛ حيث إنّ التفسير لم يكن في الحقيقة وفي البداية إلّا شعبةً من الحديث بصورةٍ وأخرى، وكان الحديث هو الأساس الوحيد تقريباً، مضافاً إلى بعض المعلومات اللّغويّة والأدبيّة والتاريخيّة طيلة فترةٍ طويلةٍ من الزّمن»<sup>(٥)</sup>.

فما هي إذن ملامح هذا المنهج الجديد الذي أسماه صاحبه بالموضوعي أو

التَّوْحِيدِي، وَالَّذِي أَرَادَهُ أَنْ يَكُونَ أَدَاةً عِلْمِيَّةً تَسَاعِدُهُ فِي مِهْمَتِهِ الْكُبْرَى فِي تَحْدِيثِ الْكَلَامِ الْإِسْلَامِيِّ.

#### ٢ / ١ المنهج الموضوعي وخصائصه

«الانَّجَاهُ التَّوْحِيدِي أَوْ الْمَوْضُوعِي فِي التَّفْسِيرِ: انَّجَاهٌ لَا يَتَنَاوَلُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ آيَةً فَآيَةً بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يُبَارِسُهَا الْمَفْسِّرُ فِي الانَّجَاهِ التَّجْزِئِيِّ، بَلْ يُحَاوِلُ الْقِيَامَ بِالدِّرَاسَةِ الْقُرْآنِيَّةِ لِمَوْضُوعٍ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْحَيَاةِ الْعَقَائِدِيَّةِ أَوْ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَوْ الْكُونِيَّةِ، فَيُبَيِّنُ وَيُبَحِّثُ وَيُدْرَسُ - مَثَلًا - عَقِيدَةُ التَّوْحِيدِ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ يَبْحَثُ عَنِ النَّبُوَّةِ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ عَنِ الْمَذْهَبِ الْاِقْتِسَادِيِّ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ عَنِ سَنَنِ التَّأْرِيخِ فِي الْقُرْآنِ، وَهَكَذَا...»<sup>(٦)</sup>

وهكذا يَتَّخِذُ التَّفْسِيرُ طَبَقًا لِلْمَنْهَجِ الْمَوْضُوعِيِّ غَايَةً كَلَامِيَّةً وَاضِحَةً، فَلَا يَعُودُ لِلْأَلْفَاظِ مَدْلُولَاتٌ لُغَوِيَّةٌ فَقَطْ، بَلْ إِنَّ تَجْمِيعَهَا ضَمَّنَ مَنْظُومَةٍ صَغِيرَةٍ مَتَمَحَوِّرَةٍ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ سَوْفَ يَكْسِبُهَا دَلَالَاتٌ جَدِيدَةٌ كَلَامِيَّةٌ، لَمْ تَكُنِ الْأَلْفَاظُ لَتَكْشِفُهَا فِي إِطَارِ الْمَنْهَجِ التَّجْزِئِيِّ.

ويقول السَّيِّدُ الصَّدْرُ فِي هَذَا الْمَجَالِ: «... التَّفْسِيرُ كَانَ بِطَبْعِهِ لَفْظِيًّا، تَفْسِيرًا لِلْمَفْرَدَاتِ...، وَشَرْحًا لِبَعْضِ الْمُسْتَجَدِّ مِنَ الْمَصْطَلَحَاتِ، وَتَطْبِيقًا لِبَعْضِ الْمَفَاهِيمِ عَلَى أَسْبَابِ النُّزُولِ. وَمِثْلُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَقُومَ بِدَوْرٍ اجْتِهَادِيٍّ مُبَدِعٍ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَدْلُولِ اللَّغَوِيِّ وَاللَّفْظِيِّ، وَالتَّوَصُّلِ إِلَى الْأَفْكَارِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي حَاوَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ خِلَالِ الْمَتَنَاتِ مِنْ آيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ...»<sup>(٧)</sup>.

وَحَتَّى تَتَضَحَّ خِصَائِصُ الْمَنْهَجِ الْجَدِيدِ - أَعْنِي: الْمَنْهَجِ الْمَوْضُوعِيِّ - نَقْدَمُ مُقَارَنَةً مُخْتَصِرَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَنْهَجِ التَّجْزِئِيِّ. وَأَوَّلُ عُنَاوَرِ هَذِهِ الْمُقَارَنَةِ هُوَ مَوْقِفُ

المفسّر من كِلا المنهجين:

١ / ٢ / ١ الحوار مع القرآن بدلاً من الاستماع إليه

«المفسّر التجزيئي يكون دوره في التفسير سلبياً على الأغلب، فهو يبدأ بتناول النّص القرآني المحدّد - آيةً كان أو مقطعاً - من دون أيّ افتراضات أو طروحات مسبقة، ويحاول أن يُحدّد المدلول القرآني على ضوء ما يُسعه به اللفظ، مع ما يُتاج له من القرائن المتّصلة والمنفصلة. وهذه العمليّة بطابعها العام عمليّة تفسير لنّصّ معيّن، يكون دور النّصّ فيها كدور المتحدث، ودور المفسّر فيها دور المصنّغي والمتفهم، وهذا هو ما نقصده من الدّور السّليبي.

فالمفسّر شغله الاستماع، ولكن بذهنٍ نيّر، وفكرٍ صافٍ، وروحٍ محيطيّة بأداب اللّغة وأساليبها في التعبير. فالقرآن يُعطي والمفسّر يأخذ بقدر ما يفهم من مدلول اللفظ...»<sup>(٨)</sup>.

وفي مقابل ذلك كلّه فإنّ المفسّر في التفسير الموضوعي: «لا يجلس ساكناً ليستمع فقط، بل يجلس محاوراً، وسائلاً، ومستفهماً، ومتدبراً؛ فيبدأ مع النّصّ القرآني حواراً حول موضوعٍ معيّن، وهو من ذلك يستهدف أن يكشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح والنّظريّة التي بإمكانه أن يستلهمها من النّصّ، كلّ ذلك من خلال مقارنة هذا النّصّ مع ما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار واتّجاهات... ومن هنا كان نتائج التفسير الموضوعي نتائج مرتبطة دائماً بتيار التجربة البشريّة؛ لأنّها تمثّل المعالم والاتّجاهات القرآنيّة لتحديد النّظريّة الإسلاميّة بشأن موضوع من مواضيع الحياة.

ومن هنا - أيضاً - كانت عمليّة التفسير الموضوعي عمليّة حوارٍ مع القرآن الكريم واستنطاقٍ له، وليست مجرد استجابةٍ سلبية، بل هي استجابةٌ فعّالة، وتوظيفٌ هادفٌ للنّصّ القرآني في سبيل الكشف عن حقيقةٍ من حقائق الحياة

## ١ / ٢ / ٢ هل يُمكن استنطاق القرآن؟

قد يُقال إنَّ ادَّعاء القدرة على محاورة القرآن الكريم أمرٌ خطيرٌ نهت عنه العديد من الروايات الصحيحة، بل وبعض الآيات الصريحة. وقد أدّى هذا الرأى في الماضي البعيد إلى ظهور ردِّ فعلٍ متطرّفٍ ينفي حُجّة القرآن من رأس. إلّا أنَّ السيّد الصدر رحمته الله - وهو مع ما هو عليه من التدقيق والتبحر - لم يكن غافلاً عن هذا الإشكال القديم، فقد أورد شاهداً من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد يتمسك به الخصم لتثبيت الإشكال المتقدّم، ولكنّه علّق عليه بما جعله مؤيداً لنظريته؛ حيث قال بعد إيرادِهِ لروايةٍ عن الأمير عليه السلام - ... ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه...<sup>(١٠)</sup> -: «التعبير بالاستنطاق الَّذي جاء في كلام ابن القرآن - عليه الصّلاة والسّلام - أروع تعبيرٍ عن عمليّة التفسير الموضوعي بوصفها حواراً مع القرآن الكريم وطرحاً للمشاكل الموضوعيّة عليه بقصد الحصول على الإجابة القرآنيّة عليها...»<sup>(١١)</sup>.

هنا يبدو أنّه غير معتقِد بأنَّ الاستنطاق هو طلب الخطاب الواضح والصريح؛ فإنّه أمرٌ أكّد أمير المؤمنين عليه السلام أنّه غير ممكنٍ إلّا بواسطة المعصوم، بل هو لا يزعم أكثر من أنَّ المفسّر طالبٌ للمدّد من القرآن، ومستعينٌ به على أمرٍ فُرض عليه بحكم الصّراع. فليس المفسّر الموضوعي مستجوباً للقرآن، «وإنّما وظيفة التفسير الموضوعي دائماً وفي كلّ مرحلة وفي كلّ عصرٍ أن يحمل كلّ تراث البشريّة الَّذي عايشه، يحمل أفكار عصره، يحمل المقولات التي تعلّمها في تجربته البشريّة، ثمّ يضعها بين يدي القرآن...»<sup>(١٢)</sup>.

«إذاً هذا العطاء الَّذي لا ينفد للقرآن، هذه المعاني التي لا تنتهي للقرآن، [و] التي نصّ عليها القرآن نفسه، ونصّت عليها أحاديث أهل البيت عليهم الصّلاة

والسَّلام، هذه الحالة من عدم النَّفاد تكمن في هذا المنهج، في منهج التفسير الموضوعي؛ لأنَّنا نستنتق القرآن...»<sup>(١٣)</sup>.

### ٣ / ١ التفسير الموضوعي والتركيب النظري

إنَّ أهمَّ مكاسب المنهج الموضوعي في التفسير قد لا تظهر إلَّا في ساحة تجديد علم الكلام، أمَّا حقل الفقه فمن الصَّعب إقحامه فيه إلَّا بعد ثورة في منهج أصول الاستنباط، وهو ما لم يُسعف العمر لصاحب هذه النظريَّة به، وإنَّ كانت بوادر مثل هذه الثَّورة قد لاحت باحتشام منذ كتاب «اقتصادنا».

أمَّا هذا المكسب العلمي الكبير، فهو إضافة بُعْدٍ تركيبيٍّ قويٍّ في المنهج النَّصوبي العقلي المعتمد في الكلام وفي أصول الفقه أيضًا. ولا يمكن فهم عمق هذه الإضافة وأهمَّيتها إلَّا بمقارنة ثانية بين المنهج الموضوعي والمنهج التَّجزئي: «...التفسير التَّجزئي يكتفي بإبراز المدلولات التَّفصيليَّة للآيات القرآنيَّة الكريمة، بينما التفسير الموضوعي يطمح إلى أكثر من ذلك، يتطلَّع إلى ما هو أوسع من ذلك، يحاول أن يستحصل أوجه الارتباط بين هذه المدلولات التَّفصيليَّة، يحاول أن يصل إلى مركَّب نظريٍّ قرآنيٍّ، وهذا المركَّب النظري القرآني يحتلُّ في إطاره كُلِّ واحدٍ من تلك المدلولات التَّفصيليَّة موقعه المناسب، وهذا ما نُسَمِّيه بلغة اليوم بالنظريَّة. يصل إلى نظريَّة قرآنيَّة عن النُّبوة، نظريَّة قرآنيَّة عن المذهب الاقتصادي، نظريَّة قرآنيَّة عن سنن التَّاريخ، وهكذا عن السَّموات والأرض...»<sup>(١٤)</sup>.

### ٤ / ١ شبهة التَّأويل وردّها

إنَّ من أهمَّ الشُّبهات التي تعترض سبيل المنهج الموضوعي في التفسير ما يُسمَّى بشبهة التَّأويل؛ حيث إنَّ التَّأويل وإنَّ كان بحسب المعنى اللُّغوي

يُستعمل في مطلق الحمل على خلاف الظاهر، إِلَّا أَنَّ المعنى المعاصر له، والتي تدور حوله ما يُسمَّى بالهرمنوطيقا المستبطنة لإسقاط ذاتيات الباحث عن موضوع البحث، فحينئذٍ تصبح شبهة التأويل أقوى وأشدَّ، خصوصاً فيما يتعلَّق بالتفسير الموضوعي؛ لأنَّه من السَّهل اتِّهام المفسِّر بأنَّه يُطوِّع الدَّلالات اللَّفْظِيَّة لاختياراته الأيديولوجيَّة؛ فإذا كان المفسِّر اشتراكياً فإنَّه سوف يُخرج اشتراكيَّة القرآن من قوله: ﴿كَئِنْ لَمْ يَكُنْ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَعْيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، وما يعاضدها من الآيات التي تذمُّ الثَّروة. أمَّا إذا كان ليبرالياً، فسوف يُخرج لنا رأسماليَّة القرآن انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسٌ أَمْوَالُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وما يدور حول هذا المعنى مثل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقس على ذلك في سائر الموضوعات.

ويُجيب السيِّد الصِّدِّيقُ (عليه السلام) عن هذه الشُّبهة بقوله: «... فنعبِّر عن التَّفسير بأنَّه موضوعيٌّ على ضوء الأمر الأوَّل، باعتبار أنَّه يبدأ من الموضوع الخارجي، وينتهي إلى القرآن الكريم، وتوحيديٌّ باعتبار أنَّه يوحد بين التَّجربة البشريَّة وبين القرآن الكريم، لا بمعنى أنَّه يحمِّل التَّجربة البشريَّة على القرآن، لا بمعنى أنَّه يُخضع القرآن للتَّجربة البشريَّة، بل بمعنى أنَّه يوحد بينهما في سياق بحثٍ واحد؛ لكي يستخرج نتيجة هذا السِّياق الموحد من البحث، يستخرج المفهوم القرآني الَّذي يمكن أن يُحدِّد موقف الإسلام تجاه هذه التَّجربة أو المقولة الفكريَّة التي أدخلها في سياق بحثه...»<sup>(١٥)</sup>.

وهذه الإجابة إنَّ لم تكن شافيةً للغليل فسيبقى المحكَّ العملي وحده هو الحَكَم، وهو ما سنشير إليه في آخر البحث. ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ الصَّرورة الكلاميَّة المعاصرة قد فرضت نفسها بِالْحَاجِ، ولم يكن أمام صاحب نظريَّة التَّفسير الموضوعي إِلَّا أن يُقدم على هذا المشروع الشَّجاع متأسياً بالجيل المسلم الأوَّل، فهي هو يقول: «الحقيقة أنَّ هناك اليوم ضرورةٌ أساسيَّة لتحديد هذه



النظريات، ولتحصيل هذه النظريات، ولا يمكن أن يفترض الاستغناء عن ذلك. النبي ﷺ كان يُعطي هذه النظريات، ولكن من خلال التطبيق، من خلال المناخ القرآني العام الذي كان يُبينه في الحياة الإسلامية، فكان كُُلُّ فردٍ مسلمٍ في إطار هذا المناخ يفهم النظرية ولو فهمًا إجماليًا ارتكازيًا؛ لأنَّ المناخ والإطار الروحي والاجتماعي والفكري والتربوي الذي وضعه النبي ﷺ كان قادرًا على أن يُعطي النظرة السليمة، والقدرة السليمة على تقويم المواقف والمواقف والأحداث...»<sup>(١٦)</sup>.

وللتأكد من هذه الضرورة نسلِك سبيل المقارنة بين بحيتين لصاحب النظرية نفسه، أحدهما قبل التجديد، والآخر معه، وهو الآتي.

## ٢- المفهوم القرآني للحرية قبل نضج نظرية التفسير الموضوعي

يُعتبر مقال «الحرية في القرآن» الذي نشره الشهيد الصدر رحمه الله في بداية الستينات من القرن الماضي إحدى المحاولات الممهدة لتطبيق المنهج الموضوعي لتفسير القرآن، وذلك قبل سنواتٍ من تبلوره الذي تُشكّل الدُّروس المشار إليها تمهيداً له. وهذا المقال يلتقي إلى حدٍّ كبيرٍ مع أدبيات سيد قطب ومُحمَّد قطب، التي كانت لها محاولة مع منهج استنطاق القرآن الكريم. ولا نجد في هذا المقال إضافةً علمية تذكر في باب الكلام الإسلامي الجديد.

ففي مقدمة المقال جمع السيّد الصدر رحمه الله بعض الآيات القرآنية التي تُشكّل الإطار العام للفكرة المحورية.

### ١ / ٢ موقع الحرية في الإسلام وماهيتها

فذكر الآيات التالية:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ

بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

- ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمُنَاقَبِ ﴿١٤﴾﴾ ﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ من نفس السورة السابقة.

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩].

- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

أما الأولى، ففيها دعوة صريحة إلى الإيمان بربوبية الله ونفي ربوبية غيره. وفي الثانية مقابلة بين متاع الدنيا وشهواتها الزائفة الزائلة والسعادة الأبدية الأخروية التي تنتظر المتقين دون غيرهم. وفي الثالثة والرابعة تصريح بتسخير ما في السماوات والأرض للناس جميعاً. أمّا في الخامسة، فنجد تصريحاً ظاهراً في حرية المعتقد وإتمام الحجة على الناس.

وابتداءً، يمكن القول بأن هذه الآيات المعدادة ليس بمقدورها أن تؤمن جميع ما يحتاجه هذا البحث؛ ولذا كان كاتب المقال رحمه الله مضطراً إلى أكبر قدر ممكن من المسامحة في استنطاق الآيات الكريمة. فهل ستصل هذه المسامحة إلى حدّ تحميل النصّ القرآني معانٍ على خلاف ما يُمكن أن يستظهره مفسّرون آخرون؟! وهذا من أهم الإشكالات التي واجهت تفسير السيّد قطب المعروف

باسم «في ظلال القرآن»، وستواجه كل محاولة متحررة لاستنطاق آيات القرآن الكريم، رغم أن المنهج الموضوعي - ولو في طوره الجنيني هذا - قد يؤمن حماية إضافية مهمة تعصم المفسر من السقوط في التأويل المتحرر.

## ٢ / ٢ أصالة قيمة الحرية

في بداية المقال يطلق صاحبه ﷺ مقولة يسعى إلى إسباغ الشريعة عليها بالاستعانة بمساحة كبرى في استنطاق القرآن: «وإنما تُعبر هذه الصلة العاطفية عن عاطفة أصيلة في النفس البشرية تشع من كل ثنايا التاريخ...»<sup>(١٧)</sup>. وفي الحقيقة لم يكن الكاتب مضطراً إلى الاستعانة بالقرآن الكريم مع وجود استدلال فلسفي يربط بين الإرادة الإنسانية وأصالتها وحب الحرية، إلا أنه وإن أشار إليه الكاتب إلا أنه لم يبرزه بشكل برهاني؛ حيث قال: «... كما يسوء الإنسان أن يتعطل أي جهاز من أجهزته عن العمل، يسوء بطبيعة الحال أن يُشل جهازه الإداري بانزعاج الحرية منه...»<sup>(١٨)</sup>.

وهنا يقدم الكاتب استدراكاً شائعاً على إطلاق الحرية، وهو يعود إلى التحديد الاجتماعي للحرية الفردية<sup>(١٩)</sup>، وهذا نفس المفهوم الذي تبنته الحضارة الغربية<sup>(٢٠)</sup>، إلا أنه قد تحول إلى عامل تفسيح اجتماعي؛ لغياب الضمانات التي يُقدمها الدين الإلهي، وبهذه الملاحظة يتخلص الكاتب ﷺ إلى المفهوم الإسلامي للحرية.

## ٢ / ٣ المفهوم الإسلامي للحرية

على منوال ما تردد في أدبيات الإخوان المسلمين - خاصة سيد قطب ومحمد قطب - قدم السيد الصدر ﷺ للمفهوم الإنساني للحرية مقابلة دقيقة بينه وبين مفهومها الغربي: «... ولئن كانت الحرية في الحضارات الغربية تبدأ من التحرر

لتنتهي إلى ألوانٍ من العبوديّة والأغلال، فإنَّ الحرّيّة الرّحية في الإسلام على العكس؛ فإنّها تبدأ من العبوديّة المخلصة لله تعالى، لتنتهي إلى التّحرُّر من كلّ أشكال العبوديّة المهيمنة...»<sup>(٢١)</sup>. ولكنَّ الاستدلال بالآيات المتقدّمة على هذه المقابلة بشكلٍ واضحٍ كان لا يخلو عن مسامحةٍ كُبرى، فالآية الأولى غير واضحةٍ على الدّلالة المطلوبة؛ فلذا التجأ الكاتب ﷺ إلى الاستدلال الأخلاقي المؤيّد بالآية الثّانية، فتتحوّل المقابلة بين المفهومين الغربي والإسلامي للحرّيّة إلى مقابلةٍ أُخرى بين حرّيّة الإنسان المتحلّي بمكارم الأخلاق وحرّيّة الحيوان. وحيث إنّ المساواة بين الإنسان الغربي والحيوان ظلّت بحاجةٍ إلى إثبات، فقد وجد الكاتب نفسه مضطراً للتّمثيل بحادثةٍ شهيرة، وهي عجز الحكومة الأمريكيّة عن تحريم الخمر، وفشلها في تطبيق هذا القانون رغم تبين مساوئ «أمّ الخبائث» لدى الخاص والعام<sup>(٢٢)</sup>، في مقابل الانصياع التلقائي للمسلمين لأمر تحريم الخمر. ولكن يُمكن القول بعدم جدوى مثل هذا الاستدلال مع الدّهريين المادّيين المتعبدین باستقصاء اللّذة الحسيّة، ولو جازت المناقشة في المثال لأمكن النّقض ببعض الصّحابة الذين رفضوا الانصياع لأمر التّحريم، رغم عظمة شخص الرّسول ﷺ.

## ٢/ ٤ الأبعاد الاجتماعيّة والسلوكيّة للمفهوم الإسلامي للحرّيّة

بعد أن أوضح المفهوم الإسلامي للحرّيّة إجمالاً، انطلق الكاتب ﷺ في عمليّة تحليليّة يصعب القبول بانتسابها إلى دلالات تلك الآيات إلّا الالتزاميّة منها، فيقول:

«... فعبوديّة الإنسان لله تجعل النّاس كلّهم يقفون على صعيدٍ واحدٍ بين يدي المعبود الخالق، فلا توجد أمة لها الحقّ في استعمار أمةٍ أُخرى واستعبادها، ولا فئة من المجتمع يُباح لها اغتصاب فئةٍ أُخرى وانتهاك حرّيّتها، ولا إنسانٌ يحقّ له أن

يَنْصَبُ نَفْسَهُ صَنِاً لِلْآخِرِينَ...»<sup>(٢٣)</sup>.

فما من شكٍّ أنَّ لازم إخلاص العبودية لله هو ترك أي تعلُّقٍ بغيره، ورفض أية هيمنةٍ لأيٍّ مدَّعٍ للرَّبوبيةِ غيره، سواء كان هذا المدَّعي شعباً متفوقاً أم طبقةً متمكنةً أم فرداً مُسَرَّباً للصَّنمِيَّة. أمَّا على المستوى العملي الَّذِي هو محكُّ الصِّدْقِ في أيِّ مفهومٍ، فمن الواضح أنَّ هذه الأقسام الثلاثة من العبوديات الانحرافية قد هيمنت على مجمل تاريخ الأُمَّة، فيصبح أيُّ ادِّعاءٍ بتنزيه الأُمَّة منها في غاية الضَّعف.

أمَّا فيما يرتبط بالبعد السلوكي الفردي لمفهوم الحرِّيَّة في الإسلام، فقد اجتهد الكاتب ﷺ في الرِّبط بين ما استقرَّ عنده من تصوُّرٍ أخلاقيٍّ لسلوك الفرد المسلم وبعض الآيات التي جعلها محاور أساسية في الفضاء المعرفي المشكَّل للمفهوم القرآني للحرِّيَّة، فيقول: «... فالإسلام يهتمُّ قبل كُلِّ شيءٍ بتحرير السلوك العملي للفرد من عبودية الشهوات، أو عبودية الأصنام، ويسمح بمجال التَّصرُّف للفرد كما يشاء، على أن لا يخرج عن حدود الله؛ فالقرآن يقول: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾، وبذلك يضع الكون بأسره تحت تصرُّف الإنسان وحرِّيَّته، ولكنها حرِّيَّةٌ محدودةٌ بالحدود التي تجعلها تتفق مع تحرُّره الدَّاخلي من عبودية الشهوة وتحرُّره الخارجي من عبودية الأصنام...».

ولعلَّه من أغرب ما يُمكن أن يُلاحظ هنا موقع فاء التَّفريع في قوله: «فالقرآن...»، وكذلك الاستدراك في قوله: «ولكنها حرِّيَّةٌ...»؛ فمن الصَّعب التَّسليم بهذه المسامحات في مقام الاستدلال الَّذِي يقتضيه الطَّابع الكلامي للموضوع<sup>(٢٤)</sup>.

كُلُّ هذه الملاحظات وغيرها تجعل من هذا البحث المختصر محاولةً غير موفَّقة بالقياس إلى ما سبقها وما لحقها من أعمالٍ شاحخة لهذا المحقِّق الفذِّ؛ وليس

ذلك إلا للقصور في المنهج؛ حيث إن هذا المقال قد كُتِبَ قبل أن تنضج نظرية التفسير الموضوعي والتوحيدي للقرآن الكريم عند صاحبها بسنوات عديدة.

### ٣- التحليل الاجتماعي في ضوء التفسير الموضوعي للقرآن

تقدّم أن أهم مكاسب نظرية المحقق السيّد الشهيد الصدر رحمته الله في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، هو تقوية الجانب التركيبي في المنهج العلمي المعتمد في العلوم الشرعية بعد أن كان يغلب عليه الجانب التحليلي. وقد برزت هذه الخاصية بالتدرّج، فكانت تشتدّ ظهوراً وبروزاً في أعمال المحقق الشهيد كلّما ازدادت نظرية التفسير الموضوعي نضجاً؛ فبعد أن كان غيابها ملموساً في بداية الستينيات - كما لاحظناه في المقال المتقدّم - ظهر كتاب «اقتصادنا» في آخر ذلك العقد حاملاً معه تبشير بداية التبلور لهذه النظرية. لكن قد منع من بروز هذا التبلور كثرة الاعتماد على الروايات والأحاديث في ذلك الكتاب القيم. وكانت المرحلة الأخيرة من حياة هذا العَلَم الكبير حاملةً معها أوج عطائه في هذا المجال، فكانت دروسه في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في أواخر السبعينات موضحةً لهذه النظرية كأحسن ما يكون التوضيح؛ فإلى جانب العرض النظري حرص السيّد الشهيد رحمته الله على تطبيق نظريته في موضوع لم يكن للفقهاء ولا المفسرين كثير عهد به من قبل، ألا وهو السُّنن التاريخية والتحليل الاجتماعي. وفي الأسطر الآتية سوف نُلقِي بعض الأضواء على أهم الإنجازات المناهجية لهذا العمل انطلاقاً من قراءة تقييمية لتحليل عناصر المجتمع طبقاً للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

### ٣/ ١ القرآن وعناصر التحليل الاجتماعي

بعد أن أوضح الشهيد الصدر رحمته الله مفهوم السُّنن التاريخية في ضوء التفسير

الموضوعي للقرآن الكريم ركّز بحثه على تحليل الواقع الاجتماعي بما هو مجال تحقق تلك السنن، والمحكّ العملي الذي يمكن تقييم جريانها عليه. فانطلق في هذا التحليل من مقدّمة اعتمدت على تقسيمه الثلاثي للسنن، فوضع الظاهرة الدنيّة في إطارها الاجتماعي باعتبارها من القسم الثالث من أقسام السنن التاريخية، أي: ذلك القسم الذي يمكن للإرادة الإنسانية أن تؤثر فيه سلباً أو إيجاباً إلى حدّ التعطيل، فيقول: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، هذه الجملة الأخيرة إشارة إلى أنّ هذه السنّة من الشّكل الثالث، أي: أنّ للنّاس أن يتخذوا مواقف سلبية وإهمالية تجاه هذه السنّة، ولكنّه إهمال على الشّوط القصير لا على الشّوط الطّويل<sup>(٢٥)</sup>.

هذا هو الإطار العام الذي اختاره ﷺ للتحليل الاجتماعي، إنّه الاستثناء القرآني: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فكون أكثر النّاس غافلين عن فطريّة الظّاهرة الدّينيّة وتكوينيّتها هو الذي يوقعهم في المخالفة، وهو الذي يؤدّي بالمجتمع البشري إلى التّشتّت الذي قد يصل إلى حدّ التّفشّخ. وهنا يطرح تساؤلاً عن عناصر المجتمع من زاوية نظر القرآن الكريم، وما هي مقوّمات المركّب الاجتماعي؟ وكيف يتمّ التّركيب بين هذه العناصر والمقوّمات<sup>(٢٦)؟</sup>..

### ٣/ ١ / ١ عناصر التّركيب الاجتماعي

ينطلق ﷺ في تحليله من ضمّ آية أخرى إلى الآية المتقدّمة، وهي قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ثمّ يشرع في عمليّة تحليليّة من الآيتين معاً، فيقول:

«هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارة القرآنيّة:

أَوَّلًا الْإِنْسَانَ.

ثانيًا: الأرض أو الطبيعة على وجه عام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فهناك أرض أو طبيعة على وجه عام، وهناك الإنسان الذي يجعله الله سبحانه وتعالى على الأرض.

ثالثًا: العلاقة، العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالأرض [و] بالطبيعة، وتربط من ناحية أخرى الإنسان بأخيه الإنسان. هذه العلاقة المعنوية التي سماها القرآن الكريم بالاستخلاف. هذه هي عناصر المجتمع: الإنسان، والطبيعة، والعلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالطبيعة من ناحية، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان من ناحية أخرى، وهي العلاقة التي سُميت قرآنياً بالاستخلاف<sup>(٢٧)</sup>.

### ٣ / ١ / ٢ مفهوم الاستخلاف

ينطلق ﷺ من تحليل العنصر الأخير ليصل بنا إلى أهم مفاهيم التحليل الاجتماعي القرآني وهو الاستخلاف، فيقول ما ملخصه:

«وهذه العلاقة التي هي العنصر الثالث والمرن والمتحرك في تركيب المجتمع لها صيغتان أساسيتان:

إحدهما: صيغة يصحُّ أن نطلق عليها اسم الصيغة الرباعية، وهي الصيغة التي ترتبط بموجها الطبيعة والإنسان مع الإنسان. فهذه الأطراف الثلاثة يُضاف إليها طرفٌ رابعٌ ليس داخلاً في إطار المجتمع، بل خارجٌ عنه، وهو نفس الرّابط بين هذه العناصر الثلاثة. وهذا الطرف الرابع يعتبر مقوماً أساسياً للعلاقة الاجتماعية على الرغم من خروجه عن إطار المجتمع. وهذه الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية هي التي طرحها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف<sup>(٢٨)</sup>.

هكذا يظهر أنَّ الاستخلاف منتزَعٌ لا من الآية الثانية فقط التي ورد فيها لفظ الخليفة بالنص، بل من الآية المتقدمة التي تضع هذه الخلافة في سياقها: ﴿فَطَرَتْ



اللَّهُ ﴿ وَالذِّبْتُ الْقَيْمُ ﴾. ورغم كونه ﷺ لم يُشر إلى هذا المعنى بشكل مباشر إِلَّا أَنَّهُ واضحٌ بالملزمة؛ فلولا هذا السياق لأمكن تصوُّر إطلاق يد الإنسان في الأرض، وهو ما يلزم منه نفي البعد الرابع في الصيغة.

### ٣ / ١ / ٣ الأمانة والاستخلاف

إلى هذا المستوى يبدو عمله ﷺ وكأنه قد غلب عليه الجانب التحليلي، وهذا خلاف ما اعتبرناه المكسب الأكبر في منهجه الموضوعي، إِلَّا أَنَّهُ سرعان ما يردف هذه العملية التحليلية بعملية تكميلية تجعل مفهوم الاستخلاف أكثر عملائية، وتعطيه قابليات نظرية أوسع في حقل التحليل الاجتماعي. وهذه العودة التركيبية يجسدها ضم آية ثالثة إلى الإطار القرآني للبحث، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ومن هذه الآية إلى جانب ما تقدّم يقوم ﷺ بانتزاع الوجه الثاني لمفهوم الاستخلاف، وهو الأمانة، فيقول:

«الأمانة هي الوجه التقبلي للخلافة. الخلافة هي الوجه الفاعلي والعطائي للأمانة. الأمانة والخلافة عبارة عن الاستخلاف والاستئمان، وتحمل الأعباء، عبارة عن الصيغة الرباعية...»<sup>(٢٩)</sup>.

أمّا العرض المذكور في صدر الآية الكريمة، فقد كان مصدر إلهام للسيد الصدر ﷺ؛ إذ: «أنّه عرض تكويني لا عرض تشريعي، هذا العرض معناه أنّ هذه العطية الربانية كانت تُفتش عن الموضع القابل لها في الطبيعة، الموضوع المنسجم معها بطبيعته، بفطرته، بتركيبه التاريخي والكوني. الجبال لا تنسجم مع هذه الخلافة، السماوات والأرض لا تنسجم مع هذه العلاقة الاجتماعية الرباعية، الكائن الوحيد الذي كان - بحكم تركيبه، بحكم بنيته، بحكم فطرة الله التي

قرأناها في الآية السابقة - كان منسجماً مع هذه العلاقة الاجتماعية ذات الأطراف الأربعة التي بها تصبح أمانة، وتصبح خلافة...»<sup>(٣٠)</sup>.

### ٣ / ١ / ٤ الإرادة الإنسانية في مقابل السنة الإلهية

أشرنا في بداية هذه العرض إلى أنَّ الإطار العام لهذا التحليل الاجتماعي القرآني هو مفهوم السنة الإلهية القابلة للتعطيل. وهنا يعود صاحب النظرية ﷺ لاستكمال ربط عناصر التحليل بإطارها العام مستفيداً من القابليات التركيبية الجديدة، فيقول: «... هذه العبارة الأخيرة: ﴿لَئِنْ كَانَتْ ظُلُومًا جَهُولًا﴾ تأكيداً على طابع هذه السنة، وأنَّ هذه السنة على الرغم من أنَّها سنَّة من سنن التاريخ ولكنها تقبل التحدّي، تقبل أن يقف الإنسان منها موقفاً سلبياً، هذا التعبير يوازي تعبير ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في الآية السابقة...»<sup>(٣١)</sup>.

هنا قد تُطرح مسألة مهمة: كيف يُمكن الجمع بين الظاهر الإلزامي لفطرة الله، وقابلية هذه السنة الإلهية للتعطيل بإرادة الإنسان؟! ويُقدِّم الشهيد ﷺ حلاً تحليلياً لا تركيبياً؛ الفصل بين البعد التكويني والبعد التشريعي، فيقول: «... ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي يُقِيمُ﴾، التعبير بالدين القيم تأكيداً على أنَّ ما هو الفطرة، وما هو داخل في تكوين الإنسان وتركيبه وفي مسار تاريخه هو الدين القيم، يعني: أن يكون هذا الدين قيماً على الحياة، أن يكون مهيمناً على الحياة. هذه القيمومة في الدين هي التعبير المجمل في تلك الآية عن العلاقة الاجتماعية الرباعية التي طُرحت في الآيتين، في آية ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وآية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»<sup>(٣٢)</sup>.

ولكن يبقى السؤال مطروحاً: ما فائدة أن يكون الدين قيماً تكوينياً ومعطلاً

تشريعاً بإرادة الإنسان؟ ولا يُمكن للمعالجة التحليلية أن تكون ذات جدوى هنا، ولو أسعف العمر للسَّيد الشَّهيد لأمكنه أن يواصل عمله التَّركيبي، فيصل إلى حلٍّ قرآنيٍّ ينسجم مع الحلِّ الفلسفي المعروف<sup>(٣٣)</sup>.

### ٢ / ٣ تكامل النَّصِّ القرآني مع الواقع المعرفي

من أهمِّ المسائل المطروحة أمام نظرية التفسير الموضوعي هو تفسير معنى استنطاق القرآن، وقد تقدَّم أنَّ العرض النظري الَّذي قدَّمه الشَّهيد الصدر رحمته الله لحلِّ هذه المسألة لم يكن بالوضوح الكافي لدفع شبهة التَّأويل. وفي هذا البحث سوف نقوم بعملية تقويم لإحدى تطبيقاتها التي وضعت النظرية على المحكِّ العملي.

### ١ / ٢ / ٣ من الاستقراء التاريخي إلى التَّركيب القرآني

في عملية استكشاف العلاقة بين موقف الإنسان من أخيه الإنسان وموقعه في الطبيعة، ينطلق رحمته الله من عملية استقرائية تاريخية يلخصها في دفع شبهة الماركسيَّة التي تقول بأنَّ علاقات الإنسان مع الإنسان تخضع لدرجة تطوُّر وسائل إنتاجه وكيفية تعامله مع الطبيعة.

يقول رحمته الله: «كُلَّمَا تمت خبرة الإنسان على الطبيعة واتَّسعت سيطرته عليها وازداد اغتناءً بكنوزها ووسائل انتاجها، تحققت بذلك إمكانية أكبر فأكبر للاستغلال على خطِّ علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ (١) أن رآه استغنى ﴿٧﴾ ... وهذا هو الفرق بيننا وبين المادية التاريخية، المادية التاريخية اعتقدت بأنَّ الآلة هي التي تصنع الاستغلال، هي التي تصنع النظام المتناسب لها، ولكننا نحن لا نرى أنَّ دور الآلة هو دور الصَّانع، وإنَّما دور الآلة هو دور الإمكانية، دور توفير الفرصة والقابلية، وأمَّا الصَّانع الَّذي يتصرَّف إيجاباً وسلباً،

أمانة وخيانة، صموداً وانهياراً، إنما هو الإنسان وفقاً لمحتواه الداخلي، لمثله الأعلى، لمدى التحامه مع هذا المثل الأعلى...»<sup>(٣٤)</sup>.

هكذا يبدو الاستقراء مدعوماً دعماً مباشراً بالاستدلال القرآني الذي يبين أنَّ علَّة الطُّغيان هي شعور الإنسان بالاستغناء. ولكن هل يصطدم حقاً هذا الاستدلال القرآني مع الماديَّة التَّاريخيَّة؟ لو وقف الأمر عند هذه الآية لكان الأمر مشكلاً حقاً، وهنا تكمن قوَّة المنهج الموضوعي الَّذي لا يترك آيةً واحدةً في مواجهة مسألةٍ متشعبةٍ كهذه.

«... كلِّما جسَّدت علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان العدالة، وكلِّما استطاعت أن تستوعب قيم هذه العدالة وأن تباعد عن أيِّ لونٍ من ألوان الظُّلم والاستغلال مع الإنسان لأخيه الإنسان، كلِّما وقع ذلك، ازدهرت علاقات الإنسان مع الطَّبيعة وتفتَّحت الطَّبيعة عن كنوزها وأعطت المخبوء من ثرواتها ونزلت البركات من السَّماء، وتفجَّرت الأرض بالنعمة والرخاء.

هذه العلاقة القرآنيَّة هي العلاقة التي شرحها القرآن الكريم في نصوصٍ عديدة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْوَأَسْتَقْنُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذْقًا﴾ [الحج: ١٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

هذه العلاقة مؤدَّاها أنَّ علاقات الإنسان مع الطَّبيعة تتناسب طردياً وعكساً مع ازدهار العدالة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، فكلِّما ازدهرت العدالة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان أكثر فأكثر ازدهرت علاقات الإنسان مع الطَّبيعة، وكلِّما انحسرت العدالة عن الخطَّ الأوَّل انحسر الازدهار عن الخطَّ الثاني...»<sup>(٣٥)</sup>.

هكذا تندفع شبهة الماركسيَّة بشكلٍ بنائيٍّ؛ فالبديل القرآني يطرد النُظريَّة

المادية التاريخية تلقائياً. وهكذا تجتمع آيات قرآنية متعددة ضمن مقولة جامعة يصدق عليها اسم المركب النظري، وهي معلولية الرّخاء للعدالة. وهنا تقف أمام المتكلم المعاصر شبهة متشعبة الجذور؛ فمن جهة قد تنتقض هذه المقولة عكساً ببعض حالات التعايش الظاهري بين الظلم والرّخاء، ومن جهة أخرى قد يقال بأن هذه المعلولية هي بين أمرين لا سخيّة بينهما؛ إذ العدالة أمرٌ معنويٌّ بينما الرّخاء أمرٌ ماديّ. وقد يُعبر عن هذه الشبهة الثانية بأن تلك المقولة تحكّم غيبي محض لا دليل عليه. وأمّا الوجه الأوّل من الشبهة فمن السهل دفعه، وخلاصة ذلك: أنّ التعايش الظاهري وهم محض، أمّا إثباته فخارج عن هذا المجال.

### ٣/٢/٢ دفع شبهة الغيبة

يبدو أنّ الأجواء الثقافية المحيطة بصاحب النظرية ﷺ قد فرضت عليه أولوية الإجابة عن شبهة الغيبة دون غيرها، فنراه يقول: «... وهذه العلاقة ليست ذات محتوى غيبي فقط، نعم نحن نؤمن - أيضاً - بمحتواها الغيبي، ولكن إضافة إلى محتواها الغيبي الرباني هي تُشكّل سنّة من سنن التاريخ بحسب المفهوم القرآن الكريم؛ وذلك لأنّ مجتمع الظلم، لأنّ مجتمع الفراعنة على مرّ التاريخ مجتمع ممزّق مشّت...»<sup>(٣٦)</sup>.  
وقد فصل ﷺ الكلام في تحليل المجتمع الفرعوني، كما يأتي.

### ٣/٣ التحليل المعاضد للاستدلال

عندما تطرّق ﷺ إلى تحليل المجتمع الفرعوني وبيان كيفية تشوّته، يبدو أنّه قد قلّت عنده الحاجة إلى المحافظة على أولوية التركيب، فغلبت نزعة التحليلية المرتبطة بالتفسير التجزيئي على بعض مقاطع البحث.

## ٣/ ٣ / ١ المجتمع الفرعوني في ضوء القرآن الكريم

ينطلق ﷺ أولاً من عصارة استقراءه التاريخي، فيقرر: «...الفرعونية على مرّ التاريخ حينما تتحكّم في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان تستهدف تمزيق طاقات المجتمع، تشتت فئاته، بعثرة إمكاناته، ومن الواضح أنّه في تشتت وبعثرة وتفتت وتجزئة من هذا القبيل لا يمكن لأفراد المجتمع أن يحشدوا قواهم الحقيقية، وأن يجندوا كلّ بذور إبداعهم لكي تنمو نمواً طبيعياً في مجال التفاعل مع الطبيعة والسّيطرة على الطبيعة...»<sup>(٣٧)</sup>.

ثمّ يجد في القرآن الكريم مؤيداً لذلك التّقرير: «...انظروا! استمعوا إلى المثل المنخفض، إلى مجتمع الظّلم وآله مجتمع الظّلم كيف يقولون؟! أو كيف يتحدّث عنهم القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ [القصص: ٤]، فرعون المثل الأعلى المنخفض، الفرعونية على مرّ التاريخ التي تبني العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس الظّلم والاستغلال، الفرعونية تجزئ المجتمع، تبعثر إمكانات المجتمع وطاقات المجتمع، ومن هنا تهدر ما في الإنسان من قدرة على الإبداع والنمو الطبيعي على ساحة علاقات الإنسان مع الطبيعة...»<sup>(٣٨)</sup>.

إلى هنا تبدو عملية الاستنتاج سليمة تماماً من شبهة التّأويل، ولكنّ هذا النّجاح مرتين إلى حدّ كبير بمتانة الواقع المعرفي الذي يستند إليه المستنطق المفسّر، فإذا كان استقراؤه تاماً كانت نتائجه يقينية، أمّا إذا كان ناقصاً فإنّ الثّقل الأكبر في إثبات المطلوب سيقع على عاتق المفسّر التّجزئي الذي عليه أن يتجنّب الوقوع في التّأويل بمعناه الاصطلاحي التّفسيري، أي: الحمل على خلاف الظّاهر.

## ٣/ ٣ / ٢ من مزالق غلبة التّحليل

من أهمّ ما يُسببه غلبة التّحليل على التّركيب الوقوع في منزلق نظريّ يكون

منشؤه الأوّل توهم الاختلاف بين مدلولين لآيتين هما متساويان في المصداق الخارجي، وهذا ما يبدو أنّ السيّد الصدر رحمته الله قد وقع فيه عندما ميّز بين الظّالّين المستضعفين من جهة الطّائفة الأولى، والظّالّين المحرّضين من جهة ثانية (الطّائفة الثانية)<sup>(٣٩)</sup>، والحال أنّ هاتين الطّائفتين مندرجتان تحت عنوان أعوان الظّلمة الذي جاء في كلمات أهل البيت عليهم السلام، وقد أشار رحمته الله إلى هذا العنوان معتقداً أنّه لا يشمل إلاّ الطّائفة الأولى.

### ٣/٣/٣ الاستعانة بالروايات في التّركيب النظري

يعتبر بحث «الطّائفة الثالثة»<sup>(٤٠)</sup> من أهمّ الأمثلة على ضرورة استيعاب العمليّة التّركيبية للقدر الأكبر الممكن من مصادر المعرفة، وعدم اكتفائها بالمصدر الأعلى والأسمى، أي: القرآن الكريم. وقد مرّت الإشارة على لسان أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنّ استنطاق كتاب الله دون الاستعانة بالمعصوم النّاطق عملٌ عقيم: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه». لهذا فقد كان المزج بين الآيات الكريمة وكلمات المعصوم منتجاً لمفهوم متجانسٍ ومتناسكٍ.

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) يراجع في هذا المجال: كتاب الأسس النظريّة لتجديد علم الكلام، والجزء الأوّل من كتاب مجموعة دراسات كلاميّة.
- (٢) الشّهاد الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ٤١، نشر مركز الأبحاث والدراسات التّخصّصيّة للشّهاد الصّدر، قم، ١٤٢١.
- (٣) ينبغي أن يُعلم أنّ أغلب النّصوص التي نُقلت عن الشّهاد الصّدر رحمته الله في هذه المقالة كانت عبارة

- عن مجموعة محاضرات له أُفرغت في قالب الكتابة من دون إجراء تعديل عليها؛ ولذا ينبغي على القارئ أن يغفر ما يلحظه في بعض النصوص من عدم خضوعها لضابطة الكتابة.
- (٤) ويُعتبر كتاب إقتصادنا (١٩٦٨م) أول فرصة جدية لامتحان هذا المنهج الجديد.
- (٥) المدرسة القرآنية: ٢٤.
- (٦) المصدر نفسه: ٢٣، بتصرف يسير.
- (٧) المصدر نفسه: ٢٤، بتصرف يسير.
- (٨) المصدر نفسه: ٢٨.
- (٩) راجع المصدر نفسه: ٢٩-٣٠.
- (١٠) من الخطبة ١٥٨ في نهج البلاغة.
- (١١) المدرسة القرآنية: ٣٠.
- (١٢) المصدر نفسه.
- (١٣) المصدر نفسه: ٣١.
- (١٤) المصدر نفسه: ٣٤.
- (١٥) المصدر نفسه: ٣٥.
- (١٦) المصدر نفسه: ٣٩.
- (١٧) المصدر نفسه: ٣٥٦.
- (١٨) المصدر نفسه.
- (١٩) قال في المصدر نفسه: «... وقد حرصت الحضارات الغربية الحديثة على تقليص هذا التحديد - تحديد الحرية - إلى أبعد الحدود، وتوفير أكبر نصيب ممكن من الحرية لكل فرد في سلوكه الخاص، وهذا النصيب هو القدر الذي لا يتعارض مع حريات الآخرين، فلا تنتهي حرية كل فرد إلا حيث تبدأ حريات الأفراد الآخرين. وليس المهم بعد توفير هذه الحرية لجميع الأفراد طريقة استعمالها، والنتائج التي تتمخض عنها، وردود الفعل النفسية والفكرية لها، ما دام كل فرد حرّاً في تصرّفاته وسلوكه، وقادراً على تنفيذ إرادته في مجالاته الخاصة، فالمخمور - مثلاً - لا حرج عليه أن يشرب ما شاء من الخمر، ويضحّي بآخر ذرة من وعيه وإدراكه؛ لأنّ من حقّه أن يتمتّع بهذه الحرية في سلوكه الخاص، ما لم يعترض هذا المخمور طريق الآخرين، أو يصبح خطراً على حرياتهم بوجه من الوجوه...».
- (٢٠) المصدر نفسه: ٣٥٧.
- (٢١) المصدر نفسه: ٣٥٨.



(٢٢) راجع المصدر نفسه: ٣٥٩ وما بعدها.

(٢٣) المصدر نفسه: ٣٦٢.

(٢٤) ينبغي أن يلتفت القارئ الكريم على أن هذه الملاحظات ليست على أصل المطلب الذي ذكره السيد الصدر رحمته الله، وإنما هو على استفادة ذلك مما أشار إليه من الآيات.

(٢٥) المدرسة القرآنية: ١٠٥.

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) المصدر نفسه: ١٠٦.

(٢٨) المصدر نفسه: ١٠٧.

(٢٩) المصدر نفسه: ١١٠.

(٣٠) المصدر نفسه: ١١١.

(٣١) المصدر نفسه: ١١٢.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) راجع: رسالة الولاية للعلامة الطباطبائي المطبوعة في ضمن كتاب «الإنسان والعقيدة».

(٣٤) المدرسة القرآنية: ١٧١.

(٣٥) المصدر نفسه: ١٧٣.

(٣٦) المصدر نفسه: ١٧٥.

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) المقصود من الطائفة الأولى في المجتمع الفرعوني هم الظالمون المستضعفون، الذين يُعبر عنهم في لسان الأخبار بـ (أعوان الظلمة)، والذين يُشكلون الحماية لفرعون والفرعونية، وسنداً لبقائها واستمرارها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتٌ عَنْ دَرَجَتِهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٣١]. والمقصود من الطائفة الثانية هم الحاشية والمتملقون، الذين قد لا يمارسون ظلماً بأيديهم بالفعل، ولكنهم يكونون على مستوى نزوات فرعون وشهواته ورغباته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُنَا مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

(٤٠) وهم أولئك الذين عبر عنهم الإمام علي عليه السلام بـ (الهمج الرعاع)، الذين هم مجرد آلة مستسلمة للظلم، ولا تحس حتى بالظلم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلُّوا السَّبِيلَ﴾

[الأحزاب: ٦٧].

## مبدأ الهداية الربانية

معالم النظرية، خصائص المسيرة، أهم المنجزات

□ السيد منذر الحكيم (\*)

بسم الله، والحمد لله الذي أعطى كُلَّ شيءٍ خلقه ثُمَّ هدى، ثُمَّ الصَّلَاةَ  
والسَّلَامَ على من اختارهم هداةً لعباده، لا سبيلًا خاتم الأنبياء وسيد الرُّسل  
الأصفياء، أبو القاسم مُحَمَّد، وعلى آله الميامين النُّجباء.

لقد خلق الله الإنسان وزوَّده بعنصري: العقل والإرادة، فالبعقل يُبصر  
ويكتشف الحقَّ ويميّزه عن الباطل، وبالإرادة يختار ما يراه صالحاً له ومحققاً  
لأغراضه وأهدافه.

وقد جعل الله العقل حُجَّةً له على خلقه، وأعانه بما أفاض عليه من معين  
هدايته؛ فإنَّه هو الَّذي علَّمَ الإنسان ما لم يعلم<sup>(١)</sup>، وأرشده إلى طريق كماله اللائق  
به<sup>(٢)</sup>، وعرفه الغاية التي خلقه من أجلها<sup>(٣)</sup>، وجاء به إلى هذه الحياة الدُّنيا من  
أجل تحقيقها<sup>(٤)</sup>.

(\*) باحث وأستاذ في الحوزة العلميَّة / قم.

وأوضح القرآن الحكيم بنصوصه الصريحة معالم الهداية الربانية وآفاقها ومستلزماتها وطرقها، كما بين لنا عللها وأسبابها من جهة، وأسفر عن ثمارها ونتائجها من جهة أخرى. وبذلك قدّم أطروحته الكاملة فيما يخص نظرية الهداية ونظامها.

### نظرية الهداية الربانية

قال الله تعالى مبيناً حقيقة الهداية ومبدأها وطريقها ورموزها ونتائجها:

- ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].
- ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُدىً هُوَ الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].
- ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].
- ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].
- ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: ٦].
- ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [الفصص: ٥٠].
- ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

فالله تعالى هو مصدر الهداية. وهدايته هي الهداية الحقيقية، وهو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى الصراط المستقيم وإلى الحق القويم.

وهذه الحقائق يؤيّدتها العلم ويدركها العلماء ويخضعون لها بملء وجودهم. ولقد أودع الله في فطرة الإنسان النزوع إلى الكمال والجمال، ثمّ منّ عليه بإرشاده إلى الكمال اللائق به، وأسبغ عليه نعمة التعرّف على طريق الكمال، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وحيث لا تتحقّق العبادة الحقيقية من دون المعرفة، كانت المعرفة والعبادة

الطريق الأوحـد والهدف اللائق والغاية الموصلة إلى قمة الكمال. وبعد أن زوّد الله الإنسان بغريزتي (الغضب) و (الشهوة)؛ ليحقّق له وقود الحركة نحو الكمال، أصبح مهيناً لسيطرة الغضب والشهوة، والهوى النَّاشئ منهما، ومن هنا احتاج الإنسان - بالإضافة إلى نور عقله وسائر أدوات المعرفة وأنوارها - إلى ما يضمن له سلامة البصيرة والرؤية؛ كي يتسنى له الوصول المضمون إلى الهدف اللائق به، وبذلك تتمُّ عليه الحجة من خالقه حيث تكمل له نعمة الهداية، وتتوفّر لديه كلّ الأسباب التي تجعله يختار طريق الخير والسعادة، دون طريق الشرّ والشقاء وذلك بملء إرادته واختياره.

ومن هنا اقتضت سنة الهداية الربّانيّة العامّة لكلّ الكائنات أن يُسند عقل الإنسان عن طريق الوحي الإلهي، ومن خلال القنوات الأمانة المتمثلة في القادة الهداة الذين اختارهم الله لتولّي مسؤوليّة عامّة وهداية العباد؛ وذلك من خلال توفير المعرفة اللازمة وإعطاء الإرشادات التي تتطلّبها كلّ مرافق الحياة.

### مسيرة الهداية الربّانيّة وتاريخها

وقد حمل الأنبياء وأوصياؤهم المهديّون مشعل الهداية الربّانيّة منذ فجر تاريخ الإنسان وعلى مدى العصور والأجيال.

ولم يترك الله عباده مهملين دون حجة هادية وعلم مرشد ونور مضيء، كما أفصحت نصوص الوحي - مؤيِّدة لدلائل العقول - بأنّ الأرض لا تخلو من حجة لله على خلقه<sup>(٥)</sup>؛ ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ [النساء: ١٦٥]، فالحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق<sup>(٦)</sup>، ولو لم يبق في الأرض إلّا اثنان لكان أحدهما الحجة، وصرّح القرآن - بشكل لا يقبل الرّيب - قائلاً: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

### مهام القادة الهداة

ويتولّى أنبياء الله ورسله وأوصياؤهم المهديّون مهمّة الهداية بجميع مراتبها،

والتي تتلخّص فيما يلي:

١- تلقّي الوحي بشكل كامل واستيعاب الرّسالة الإلهيّة بصورة دقيقة. وهو تعبيرٌ عن الاستعداد التّام لتلقّي الرّسالة، ومن هنا يكون الاصطفاء الإلهي لرسله شأنًا من شؤونهِ، كما أفصح الذّكر الحكيم قائلاً: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، و﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٢- إبلاغ الرّسالة الإلهيّة إلى من أرسلها إليه من البشريّة، ويتوقّف الإبلاغ على الكفاءة التّامة التي هي حصيلة (الاستيعاب والإحاطة) بتفاصيل الرّسالة وأهدافها ومتطلّباتها، والعصمة عن الضّلال وتمثيل في الخطأ والانحراف معاً، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وفي صورة (ص) يقول: ﴿قَالَ فِعْرَازُكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٢] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [٨٣].

٣- تكوين أمةٍ مؤمنةٍ بالرّسالة الإلهيّة، وإعدادها لدعم القيادة الهاديّة من أجل تحقيق أهدافها وتطبيق قوانينها في الحياة، وقد صرّحت آيات الذّكر الحكيم بهذه المهمّة مستخدمةً عنواي التّزكية والتّعليم، قال تعالى: ﴿وَيُزَكِّهِمْ وَيَعْلَمُ لَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، والتّزكية هي التّربية السّليمة بأنّجاه الكمال اللاتق بالإنسان، وتتطلّب التّربية القدوة الصّالحة التي تتمتع بكلّ عناصر الكمال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

٤- صيانة الرّسالة من الزّيف والتّحريف والضّياع في الفترة المقرّرة لها، وهذه المهمّة - أيضاً - تتطلّب الكفاءة العلميّة والنّفسيّة التي تتناسب مع هذه المهمّة العظيمة.

٥- العمل لتحقيق أهداف الرّسالة المعنويّة وتثبيت القيم الأخلاقيّة في نفوس أبناء المجتمعات البشريّة؛ وذلك بتنفيذ الأطروحة الرّبانيّة، وتطبيق

قوانين الدّين الحنيف على المجتمع البشري من خلال تأسيس كيانٍ سياسيٍّ يتولّى إدارة شؤون الأُمّة على أساس الرّسالة الرّبانيّة للبشريّة، ويتطلّب التّنفيذ قيادةً حكيمةً، وشجاعةً فائقةً، وصموداً كبيراً، ومعرفةً تامّةً بالنّفوس وبطبقات المجتمع والتّيّارات الفكرية والسياسيّة والاجتماعيّة وقوانين الإدارة والتّربية وسنن الحياة، ونلخصها في الكفاءة العلميّة والعملية لإدارة دولة عالميّة دينيّة. والعصمة التي تعبّر عن الكفاءة النّفسية تصون القيادة الدّينية من كلّ سلوكٍ منحرفٍ أو عملٍ خاطئٍ بإمكانه أن يؤثّر تأثيراً سلبياً على مسيرة القيادة وانقياد الأُمّة لها بحيث يتنافى مع أهداف الرّسالة وأغراضها. فالعصمة أكثر من أركان هذه الكفاءة النّفسية.

### جهاد الأنبياء الدّامي

وقد سلك الأنبياء وأوصياؤهم المصطفون على الأجيال طريق الهداية الدّامي، واقتحموا العقبات في سبيل التّربية المطلوبة، وتحملوا كلّ صعبٍ في سبيل أداء المهامّ الرّساليّة، وقدّموا كلّ ما يمكن أن يقدّمه الإنسان المتفاني في مبدئه وعقيدته في سبيل تحقيق أهداف الرّسالات الإلهيّة، ولم يتراجعوا لحظة، ولم يتلکأوا طرفة عين.

### إنجازات سيّد المرسلين

وقد توجّ الله جهودهم وجهادهم المستمرّ على مدى العصور برسالة خاتم الأنبياء محمّد بن عبد الله ﷺ وحمله الأمانة الكبرى ومسؤوليّة الهداية بجميع مراتبها، طالباً منه تحقيق أهدافها. وقد سار الرّسول الأعظم ﷺ في هذا الطّريق الوعر خطواتٍ مدهشة، وحقق في أقصر فترةٍ زمنيّةٍ أكبر نتائجٍ ممكنٍ في حساب الدّعوات التّغيريّة والرّسالات الإلهيّة، وكانت حصيلة جهاده المبارك الدّؤوب

خلال أكثر من عشرين سنة ما يلي:

- ١ - تقديم رسالة كاملة للبشرية تحتوي على عناصر الديمومة والبقاء.
- ٢ - تزويدها بعناصر تصونها من الزيغ والانحراف.
- ٣ - تكوين أمة مسلمة تؤمن بالله رباً وبالإسلام مبدأً، وبالرَّسول قائداً، وبالشريعة قانوناً للحياة.
- ٤ - تأسيس دولة إسلامية وكيانٍ سياسيٍّ يحمل لواء الإسلام ويطبق شريعة السماء.
- ٥ - تقديم الوجه المشرق للقيادة الربَّانية الحكيمة المتمثلة في قيادته ﷺ.

### متطلبات الرسالة الخاتمة

ولتحقيق أهداف الرسالة بشكلٍ كاملٍ كان من الضروري:

- أ- أن تستمرَّ القيادة الكفوءة في تطبيق الرسالة وصيانتها من أيدي العابثين الذين يترَبَّصون بها الدَّوائر.
- ب- أن تستمرَّ عملية التربية الصحيحة باستمرار الأجيال، على يد مربِّ كفوء علمياً ونفسياً حيث يكون قدوةً حسنةً في الخلق والسلوك كالرَّسول الأعظم ﷺ، يستوعب الرسالة ويجسدها في كلِّ حركاته وسكناته.
- ومن هنا كان التخطيط الإلهي يحتمُّ على الرَّسول الخاتم ﷺ إعداد الصَّفوة من أهل بيته عليه السلام، والتَّصريح بأسمائهم وأدوارهم، لتسلَّم مقاليد الحركة النبوية العظيمة والهداية الربَّانية بأمرٍ من الله سبحانه، وصيانة الرسالة الإلهية - التي كتب الله لها الخلود - من تحريف الضَّالِّين وكيد الخائنين، وتربية الأجيال على قيم الله ومفاهيم الشريعة المباركة التي تولَّوا تبين معالمها وكشف أسرارها وذخائرها للبشرية على مرَّ العصور، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.
- وتجلى هذا التخطيط الربَّاني في ما نصَّ عليه الرَّسول ﷺ بقوله: «إني تارك

فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي، وإنما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»<sup>(٧)</sup>.

وكان أئمة أهل البيت - صلوات الله عليهم أجمعين - هم العترة، وهم خير من عرفهم النبي الأكرم ﷺ بأمر من الله تعالى؛ وذلك لقيادة الأمة من بعده، وكانت سيرة الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليه السلام تمثل المسيرة الواقعية للإسلام بعد عصر الرسول ﷺ.

ودراسة حياتهم بشكل تفصيلي مستوعب تكشف لنا صورة شاملة لحركة الإسلام المحمدي الذي أخذ يشق طريقه إلى أعماق الأمة رغم مضاعفات فقدان الرسول الأعظم ﷺ، فأخذ الأئمة المعصومون عليه السلام - رغم محاولات تغييبهم وإبعادهم عن الساحة - يعملون على توعية الأمة وتفجير طاقاتها بأنحاء تصعيد الوعي الرسالي عندها بالنسبة للشريعة ولحركة الرسول ﷺ وثورته الربانية المباركة، غير خارجين عن مسار الشئ الكونية التي تتحكم في سلوك المجتمعات الإنسانية جمعاء.

وتبلورت حياة الأئمة الراشدين في الثبات على نهج الرسول العظيم ﷺ وانفتاح الأمة عليهم بالتدريج - رغم كل الألغام والعقبات التي زرعت في هذا الطريق - والتفاعل معهم كأعلام للهداية ومصابيح تنير الدرب للسالكين طريق الحق المؤمنين بقيادتهم، فكانوا هم الأدلاء على الله وعلى مرضاته، والمستقرين في أمر الله، والتأمين في محبته، والذائين في الشوق إليه، والسابقين إلى تسلق قمم الكمال الإنساني المنشود.

وقد حفلت حياتهم بأنواع الجهاد والصبر على طاعة الله وتحمل جفاء أهل الجفاء بهم حتى ضربوا أعلى أمثلة الصمود والتضحية لتنفيذ أحكام الله تعالى، ثم اختاروا الشهادة مع العز على الحياة مع الذل، حتى فازوا بقاء الله سبحانه بعد كفاح عظيم وجهاد كبير.



ولا يستطيع المؤرخون والكتّاب أن يلمّوا بجميع زوايا حياتهم العطرة بعد محاولات التّغيب، ولم يدع أحدٌ دراستها بشكلٍ كاملٍ، ومن هنا فإنَّ كُلَّ محاولةٍ يحاوله المرءُ مهما أُوتي من علمٍ، إنّما هي مجرد إعطاء قبساتٍ من حياتهم، وومضاتٍ من سيرتهم وسلوكهم، ولقطاتٍ من مواقفهم، وأبداءً ودائماً لن تكون دراسةً وافيةً بكُلِّ أبعادهم ومجادهم وأدوارهم.

ومن هذا المنطلق فإنَّ دراستنا لحركة أهل البيت عليهم السلام الرّساليّة في موسوعة أعلام الهداية التي توزّعت في أربعة عشر جزءاً لأربعة عشرة معصوماً تبدأ برسول الإسلام وخاتم الأنبياء محمّد بن عبد الله عليه السلام، وتنتهي بخاتم الأوصياء، محمّد بن الحسن العسكري المهديّ المنتظر عجل الله فرجه، وأثار الأرض بعدله وقسطه، إنّ دراستنا تلك ليست إلّا محاولة لتقديم نظرة شموليّة قدر المستطاع، عسى الله أن ينفع بها من يشاء أن ينتفع إنّهُ وليّ التوفيق.

والمنهج المشترك في دارسة حياة كُلِّ منهم هو الاهتمام بسيرته الرّساليّة الفرديّة والاجتماعيّة، والوقوف على ملامح عصره ومتطلّبات مرحلته، والانجازات التي تحقّقت ببركة قيادته، وتقديم نماذج من تراثه.

وقد تصدّى المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام لإخراج هذه الموسوعة إلى عالم النُّور، وحرص على عرضها بشكلٍ لائقٍ؛ فكانت نموذجاً ونبراساً للدراسة العلميّة على أساس المنهج التّرابطي<sup>(٨)</sup> على هدي القرآن الكريم ومصادر المعرفة التّاريخيّة التي تعتبر خزيناً علمياً رائعاً بالرّغم من تجاهل كثيرٍ منها ما جرى على الرّسالة وقادتها الميامين، وذلك بعد أن ساعدت الطُّروف النّفسية والثقافيّة في عصرنا هذا للوقوف على الحقائق رغم مرارتها، والصّبر عليها كما هو منهج القرآن الكريم في الدّعوة إلى التّواصي بالحقّ والتّواصي بالصّبر.

## الهوامش:

- (١) العلق: ٥.
- (٢) الفاتحة: ٦ - ٧.
- (٣) النجم: ٤٢، والذاريات: ٥٦.
- (٤) الملك: ٢.
- (٥) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي ١: ١٧٨، باب إنَّ الأرض لا تخلو من حجّة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط. الخامسة ١٣٦٣ هـ. ش، دار الكتب الإسلامية.
- (٦) الصّفار، محمد بن الحسن: بصائر الدّرجات: ٥٠٧، الحديث الثّاني، تصحيح الحاج ميرزا حسن، منشورات الأعلمي، طهران ١٤٠٤.
- (٧) بصائر الدّرجات: ٤٣٣، الحديث الثّالث، تصحيح الحاج ميرزا حسن، منشورات الأعلمي، طهران ١٤٠٤، مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٤ و ١٧، دار صادر، بيروت لبنان، المستدرك للحاكم النّيسابوري ٣: ١٤٨، إشراف يوسف عبد الرّحمن المرعشي. وقد ورد هذا الحديث في كتب الفريقين بتفاوت في اللفظ وبطرق مختلفة.
- (٨) المنهج التّرابطي في قبال المنهج التّجزئي وهو الذي مارسه أستاذنا الشّهيد السّعيد آية الله العظمى السيّد محمّد باقر الصّدر رحمته الله في تناوله حياة أهل البيت عليهم السلام بالدراسة والتحليل. انظر محاضراته في ما طبع تحت عنوان: أهل البيت عليهم السلام تنوع أدوار ووحدة هدف، وقد شكّلت الدّراسات التي استضاءت بنور هذا المنهج من قبل تلامذته والسّائرين على نهجه موسوعة عظيمة تستحقُّ أن تكون تعبيراً عن مدرسة متميّزة في دراسة التّاريخ الإسلامي ولا سيّما تاريخ أهل البيت عليهم السلام.

## مفهوم الإحباط

على ضوء القرآن الكريم

□ الشيخ خالد الغفوري (\*)

تَجَنَّبْ

الإحباط اصطلاحٌ كلاميٌّ، وهو إجمالاً عبارةٌ عن إبطال المعصية الطّاعة، أو إبطال عقاب المعصية ثواب الطّاعة.

ويُتصوّر على وجهين: فإمّا أن يُسقط الثّاني تمام الأوّل مطلقاً ويبقى هو على حاله، وهو المسمّى بالإحباط المحض، وقد نُسب إلى أبي علي الجبائي، وإمّا أن يسقط الأوّل ويسقط بمقداره من الأكثر ويبقى الزّائد، كمن كان له - مثلاً - مائة جزءٍ من العقاب واكتسب ألف جزءٍ من الثّواب؛ فإنّه يسقط عنه العقاب ومائة جزءٍ من الثّواب بمقابلته، ويبقى له تسعمائة جزءٍ من الثّواب، وكذا العكس، وهذا هو المسمّى بالموازنة ومنسوب إلى ابنه أبي هاشم<sup>(١)</sup>.

وهو على عكس التّكفير الذي هو في اصطلاح أهل الكلام إبطال ثواب الطّاعة عقاب المعصية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقد يعبرُ عن كليهما بالإحباط<sup>(٢)</sup>.

وقد ورد الإحباط في نصوصٍ قرآنيّةٍ عديدة، اخترنا أحدها، وهو قوله

(\*) رئيس تحرير مجلّة فقه أهل البيت عليه السلام.

تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

### البيان الإجمالي:

وليعلم أن صدر هذه الآية يرتبط ببيان بعض أحكام القتال، وتحليل موقف الكفار من مقاتلة المؤمنين، وأنهم يستهدفون تراجع المؤمنين عن دينهم، ثم حذرت الآية من الانجرار وراء هؤلاء، فهددت المرتد الذي يبقى مرتداً حتى الموت - أي لم يتب - بحبط العمل في الدارين وبالخلود في النار، فأولئك صارت أعمالهم باطلة كأن لم تكن، ولم ينتفعوا بها في الدنيا والآخرة.

### حقيقة الإحباط:

في بيان حقيقة الإحباط ثمة احتمالات:

الاحتمال الأول: أنه إبطال العمل من خلال إيجاد سبب الإبطال بارتكاب بعض المعاصي، فهو إبطال حقيقي للعمل المأتي به سابقاً صحيحاً بحيث ينقلب باطلاً.

وهل هذا النحو من الإبطال ممكن عقلاً أولاً؟ في ذلك انجهاان:

الانجها الأول: كون ذلك مستحيلاً؛ لأن الشيء الواقع لا يمكن أن ينقلب عما وقع عليه، ويستحيل أن تتبدل حقيقته<sup>(٣)</sup>. وهذا هو المشهور عند الإمامية والمعتزلة<sup>(٤)</sup>.

ومن الواضح أنه لا مناص لهؤلاء من تأويل النصوص المصرح بها بالإحباط كتاباً وسنة.

الانجها الثاني: إمكان ذلك، وذلك بأن يكون العمل كالصلاة - مثلاً - مشروطاً بعدم ارتكاب بعض المعاصي ولو متأخراً وبعد العمل، فيكون العمل

مشروطاً بعدم حقوق المعصية بنحو الشرط المتأخر، وإلا بطل ولزمت آثار بطلانه من الإعادة أو القضاء وغيرهما، فيكون نظير أخذ الشرط المتأخر في متعلقات الأحكام - بناء على القول بإمكانه كما حُقق في علم أصول الفقه -؛ وعليه فالإحباط بمعنى الإبطال الحقيقي ممكنٌ ثبوتاً.

قال المحقق الأردبيلي: «يمكن أن يقال: لا استبعاد فيما نحن فيه أن يستحق الإنسان ثواباً ويكون وصوله إليه موقوفاً على عدم صدور منافيه منه من الردة، أو يكون البقاء على الإيمان شرطاً لاستمراره وانتفاعه به، ويكون الإحباط عبارة عن عدم ذلك»<sup>(٥)</sup>.

أي إن القضية الشرطية يمكن تصويرها بنحوين:  
الأول: اشتراط صحة العمل أو ثوابه بعدم الردة مثلاً.  
الثاني: اشتراط ذلك بالبقاء على الإيمان.

أجل، ربّما يفتح البحث في ورود الدليل عليه إثباتاً، لذا فهنا نظريتان:  
النظرية الأولى: القائلة بورود الدليل على الإحباط الحقيقي ولو بالنسبة إلى بعض الأعمال، قال المحقق الأردبيلي: «لا شك في إحباط الكفر للإيمان وبالعكس، وهو صريح القرآن والأخبار، ونُقل عليه الإجماع، بل يوجد الإحباط مطلقاً فيهما»<sup>(٦)</sup>.

وقال أيضاً: «وبالجملة: الأخبار والآيات متظافرة متكاثرّة في وقوع الإحباط، فإنكاره لا يمكن»<sup>(٧)</sup>.

وبعد أن ناقش بعض التأويلات للإحباط قال: «وأيضاً إنّه - أي التأويل المزبور - ما يجري فيما إذا كان إحباط بعض الأعمال البدنيّة بالبعض، مثل أن شرب الخمر يحبط كذا وكذا، والزنا كذا وكذا، وأن الصلاة تُكفر ذنب كذا وكذا، والحج كذا وكذا، وغير ذلك ممّا لا يحصى»<sup>(٨)</sup>.

وبناء على إمكان الإحباط ثبوتاً ووقوعه في القرآن - وفي السنة أيضاً - تثار

عدّة بحوث كلاميّة لا تخلو بعضها من الارتباط بالموقف العملي والفقهّي:  
**البحث الأوّل:** في بقاء أعمال المرتدّ إلى حين الموت والحبط عنده وعدمه،  
 وفيه رأيان:

**الأوّل:** أنّ أعمال المرتدّ السابقة على ردّته باقية إلى حين الموت، فإنّ لم يرجع إلى الإيمان بطلت بالحبط عند ذلك، أي: أنّها تبقى موقوفة ومعلّقة إلى زمان الموت، فإنّ مات على كفره ذهبت أعماله هباءً منثوراً، وإنّ تاب تُعاد إليه أعماله، ونسبه الجرجاني إلى محقّقي الأصحاب<sup>(٩)</sup>، واستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ فإنّها اشترطت الحبط بالموت على الكفر، ويؤيّدُه قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] ونحو ذلك ممّا دلّ على المجازاة بالعمل، خرج عنه من وافاه كافراً وبقي الآخر تحت العموم<sup>(١٠)</sup>.

وربّما أيّد بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ فإنّ الآية تبينّ حال الكفّار عند الموت، وإلّا لو رجعوا إلى الإيمان أُعيدت لهم أعمالهم الصّالحة السابقة على الارتداد<sup>(١١)</sup>.

وأجيب عن الاستدلال بأنّ الآية إنّما أخذت قيد الموت؛ لكونها في مقام بيان جميع أعماله وأفعاله التي عملها في الدُّنيا، فزمان الموت هو الزّمان الذي يكون فيه الإنسان مهتماً بمعرفة مصيره وحصيلة أعماله<sup>(١٢)</sup>، وليست هي مسوقة لبيان الاشتراط بالموافاة على الكفر.

**الثّاني:** إنّ الرّدّة تحبط الأعمال من أصلها، فلا تعود إليه وإنّ آمن بعد الارتداد، نعم له ما عمله من الأعمال بعد الإيمان ثانياً إلى حين الموت. ونُسب إلى أبي حنيفة<sup>(١٣)</sup>.

**البحث الثّاني:** في وقت استحقاق الجزاء ومحله، واختلفوا فيه على أقوال،

فبين قائل: إنه وقت العمل؛ فيتحقق الإحباط حين الارتداد، وبين قائل: منها: حين الموت، وبين قائل: في الآخرة. وقيل غير ذلك<sup>(١٤)</sup>.

البحث الثالث: إن الأعمال هل يبطل بعضها بعضاً أو لا تبطل، بل للحسنة حكمها وللسيئة حكمها؟

وهذه المسألة قد تسمى التحابط، أي: يكون هناك إحباط جزئي وليس مطلقاً للأعمال كافة كما هو الشأن في الارتداد، وأحياناً يبحث ضمنها عن مقابلها وهي ما يسمى بالتكفير، أي: تكفير الحسنات للسيئات، أي: يكون هناك كسر وانكسار بين الأعمال الصالحة والسيئة إجمالاً.

قال التفتازاني: «لا خلاف في أن من آمن بعد الكفر والمعاصي فهو من أهل الجنة بمنزلة من لا معصية له، ومن كفر بعد الإيمان والعمل الصالح فهو من أهل النار بمنزلة من لا حسنة له، وإنما الكلام فيمن آمن وعمل صالحاً وآخر سيئاً واستمر على الطاعات والكبائر كما يشاهد من الناس، فعندنا ماله إلى الجنة ولو بعد النار، واستحقاقه للثواب والعقاب بمقتضى الوعد والوعيد ثابت من غير حبوط، والمشهور من مذهب المعتزلة أنه من أهل الخلود في النار إذا مات قبل التوبة، فأشكل عليهم الأمر في إيمانه وطاعته وما ثبت من استحقاقاته أين طارت وكيف زالت؟! فقالوا بحبوط الطاعات، ومالوا إلى أن السيئات يذهبن الحسنات، حتى ذهب الجمهور منهم إلى أن الكبيرة الواحدة [من غير توبة] تحبط ثواب جميع العبادات»<sup>(١٥)</sup>.

إذن ففي المسألة رأيان:

الرأي الأول: القول بعدم التحابط، وهو المنسوب إلى مشهور الإمامية والمعتزلة، قال الشيخ الطوسي: «لا تحابط عندنا بين الطاعة والمعصية، ولا بين المستحق عليهما من ثواب وعقاب، ومتى ثبت استحقاق الثواب فإنه لا يزيله شيء من الأشياء، والعقاب إذا ثبت استحقاقه فلا يزيله شيء من الأشياء عندنا

إِلَّا التَّفَضُّلُ، ومن خالفنا يقول: الثَّوَابُ يزول بالنَّدَم على الطَّاعَةِ وبعقوبة كثيرة يوفي على الثَّوَابِ، والعقاب يزول بالتَّفَضُّل وبالنَّدَم الذي هو التَّوْبَةُ وبكِبَرِ الطَّاعَةِ إذا زاد ثوابها على العقاب الحاصل<sup>(١٦)</sup>.

واستدلَّ على بطلان التَّحَابُطِ بما يلي:

١. أَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الظُّلْمَ؛ لِأَنَّ مِنْ أَسَاءٍ وَأَطَاعٍ وَكَانَتْ إِسَاءَتُهُ أَكْثَرَ يَكُونُ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ لَمْ يَحْسُنْ، وَإِنْ كَانَ إِحْسَانُهُ أَكْثَرَ يَكُونُ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ لَمْ يَسِءْ، وَإِنْ تَسَاوَيَا يَكُونُ مَسَاوِيًّا لَمْ يَصْدَرْ عَنْهُ أَحَدُهُمَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ<sup>(١٧)</sup>.

٢. مَخَالَفَتُهُ لآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] بضميمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]. وأيضاً بقوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونا عَنْ أَزْوَاجِهِمْ مَا ظَلَمُوا لَكُمْ لَمَلًا وَآخَرًا سِيتَأْتِي عَنْ رَبِّكَ أَلَبَّةٌ أَمَّا يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ ظَاهِرَةٌ فِي اخْتِلَافِ الْأَعْمَالِ وَبِقَائِهَا عَلَى حَالِهَا إِلَى أَنْ تَلْحَقَهَا تَوْبَةٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ يَنَافِي التَّحَابُطَ بِأَيِّ وَجْهِ تَصَوَّرُوهُ<sup>(١٨)</sup>.

ثُمَّ إِنَّ الْقَائِلِينَ بِبُطْلَانِ الْإِحْبَاطِ أَوَّلُوا هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالُوا: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الثَّوَابُ إِذَا لَمْ يَلْحَقْهُ سَيِّئَةٌ، فَبِالْحَقِيقَةِ لِحُوقِ الثَّوَابِ بِعَمَلٍ مُشْرُوطٍ عَلَى نَحْوِ الشَّرْطِ الْمَتَأَخَّرِ بَعْدَ لِحُوقِ سَيِّئَةٍ أَوْ عِقَابِهَا بِهِ، فَلَوْ لَحَقَهَا لَمْ يَقَعْ الْعَمَلُ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ ثَوَابٌ فِي الْحَالِ، فَلَمْ يَكُنْ اسْتِحْقَاقٌ لِلثَّوَابِ حَتَّى يُجْبَطَ، وَهَذَا الْمَنْهَجُ فِي التَّأْوِيلِ سَلَكَهُ الشَّيْخُ الطُّوسِي فِي التَّبْيَانِ<sup>(١٩)</sup> فِي غَيْرِ مُورَدٍ مِنْ آيَاتِ الْإِحْبَاطِ وَكَذَا غَيْرُهُ<sup>(٢٠)</sup>، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا... فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٥] هُوَ بَطْلَانُ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ



الواقعة حين الكفر والارتداد لا قبلها<sup>(٢١)</sup>، فلا إحباط ولا تكفير بالمعنى المصطلح<sup>(٢٢)</sup>.

الرأي الثاني: القول بالتحباط، وهذا هو الظاهر من بعض فقهاء الإمامية، فالتزم هذا البعض بالإحباط بمعناه المصطلح.

قال المحدث البحراني في مطاعن الأصوليين: «[و] قولهم بنفي الإحباط في العمل تعويلاً على ما ذكره في محله من مقدمات لا تفيد ظناً فضلاً عن العلم، و... مع وجود الدلائل من الكتاب والسنة على أن الإحباط الذي هو الموازنة بين الأعمال وإسقاط المتقابلين وإبقاء الرجحان حق لا شك فيه ولا ريب يعتريه»<sup>(٢٣)</sup>.

وصرح المجلسي بوهن الأدلة التي أقاموها على بطلان الإحباط<sup>(٢٤)</sup>.  
البحث الرابع: قد نسب إلى بعض الفقهاء<sup>(٢٥)</sup> أن الصغيرة لا تطلق على الذنب إلا على مذهب القائلين بالإحباط على تقدير الموازنة بين الأعمال الصالحة والطالحة؛ استشهداً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا﴾ [هود: ١٦]، فيجعل الذنب الذي يُحِبَط بالطاعة صغيرة، والذنب الذي يُحِبَط بالطاعة كبيرة. وأجيب عنه:

أولاً: ببطلان المبنى - وهو القول بالإحباط بهذا المعنى - عند مشهور الإمامية<sup>(٢٦)</sup>، أو أكثرهم<sup>(٢٧)</sup>.

وثانياً: بصحة تقسيم الذنب إلى الصغيرة والكبيرة حتى عند القائلين ببطلانه؛ لأمكان جعلها إضافية بالنسبة إلى ذنب آخر، أو مخصوصة بذنوب معينة، وهو ما عدا الكبائر المحصورة في الكتاب والسنة كما هو مذهب الأكثر<sup>(٢٨)</sup>، فالتسمية بالصغيرة والكبيرة مسألة اصطلاح.

وثالثاً: بأن القائل بالإحباط يعتبر الأكثر من الطاعة والمعصية، فيثبت أجمع،

أو يثبت ما زاد عن مقابله من أي نوع من أنواع المعاصي، فربما كانت المعصية المخصوصة على هذا ممّا يحبط عن شخصٍ ويبقى على آخر بالنظر إلى ما يقابلها من الطاعة، فلا تتحقّق الصّغيرة في نوع من أنواع المعاصي<sup>(٢٩)</sup>.

**النّظرية الثانية:** القائلة بعدم ورود الدّليل على الإحباط الحقيقي مطلقاً. ثمّ إنّ القائلين باستحالة الإحباط الحقيقي أو إمكانه وعدم ثبوت الدّليل عليه حاولوا تأويل الآيات التي ورد فيها لفظ الإحباط وشبّهه بعدّة تأويلات وحملوها على محامل مختلفة صارت مورداً للنقض والإبرام.

**الاحتمال الثاني:** أنّه إبطال الأجر والثّواب<sup>(٣٠)</sup>، وليس بطلان العمل ولا آثاره شرعيّة كانت أو غيرها دنيويّة أو أخرويّة فالإحباط، ليس حقيقياً، وهذا وإن كان لا ريب في إمكانه، ولكن وقع البحث في دلالة الدّليل عليه.

**الاحتمال الثالث:** إبطال الأثر المطلوب من العمل الصّالح وسقوطه، وهو السّعادة الدّنيويّة والأخرويّة، وأيضاً لا شكّ في إمكان ذلك<sup>(٣١)</sup>.

**الاحتمال الرّابع:** وهو مستفاد من كلمات بعض، وحاصله: أنّ حبط العمل هو بطلانه؛ لكونه واقعاً من أوّل الأمر على وجه لا يستحقّ عليه الثّواب، لا أنّ الثّواب الثّابت يبطل ويزول بسبب بعض المعاصي<sup>(٣٢)</sup>.

وتحليل ذلك: إنّ وقوع الفعل على وجه يستحقّ فاعله الثّواب والمدح لا يكون إلّا بإتيانه على الوجه المأمور به شرعاً؛ أي: الإتيان به مع جميع الشّرائط المعترية في صحّته حين الفعل، ومن شرائط الصّحّة هو عدم لحوقه بالارتداد. ونوقش بعدّة مناقشات:

منها: استبعاد هذا التّفسير في جميع الصّور التي أطلق عليه الإحباط. ومنها: أنّه من المعلوم أنّ عدم الارتداد فيما بعد ليس من شرائط صحّة الفعل حين إيقاعه<sup>(٣٣)</sup>، كما ذكره القاضي<sup>(٣٤)</sup>، بل مطلقاً عند أكثر الإماميّة<sup>(٣٥)</sup>.

ومنها: أنّه يقتضي عدم التّوقّف على التّوبة؛ لأنّ ما وقع لا يتبدّل عمّا وقع

عليه.

ومنها: عدم جريان هذا التأويل فيما إذا كان إحباط بعض الأعمال البدنية بالبعض، مثل أن شرب الخمر يحبط كذا وكذا وأن الصلاة تكفر ذنب كذا<sup>(٣٦)</sup>. وهذا ما يصطلح عليه بالتحباط والتكفير.

فبناء على الاحتمال الأول يكون المراد بإحباط العمل في الآية هو بطلانه حقيقة، وحينئذ لا بد من ترتيب الآثار من الإعادة أو القضاء ونحوهما. وتحقق الإحباط له فرضيتان:

الفرضية الأولى: اختصاص تحقق الإحباط وبطلان العمل بسبب الارتداد عن الإسلام، كما هو مورد الآية، فيجب على المرتد أن يعيد ويقضي جميع عباداته لا خصوص ما كان زمان الردة، بل يستأنف أعماله من جديد.

الفرضية الثانية: شمول ذلك لبعض المعاصي التي ورد عليها الدليل. وتفصيل ذلك موكول إلى الأبحاث العقائدية والروائية، فلترجع في مظانها. وأما بناء على الاحتمالين الثاني والثالث فلا يبطل العمل بسبب ارتكاب معصية الارتداد، إلا أنه لا يترتب عليه أجر ولا ثواب، أو لا يترتب عليه السعادة الدنيوية والأخروية، وهذا ليس أثراً فقهياً، كما هو واضح.

#### في إطلاق الإحباط أو تقييده:

القول الأول: كون الإحباط مقيّد بالموت على الارتداد، ونُسب إلى الشافعي<sup>(٣٧)</sup> واختاره آخرون<sup>(٣٨)</sup>، وهو مفاد مفهوم النص<sup>(٣٩)</sup>، وهو المعبر عنه بالموافاة على الكفر<sup>(٤٠)</sup>.

القول الثاني: كون الإحباط بالردة مطلقاً وإن رجع مسلماً، وهو المنسوب إلى أبي حنيفة<sup>(٤١)</sup>.

ونوقش بأنه خلاف ظاهر الآية<sup>(٤٢)</sup>.

### تحديد دائرة الإحباط:

المتصور بدواً أنَّ الإحباط يطل العبادات دون غيرها، لكن هناك من ذهب - بناء على تفسير الإحباط بالاحتمال الثالث - إلى أنَّ الإحباط يتعلّق بمطلق الأفعال التي يريد الإنسان بها السَّعادة، لا خصوص الأعمال العبادية والأفعال القريبة<sup>(٤٣)</sup>.

وقد دعم رأيه هذا بأنَّ الحبط ورد في القرآن في مورد الذين ليس لهم عملٌ عباديٌّ ولا فعلٌ قربيٌّ كالكفار والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِنُصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرَكُمْ وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ (٨) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَيْهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿ [محمد: ٧ - ٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتِ اللَّهَ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿ [آل عمران: ٢١ - ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات.

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) انظر: كشف المراد (الحلي): ٤٣٩، تحقيق الزنجاني، الطبعة الرابعة ١٣٧٣ ش، انتشارات شكوري، قم. شرح المقاصد (التفتازاني) ٢: ٢٣١، الطبعة الأولى ١٤٠١، نشر- دار المعارف النعماني، باكستان. قواعد المرام (ابن ميثم البحراني): ١٦٤، تحقيق السيّد أحمد الحسيني، الطبعة الثانية ١٤٠٦، نشر مكتبة المرعشي، قم. البحار (المجلسي) ٦٨: ١٩٧، الطبعة الثالثة المصححة ١٤٠٣، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليه السلام ٦: ٩.
- (٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (القرطبي) ٦: ٨٠، الهامش رقم (١)، ومن هنا حمل الإحباط على إحباط أجر العمل وثوابه.
- (٤) زبدة البيان (الأردبيلي): ٣٠٥، تحقيق محمد باقر البهودي، نشر المكتبة المرتضوية، طهران. بحار

- الأنوار (المجلسي) ٥: ٣٣٤. العناوين (المراغي) ١: ٥٥٢. جواهر الكلام (النجفي) ٤١: ٢٩. شرح المقاصد (التفتازاني) ٥: ١٤٣. ونُسب للفخر الرازي أيضاً.
- (٥) زبدة البيان (الأردبيلي): ٣٠٥.
- (٦) زبدة البيان (الأردبيلي): ١٩٠.
- (٧) زبدة البيان (الأردبيلي): ٣٠٥.
- (٨) زبدة البيان (الأردبيلي): ٣٠٥.
- (٩) آيات الأحكام (الجرجاني) ٢: ٢٨.
- (١٠) قلائد الدرر (الجزائري): ١٧١.
- (١١) انظر: قلائد الدرر (الجزائري): ١٧٠.
- (١٢) انظر: الميزان في تفسير القرآن (الطباطبائي) ٢: ١٦٩، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.
- (١٣) قلائد الدرر (الجزائري): ١٧١.
- (١٤) الميزان (الطباطبائي) ٢: ١٧٠ - ١٧١.
- (١٥) شرح المقاصد (التفتازاني) ٥: ١٤٢.
- (١٦) الاقتصاد: ١١٧، نشر مكتب جامع جهلستون، طهران ١٤٠٤.
- (١٧) كشف المراد: ٤١٣.
- (١٨) مجمع البيان ٥ - ٦: ١٠٠. الميزان ٢: ١٧٠.
- (١٩) التبيان ٥: ٤٦٠، ٩: ٤٤، تحقيق: أحمد حبيب قصير، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٩، قم.
- (٢٠) الغنية ٢: ٢٣٩. كشف المراد: ٤١٢.
- (٢١) جواهر الكلام ١٧: ٣٠٣، تحقيق: الشيخ عباس القوشاني، الطبعة الثانية ١٣٦٥ ش، نشر- دار الكتب الإسلامية طهران.
- (٢٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليه السلام ٦: ١٣.
- (٢٣) البحراني، الحقائق الناضرة ١: ١٢٦، نشر جماعة المدرسين.
- (٢٤) المجلسي، بحار الأنوار ٥: ٣٣٣.
- (٢٥) انظر: الشرائع ٤: ١٢٧، المسالك ١٤: ١٧٠، جواهر الكلام ٤١: ٢٩.
- (٢٦) جواهر الكلام ٤١: ٢٩.
- (٢٧) البحار ٧١: ١٩٨.

- (٢٨) المسالك ١٤: ١٧١.
- (٢٩) المسالك ١٤: ١٧١، جواهر الكلام ٤١: ٣٠.
- (٣٠) أحكام القرآن (الخصاص) ١: ٦٢٣، الجامع لأحكام القرآن (القرطبي) ٦: ٢٨٠.
- (٣١) انظر: الاقتصاد (الطوسي): ١٢١ - ١٢٢، مستند العروة الوثقى، الصلاة (الخوئي) ٣: ٤٤ - ٤٩.
- (٣٢) انظر: مجمع البيان (الطبرسي) ٢: ٢٣٢.
- (٣٣) أجل: ذهب بعض إلى بطلان الحج بالردة. انظر: المبسوط (الطوسي) ١: ٣٠٥، الخلاف (الطوسي) ٢: ٤٣٤. وقد تعرض للنقد والرد. انظر: المختلف (العلامة الحلي): ٢٥٧.
- (٣٤) أنوار التنزيل ١: ١١٥.
- (٣٥) زبدة البيان (الأردبيلي): ٣٩١.
- (٣٦) انظر: زبدة البيان (الأردبيلي): ٣٩١.
- (٣٧) الكشف (الزنجشيري) ١: ٢٥٩.
- (٣٨) قلائد الدرر (الجزائري): ١٧٠.
- (٣٩) زبدة البيان (الأردبيلي): ٣٩٢.
- (٤٠) جواهر الكلام (النجفي) ٤١: ٢٩.
- (٤١) الكشف (الزنجشيري) ١: ٢٥٨، مجمع البيان (الطبرسي) ٢: ٣١٢.
- (٤٢) زبدة البيان (الأردبيلي): ٣٩٢.
- (٤٣) الميزان (الطباطبائي) ٢: ١٦٨ - ١٦٩.

## تنزيه القرآن

لنبي الله هارون عليه السلام

(شبهة وجواب)

□ بقلم: رئيس التحرير

كانت قد وصلتنا رسائل كثيرة من قرائنا الأعزاء، متنوعة بين شكرٍ وتقدير، وطلبٍ لبعض الاحتياجات الثقافية، وأسئلةٍ عجز المرسل عن الإهتمام إلى جوابٍ لها، ومشاركاتٍ قدّمها بعض الأفاضل من قراء المجلة الدّوّيين، و... ولكثرتها وأهميتها أرتأت هيئة التحرير أن تُفرغ مكاناً في كلّ عددٍ من أعدادها للجواب عن بعض الشُّبهات التي تواجه القراء الكرام، وكان هذا العدد هو البداية في هذا المشوار.

### نصُّ الشُّبهة

إلى أسرة تحرير مجلة رسالة الثقلين:

عندما كنت أقلب بعض المحطّات الفضائية استقرّ بي المطاف على قناة تبشيرية، قد لفت سمعي فيها ما يقوله المتكلّم، وهو رجلٌ متزيّ بزيّ لباس الدّين المسيحيّ، وعلى ما يظهر من لكنته أنّه من مسيحيّ جمهورية مصر العربية.

وقد كان محور كلامه حول المؤاخذات الواضحة على القرآن الكريم، وكان من جملتها أن القرآن يوجّه تهمةً صريحةً لنبيّ الله هارون عليه السلام؛ حيث يصفه القرآن بأنّه عبّد العجل في غيبة موسى عليه السلام، وقد استند المتكلّم في توجيه هذه التّهمة إلى القرآن إلى آياتٍ منه، لا أحفظها، وجعل ذلك من أوضح الواضحات على بطلان القرآن، وأنّه ليس من عند الله.

وقد تذاكرت هذا الأمر مع بعض أصدقائي، ولم نستطع أن نصل إلى حقيقة الأمر؛ لقلة الكتب المتوفرة لدينا، وعدم وجود من يُرشدنا إلى الحقيقة. فما كان منّي - بعد أن كان قد وقع في يدي العدد الثالث والخمسين من مجلّتك المباركة - إلّا أن أراسلكم عبر بريدكم الإلكتروني، علّني أجد الجواب الشّافي عندكم، والله هو الموفّق.

أخوكم أحمد من أستراليا

#### جواب المجلّة:

في مستهلّ كلامي بودي أن أشكر الأخ الفاضل على ثقته بمجلّته «رسالة الثّقيلين»، وأقف هنيهةً مادحاً له لحرصه على التّعلّم والوصول إلى الحقيقة في زمنٍ قلّ فيه طلابها.

الشُّبهة التي سمعها الأخ الفاضل من القناة الفضائيّة ليست بالشُّبهة الجديدة، بل هي شبهةٌ قد طُرحت من قبل، فقد ذُكرت لأول مرّة في كتاب «ثمرة الأمان» المطبوع بالمطبعة الإنكليزيّة الأمريكيّة ببولاك مصر سنة ١٩١١م، الذي يدور محوره حول قصّة اعتداء رجلٍ مسلمٍ يُسمّى بكامل العيتاني.

ولا أريد أن أنسب هذه الشُّبهة إلى المسيحيّين إخواننا في الإنسانيّة؛ فإنّ علماءهم أجلّ من أن يتّخذوا الافتراء وسيلةً لترويج مقاصدهم، كيف؟! وقد



ورد في إنجيل يوحنا في سياق الحديث عن إبليس اللعين: «متى تكلم بالكذب فإننا يتكلم بما له؛ لأنه كذاب وأبو الكذاب. وأما أنا فلائي أقول الحق لستم تؤمنون بي»<sup>(١)</sup>.

وإنما تكمن وراءها الأيدي الخفية للاستعمار في زمن إثارها في كتاب ثمرة الأمان، كما يشهد لذلك طبعه وترويجه من قبل مطبعة تابعة لهم.

وإعادة طرح ذلك على بعض الفضائيات المشبوهة في حاضرتنا، ليس إلا محاولة أخرى لإيجاد التفرقة بين أتباع الديانات السماوية؛ لأن الاستعمار بصورة المتعددة من الديمقراطية والحرية ومحاربة الإرهاب، لا يقتات إلا على فتات موائد التفرقة التي يسعى لإيجادها بين الشعوب والأديان.

هذا، وقد تصدى علماء الإسلام في وقته للرد على مثل هذه الافتراءات، ومن جملتهم العلامة المجاهد الشيخ محمد جواد البلاغي رحمته الله في جملة من كتبه، التي منها كتاب (أعاجيب الأكاذيب) وكتاب (الرحلة المدرسية).

ونحن بدورنا نستقي من تلك الردود ما يتناسب مع لغة عصرنا. ومن المناسب في البداية أن نتعرض لذكر بعض الآيات القرآنية كي نعرف من خلالها موقف القرآن من نبي الله هارون عليه السلام.

- ففي سورة مريم يقول الله عز وجل في حقه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾<sup>(٥٢)</sup>، فبينت هذه الآية الشريفة أن جعل هارون نبياً كان رحمة من الله تبارك وتعالى على العالم، وأقرت - أيضاً - نبوته بشكل صريح. وقد حدد الله تبارك وتعالى وظيفة أنبيائه في كتابه بالتبشير والإنذار والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

- وفي سورة طه استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام في طلبه مما يدل على فضيلة عزيمة للنبي هارون عليه السلام؛ حيث قال: ﴿وَجَعَلْنِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي﴾<sup>(٥٣)</sup>.

أَشْدُّ بِهِ أَزْرَى ٣١ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ٣٢ كَيْ سُبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَنَذَرُكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ٣٦ . فهارون عليه السلام، كان وزيراً لنبي الله موسى عليه السلام ومسانداً له، ومشاركاً له في همومه ودعوته، وكان مسبِّحاً لله كثيراً، وذاكراً له كذلك، وهذا نتيجة طبيعية لـ ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ .

- وفي نفس السورة نجد أنَّ القرآن يُبرِّئ ساحة نبيه من عبادة العجل، بل نجده يُحذِّرهم من عبادته، فيقول: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ١٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ١١﴾ .

- وفي سورة القصص جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ أَحَافُ أَنْ يَكْذِبُونِ ٢٤﴾ قَالَ سَتَشِدُّ عُصْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ٢٥﴾ ، وفيه دلالة واضحة على استجابة الله لموسى عليه السلام في طلبه منه مما يرتبط بأخيه هارون.

ولسائل أن يسأل أنه ما معنى قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ١٢﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ١٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ١٤﴾ إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ١٥﴾؟! أفلا يدل ذلك على أنَّ هارون عصي أمر أخاه موسى فعبد العجل في المدة التي كان موسى في ميعاد الطُّور؟! ولعلَّ هذه الآية هي من جملة الآيات التي ربما يكون موَّه بها صاحب الشبهة في القناة الفضائية.

أقول: إن كان مستند صاحب الشبهة هذه الآيات، فهو إن لم يكن مغرضاً، فقد جهل لغة العرب؛ فإنَّ هذه الآيات لا تدلُّ بوجهٍ على أنَّ هارون قد عبد العجل والعياذ بالله، كيف! وقد وقع قبلها مباشرةً قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ١٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ

عَدِ كَيْفَيْنِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١١﴾ .

وإنَّما معنى الآيات المتقدمة: أَنَّ موسى ﷺ عندما جاء من معاد الطُّور ورأى ما حصل بفتنة السَّامري، وقد كان من طريقته ﷺ الشَّدة في جنب الله تبارك وتعالى، فعاتب أخاه هارون على تركه الشَّدة معهم قائلاً: لماذا لم تتَّبِعْ طريقتي، أفعصيت أمري؟ والاستفهام في مثل هذا المقام إن لم يكن على حقيقته، فلا أقل من أن يكون للتَّقرير وجعل المخاطب يعترف بالمضمون المقصود، وهو عدم عصيان الأمر؛ نظير قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِن كُنتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۚ﴾ [مريم: ١١٦]. ولذا جاء الجواب من قبل هارون ﷺ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۚ﴾، فشرع بالتَّحَبُّبِ إليه - كما يُستفاد من نفيه عن الأخذ بلحيته وبرأسه -؛ ليهدئ من روعه، ثُمَّ يَبَيِّنْ له السَّبَب في عدم اتِّباع طريقة المجاهدة والممانعة معهم، وهو استلزام ذلك للتَّفريق بين بني إسرائيل؛ حيث إِنَّ الأكثرية كانوا مِمَّنْ اتَّبَعُوا العجل، فلا حول له ولمن بقي معه من مجاهدة من اتَّبَعَ السَّامري، كما يُستفاد ذلك من قوله تبارك وتعالى في سورة أخرى: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ أَلْقَوْمْ أُسْطَٰعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ۚ﴾ [الأعراف: ١٥١]. وحينئذ يكون ما قام به هارون في غيبة أخيه هو الموافق لأمره بالإصلاح المستفاد من قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ ۖ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ومن عجائب الأمور أَنَّهُ مع هذا التَّجليل القرآني لهارون ولسائر الأنبياء ﷺ يُتَّهَم بمثل هذه التَّهمة، بينما يتغافل المهرِّجون الَّذِينَ يُريدون أَنْ يلصقوا التَّهم بالقرآن الكريم كيفما كان، يتغافلون عَمَّا هو موجودٌ في التَّوراة في سفر الخروج من الإصحاح الثَّاني والثَّلاثين، قوله: «وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى

أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأن هذا موسى الرَّجل الَّذِي أضعَدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقرط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وبناتكم، وآتوني بها. فنزع كُلُّ الشَّعب أقرط الذهب التي في آذانهم وآتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوَّره بالإزميل، وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آهتكَ يا إسرائيل التي أضعَدتك من أرض مصر؟ فلمَّا نظر هارون بني مذبحاً أمامه، ونادى هارون وقال: غداً عيد الرَّب. فبكروا في الغد، واصعدوا محرقات، وقدموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب، ثُمَّ قاموا للعب. فقال الرَّبُّ لموسى: اذهب وانزل؛ لأنَّه قد فسد شعبك...»<sup>(٢)</sup>.

وهذا النَّصُّ واضحٌ لا يحتاج إلى تعليق!!!

فصدق قول القائل: رمتني بدائها وانسلت.

هذا، وفي الختام أجدد شكري لحسن ظنِّ القارئ بمجلَّته، ونذكِّره مع سائر قرائنا الأعزاء بأنَّ أسرة التحرير في مجلَّة رسالة الثقلين تتقبَّل جميع أنواع رسائلهم وأسئلتهم؛ ليجيب عنها أهل الخبرة والتَّحقيق. والحمد لله ربِّ العالمين.

\* \* \*

الهوامش:

(١) الكتاب المقدَّس (العهد الجديد): ١٦٣، نشر دار الكتاب المقدَّس ١٩٨٠.

(٢) الكتاب المقدَّس (العهد القديم): ١٣٩، نشر دار الكتاب المقدَّس ١٩٨٠.

## فتح الإسلام الورقة الأمريكية الجديدة في لبنان

□ إعداد: أبي علي العاملي

تجديد

طابورٌ خامسٌ، وبضمةٌ أمريكيةٌ، وشيءٌ من إرادة حياةٍ وحريةٍ وممانعةٍ..  
هذا كُلُّ ما يحتاجه الأمر في أيِّ من بُلدان العالم لكي نرى فيه أشكال  
الاضطرابات، وأنواع الفتن، وبوادٍ الحرب الأهلية..  
هذا كُلُّ ما تتطلبه نيران الطائفية أو المذهبية أو العرقية البغيضة؛ لكي تستعر  
ولكي تأكل بلهيبها جميع عناصر القوة في الوطن، أيَّ وطنٍ.. نعم، هذا أقصى ما  
تحتاج إليه الفتنة النائمة لكي تستيقظ، والعصبية الملعونة لكي تنتشر..  
يكفي أن تنفث أمريكا سمومها الحاقدة لأحد العاملين والموظفين في بيتها  
الأبيض (الأسود) وتوجهه إلى أيِّ بلدٍ من البُلدان؛ لكي تزول من هذا البلد  
جميع مظاهر الاستقرار الأمني والسياسي والاقتصادي..  
ولا يهم ما هي المسؤولية التي يحملها ويضطلع بها هذا الموظف في البيت  
الأبيض؛ لأنه مهما كان صغيراً وقليل الشأن، فإن الطابور الخامس، المُنقلب على

ثوابته الوطنيّة، المتخليّ عن كرامته وعزّته، الفاقد حتّى لرائحة الشّرف والعقلانيّة، سيكون أصغر منه شأنًا، وأقلّ مكانةً، ولا غرو، فإنّ هذا المبعوث الأمريكيّ، مهما كان مقدار العداء الذي يكنّه لنا ولأوطاننا وأدياننا وكرامتنا، إلّا أنّه على الأقلّ، لا يمارس الخيانة تجاه أهله وبلده كما يفعل العملاء، ولا يعمل لصالح أعدائه كما يفعل النّفعيّون المتخاذلون من أهل ذلك البلد.. وهذا أمرٌ ينبغي أن نقدّره ونحترمه، ولو في عدوّنا الذي نعلم علم اليقين أنّه يتربّص بنا الدّوائر ولا يريد بنا إلّا شرًّا.

إلّا أنّ هذين الأمرين، لا يكفيان لوحدهما لإضرام نيران الفتن والقتل، بل لا بدّ أن تكون في هذا البلد ثلّة من أهله، تحمّل من إرادة الحياة، ومن معاني العزّة والكرامة، ومن الوعي الكافي بالأخطار المُحدّقة، ومن الهمة العالية والإمكانيّات اللاّزمة لمواجهةها، الشّيء الكثير.

لو كان الشّعب كلّهُ، أو بمُعظمه، زاهدًا في مقدّرات الوطن، أو مُشغلاً بسفاسف الأمور، مُلتهيًا عن مصيره كوجود اجتماعيّ له كيانه الخاصّ، ويختلّ موقعيّته المميّزة في حياة البشريّة ككلّ، فلماذا يا ترى ستلجأ أمريكا، أو غيرها من القوى الاستكباريّة في هذا العالم، إلى خلق الاضطرابات ونشرها في أرجاء هذا الوطن؟! إذا كان الشّعب «ميتًا»، فلنتركه إذن لموته، ولنَدعُ شقاءه الدّائميّ هو الذي يأتي بنا به راكعًا، خاضعًا، وذليلاً. فالميت لا يموت مجدّدًا. ولا يُنسب عجزه وضعفه إلى غيره. هكذا هو منطق الأمور.. وهذه هي سياسة الطّغاة والمستكبرين، يُريدون إخضاع الشّعوب، ولكنّ، دائماً، بأقلّ كلفةٍ مُمكنة.

ويمكان القارئ أن يبدأ بتفحص دول العالم دولةً دولةً، بدءاً بالقسم الجنوبيّ من القارّة الأمريكيّة، وصولاً إلى دول القارّة السّمراء، فدول شرق آسيا، مروراً بالعُقدة الأمريكيّة الكُبرى: (الشرق الأوسط). ونظرةً عابرةً ستؤكد اطّراد هذا المنطق، وستوصلنا حتماً إلى النّتيجة التالية: أنّ دول العالم (الثالث) تتوزّع على

مجموعتين:

مجموعة من الدول الخاضعة، والسائرة في الركب الأمريكي، الهائلة بخضوعها، التي تدعمها الإدارة الأمريكية وتضخ إليها الدعم المعنوي والمادي، شحنة تلو الأخرى، وتغديق عليها، وبكرم بالغ منقطع النظير، التوصيفات والمدائح الفضفاضة، فهذه الدول، هي تارة دول الاعتدال، وأخرى هي الدول الصديقة، وثالثة هي الدول الديمقراطية والحضارية، ورابعة هي دول العقول الكبيرة.. ولا عجب أن يظهر الكرم الأمريكي تجاه هذه الدول المتاجرة بمقدّرات شعبها، وكرامة أمّتها، والمستغنية عن استقلالها بيدها، كيف لا؟! وهذه الدول تمثّل في العين الأمريكية: السوق الاستهلاكية الكبرى، وخزان النفط والطاقة الذي لا ينضب، وساحة الاستثمار لشركاتها الرأسمالية، ومنطلقاً لتحركاتها العسكرية، وعيناً لها على دول الجوار، ويداً لها خانقة لأيّ نفس تحرريّ وثوريّ. لذلك فقط، تبقى هذه الدول ديمقراطية في معايير أمريكا، وإن بقي الرئيس أو الملك على عرشها سنين متطاوله، وأياماً متمادية، ومن دون انتخابات ولا أخذٍ لكلمة الشعب بعين الاعتبار، هي تبقى دول الاعتدال والحريّات، ولو طفحت سجونها السياسية والفكرية، وارتكبت فيها المجازر والفظائع.

وبحقّ نقول: إنّ على الشعوب في تلك الدول، أن تعي الأخطار المحيطة بها، والسموم التي تُقدّم إليهم مغلفةً بهدايا النفاق الأمريكي، عليها أن تعي أنّ أمريكا، ومنّ يدور في مدارها، لا تريد لها إلاّ أن تكون مُستهلكة لمنتجاتها، المادية منها والثقافية، تريد أن تمسح من ضميرها كلّ أثرٍ للعزة والكرامة اللتين لا معنى ولا طعم للحياة بدونهما.

وأما المجموعة الأخرى من الدول، فهي تلك الدول التي يرتفع فيها صوت الممانعة، وتعلو فيها صرخة الحق، ويفوح من إنسانها وأرضها عبير الحياة. هذه

المجموعة من الدول، هي الدول التي تنظر إليها أمريكا بعين الطمع، وترغب في النفوذ إليها رغبة قاتلة، وتبذل من أجل ذلك الأموال الطائلة، وتوظف في سبيل إخضاعها عقول المفكرين والمخططين، وتضع الخطة، ثم تضع لها البديل تلو البديل.

وعادةً ما تكون الخطة الأوليّة، هي التفتيش في داخل تلك الدولة، على أهلها (الأصدقاء والمعتدلين) العملاء، على الطابور الخامس الذي يُبدي استعداداً ورغبةً ببيع نفسه وأهله وأرضه وثقافته. فإن لم يُوجد، أو لم يكن قوياً ونافذ اليد في داخل بلده، وكان الوطنيون في هذا البلد يداً واحدةً في وجه أعداء وطنهم وأمتهم، رغم خصومةٍ سياسيّةٍ أو غيرها قد تسود بينهم، واستطاعوا أن يرصّوا صفوفهم وأن يوظفوا مختلف إمكانيّاتهم وقدراتهم المتاحة لاستخدامها في هذه المواجهة، إن توفّر كلّ ذلك للبلد، فإنّه حينئذٍ، ووفقاً لمنطق الأمور وسنة الكون والحياة، سيقدّر له أن ينتزع الاستقرار والرّغد والأمن والأمان انتزاعاً، ورغماً عن إرادة المستكبرين وأنوف الحاقدين.

ولننظر معاً - بعين الإنصاف - إلى الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، التي استطاعت أحزابها وهيئاتها الوطنيّة والشّعبيّة، وتلبيةً لنداء إمام الوحدة روح الله الخميني عليه السلام، أن تتلاحم وتتوحد وتنصهر معاً في جبهة واحدة، مهما اتسعت الفروقات السياسيّة أو الفكريّة فيما بينها، في مواجهة عدوٍّ واحدٍ، رأت فيه تهديداً حقيقياً، لكرامتها ووطنها، لكلّها، لمختلف فئاتها..

وأما لو وُفِّقت أمريكا في مساعيها الحثيثة للعثور على طلبتها في أيّ بلدٍ من البلدان، بأن كان في فئات الشعب فئةٌ فاسدةٌ مُفسدة، تقف بإزاء القوى الوطنيّة الشريفة، والفئات النابضة بالحياة، فعندئذٍ فقط، تحشّر أمريكا أنفها، وتجد متسعاً لبث سمومها، وتسعى جاهدةً لخلق الفرص التي تُفتش عن الفتن النائمة، لإيقاظها، وإشعال شرارتها. فإن تمكّنت من ذلك، فهذا عندها غاية المنى، إذ هو



سيوفر عليها مالا وجُهداً وتخطيطاً وتدخلاً مباشراً.  
وهذا هو تماماً، ما سعت أمريكا، وبشتى الوسائل والطرق، للقيام به في لبنان.

لبنان، هذا البلد الصغير بمساحته، الذي كان وادعاً هائلاً تملأ أهله الرغبة والأمل بالحياة الكريمة والعزيزة، لبنان الذي كثيراً ما أغاظهم وأثار حفيظتهم وحنقهم عندما علت زغاريدهم وغنت حقوله وبساتينه أغنيات النصر المبين وأغاريد الكرامة الخالدة، عندما تحوّل لبنان كلّهُ إلى عُرْسٍ وطنيٍّ جامع، زُفٍّ فيه اندحار جيوشهم المذلّ عن تلاله وأراضيه في العام ٢٠٠٠ إلى الوحدة الوطنية التي تجسّدت بأبهى صورها إبان ذلك.

لذلك، كان لا بدّ لللبنان أن يُلقّن درساً لا ينساه، كان لا بدّ من الثأر والانتقام من هذا البلد الصغير الصّامد، الذي هزم، بروحه المقاومة الجبّارة، أعتى قوّة عسكريّة أمريكيّة - إسرائيليّة في المنطقة، وعندئذٍ فقط، أدركت أمريكا فشل إسرائيل وعجزها عن إتمام المشروع الاستكباريّ المخطّط له في المنطقة، وكان لا بدّ من البديل، وبعجالةٍ قُصوى.

ولأمريكا تجربةٌ في هذا المجال، تعتبرها، أو كانت إلى وقتٍ قريب، تجربةً فريدةً ناجحة!! اختبرتها في العراق ومن قبله في أفغانستان، وتتلخّص هذه التجربة في أنّ النّفوذ إلى دول الشّرق الأوسط يحتاج إلى اللّعب على أوتار الأحقاد الطائفية؛ لأنّها الأوتار الأكثر حساسيّةً والأكثر قُدرةً على تحريك الجماهير، ولكنّ اللّعب على هذه الأوتار، وإن كان يُثمر دائماً أو غالباً لصالح المُستعمر، حيث إنّهُ يُعتبر واحداً من تجلّيات سياسة (فرّق تُسد)، إلّا أنّ أمريكا وجدت أنّها لا يُمكن أن تتحكّم بنتائجه وتضمن مجيئها لصالحها إلّا إذا كانت أصابعها هي التي تتحكّم، في الخفاء، في فصول هذه اللّعبة الدّامية. فكان لا بدّ،

لذلك، من لجوئها إلى تشكيل أو تبني بعض المجموعات التكفيرية، من المرتزقة الذين يتغذون على العصبية الطائفية المقيتة، لتحركهم كيفما تشاء، ولتدعمهم بالقدر الذي تفرضه عليها مصالحها والذي تراه كافياً لتحقيق أهدافها، ولتنقلهم من مكانٍ إلى مكان، ولتضرب بهم أعداءها، وتوجِّج بهم الأحقاد والضغائن، لتوغر قلوب أبناء الوطن الواحد والدين الواحد، بعضهم على بعض. ثم لتقلب عليهم في نهاية المطاف، إذا انقضت حاجتها إليهم، أو تغيرت مصالحها، فتنكّل بهم، وتشهر بهم في العلن، وتبرأ منهم ومن أفعالهم، وتدعو إلى محاربتهم والقضاء عليهم. وما أكثر ما فعلت أمريكا (الشيطان الأكبر) ذلك. ولنا في صدام حسين ونظامه البعثي في العراق، ومن قبله، حركة طالبان في أفغانستان، خير شاهد ودليل.

وغير بعيد عن هذا السياق، يأتي تعامل الإدارة الأمريكية في لبنان مع ما يشهده هذا البلد في الآونة الأخيرة من أحداثٍ دامية، هي صنعتها، وهي والله، نسجت خيوطها، بدءاً من اغتيال الرئيس الحريري، وما استتبعه من أزماتٍ وتحركاتٍ وانقساماتٍ في الساحة الداخلية اللبنانية، ومروراً بحرب الثلاثة والثلاثين يوماً، وصولاً إلى البدعة الأخيرة، أعني: ما عُرف بـ (منظمة فتح الإسلام).

فما هي قصة هذه المنظمة؟! وما هي المعلومات المتوفرة حول نشأتها، وإيديولوجيتها، وسياستها، وأهدافها؟! وكيف جاءت إلى لبنان؟! وكيف لحركة عنفوية سياسية حديثة العهد أن تولد قوة على هذا الشكل، وبهذا الحجم؟! كل هذه أسئلةٌ محيرة، كثر فيها الكلام وتضاربت المعلومات في الأوساط الإعلامية، العالمية منها والعربية والمحلية. وسنحاول في هذه المقالة، أن نسلط الضوء قليلاً على طرفٍ لما تناقلته الأعلام ووسائل الإعلام، في محاولةٍ

للإجابة عن هذه الأسئلة، وتنبيهاً للأمة على مخاطر هذه الأزمة الجديدة.

### فتح الإسلام والنسيج الفلسطيني:

تؤكد المعطيات والمعلومات المتوافرة على عدم وجود جنسية محدّدة لفتح الإسلام، فلقد اتفقت المعلومات المسرّبة من هنا وهناك، ورغم تضاربها في كثير من التفاصيل المتعلقة بهذا التنظيم، على مبدئ واحد، وهو أنّ تركيبة عناصر هذا التنظيم وقياداته هي في معظمها من خارج الإطار الفلسطيني، بل يُمكن الجزم بوجود غلبة كبيرة للعنصر اللبناني في هذا التنظيم. وهو ما أكّدته النتائج التي أسفرت عنها المواجهات الأخيرة التي خيّمَتْ بظلالها على مناطق في شمال لبنان أبرزها مخيم نهر البارد؛ حيث تبين أنّ لا وجود للفلسطينيين لا بين القتلى ولا بين الموقوفين من هذا التنظيم، بل كانت جنسيات القتلى موزعة بين لبنانيين وسوريين وسعوديين وجزائريين وتونسيين ومغاربة وجنسيات أخرى.

وقد أكّد مؤسس التيار السلفي في لبنان الشيخ داعي الإسلام الشهال، في حديث أدلى به لصحيفة الحياة، أنّه وبحكم تواصله مع هذا التنظيم، فإنّ معظم أعضائه هم من الخليجين واليمنيين والمغاربة والجزائريين، إضافةً إلى اللبنانيين والسوريين.

وهذه الحقيقة الثابتة، تفرض نفسها على كيفة التعامل مع هذه المجموعة في الواقع السياسي؛ إذ إنّها تمثل رداً واضحاً يُسقط جميع المحاولات التي حاول بعض رموز السلطة في لبنان أن يروجوا لها، أو أن يبدأوا بالترويج لها، بزعم أنّ هذا التنظيم فلسطيني الهوى والمنشأ والسلاح والتمويل، وأنّ السلاح الفلسطيني داخل المخيمات، فضلاً عن خارجها، قد بات يُشكّل خطراً حقيقياً على الساحة السياسية اللبنانية، وأنّ باستطاعة هذا السلاح، وللمرة الثانية، أن

يُشكّل شرارة الانطلاق للحرب الأهلية، وأن يُعيدّها إلى الواجهة في البيت الداخلي اللبناني، وبالتالي: أنّه يجب نزع هذا السلاح، وتجريد المخيّبات منه، في سعيٍ مفضوحٍ لإلغاء حقّ العودة وإقرار مبدأ التّوطين، هذا المطلب الذي هو مطلبٌ إسرائيليّ - صهيونيّ بامتياز؛ ليصلوا فيما بعد إلى تحقيق هدفهم الأقصى وحلمهم الأوحّد، وهو ضرب سلاح المقاومة الإسلامية اللبنانيّة، وزعزعة ثقة الرّأي العام اللبناني والعربيّ به، وإسقاط تلك الهالة القدسيّة المحيطة به.

لقد شكّل انكشاف جنسيّات القتلى والموقوفين وبروزها إلى العلن صفةً قويّةً للسّاعين إلى الاصطياد في المياة العكرة اللبنانيّة - الفلسطينيّة، جعلتهم يُججمون عن اختلاق الأكاذيب المدمّرة في هذا المجال، ممّا نجّى لبنان وجيشه من التورّط في فتح حرب الشّوارع والمخيّبات التي لا يعلم أحدٌ إلاّ الله كيف ستنتهي وما ستكون نتائجها.

نعم، الارتباط الوحيد الذي يُمكن أن يكون قائماً بين المنظّمات الفلسطينيّة المتواجدة في لبنان، وبين هذا التنظيم التكفيريّ المتشدّد، هو ما تناقلته بعض الأنباء، بل وصدر به بيانٌ من نفس فتح الإسلام يتحدّث عن أنّهم في الأصل إحدى خلايا منظّمة فتح الانتفاضة، ولكنّهم انشقّوا عنهم فيما بعد.

إلاّ أنّ هذا الانشقاق قد شكّل مفترقاً ومُنعطفاً أساسيّاً في نهج هذا التنظيم وفي تحرّكه ونشاطه على كافّة الصّعد. وفي هذا الشّأن يقول الدكتور أحمد موصلي، في حديثٍ له - وهو أحد المراقبين المختصّين بشؤون الجماعات الأصوليّة المتشدّدة -:

«لكنّ انشقاقها عن فتح الانتفاضة أدّى بها إلى تبني أيّدولوجيّة مختلفة جدّاً، وخروجها عن السياق الفلسطينيّ وتبنيها مفهوم الجهاديّة التكفيريّة الإسلاميّة على نمط أسامة بن لادن والقاعدة، وبالتالي: هي لا تمثّل النسيج الفلسطينيّ، لا

فتح، ولا حماس، ولا الجهاد الإسلامي، بل هي خروجٌ عن كلِّ الأمور<sup>(١)</sup>.

### من البدّاي إلى نهر البارد

حاولت مجموعة فتح الإسلام، أن تُبقي على هويّتها وأهدافها سرّيّة غامضة. ويأتي ذلك في إطار السّعي لصرف الأنظار عنها؛ لغرض الحفاظ على أصل كينونتها ووجودها وبقائها، وعلى سهولة تحرّكها وتنفيذ مخطّطاتها والقيام بعملياتها الأمنيّة، وتحقيق كافّة أهدافها، والتي قد تكون التعمية على الرّأي العام، أو توجيه أصابع الاتّهام إلى وجهة محدّدة سابقاً، من أهمّ هذه الأهداف وأكثرها إلحاحاً، كما سيتبيّن معنا لاحقاً.

ولذلك، لم تقم هذه الحركة في بداية الأمر بأيّ عملٍ علنيّ يوضّح هويّتها وأهدافها. إلّا أنّ تواجد عناصر هذه الحركة وقياداتها في مخيم البدّاي، العامر بالوجود العسكري للمنظّمات الفلسطينيّة، التي كانت قد شكّلت فيما بينها لجنة أمنيّة من أهمّ ما يأتي في جدول أعمالها وأهدافها: الحرص على عدم انفلات أوضاع المخيم الأمنيّة والعسكريّة، وضمان عدم الخروج بالسّلاح الفلسطينيّ عن أهدافه الوطنيّة المرسومة له.

إنّ تواجد فتح الإسلام في ضمن هذه الأجواء، ولو بصفة مجهولة، أدّى، ووفقاً لما هو المتوقّع والطّبيعيّ، إلى احتكاك عناصره بعناصر هذه اللّجنة، واشتباكهم معهم، ليُسفر هذا الاشتباك الذي حصل في الثالث والعشرين والرّابع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ٢٠٠٦ عن مقتل أحد عناصر اللّجنة الأمنيّة التي تمكّنت بدورها من إيقاف ستّة من أفراد المجموعة، وهم: لبنانيّان من طرابلس، وفلسطينيّان من أبناء المخيم، وشخصٌ سعوديّ، وآخر يحمل جنسيّة لبنانيّة مزوّرة، قيل: إنّه سوريّ.

وفي تلك اللّيلة، خرج عددٌ من عناصر حركة فتح الانتفاضة من مخيم

البدّايي ليستقرّوا في مخيم نهر البارد، وذلك قبل أن يُعلنوا انشقاقهم، مشكّلين تنظيمًا جديدًا أطلقوا عليه اسم (فتح الإسلام)، بقيادة العقيد شاعر العبيسي، في تسمية خبيثة تورّط بجزئها الأول - أعني: (فتح) - سوريا والفلسطينيين، وبجزئها الثاني تورّط الإسلام وتوفّر من خلاله الصبغة الإسلامية والشرعية لكافة تحركاتها ونشاطاتها.

ومّا جاء في بيان التأسيس - الانشقاق، المشحون بمفردات الخطاب الإسلامي، والصادر عنهم بتاريخ ٢٧/١٠/٢٠٠٧: أنّهم كانوا من أبناء (حركة فتح) ممّن عايشوا الفساد والانحراف، وأنّهم قد حاولوا التصحيح عبر انتفاضة العام ١٩٨٣، ولكنّ ما لبث الفساد أن استشرى مرةً أخرى، وأصبحت الحركة تعمل لصالح أجهزة استخباراتية، كما قالوا.

وقد عمدت هذه المجموعة، خلال المدة الفاصلة بين الاشتباك في مخيم البدّايي وبين إعلان التأسيس، إلى السيطرة والاستيلاء على مراكز فتح الانتفاضة في مخيم نهر البارد، وخصوصاً مركز صامد الساحلي. وفيما بعد، انضمّ إليها عناصر من بعض المخيمات في لبنان، بالإضافة إلى عددٍ آخر من العناصر، قيل إنّهم وفدوا من خارج لبنان، ليصل المجموع العام إلى ما يقارب الـ ٢٠٠ عنصر<sup>(٢)</sup>.

### ما هو سرّ فتح الإسلام؟ ومن تراه يقف وراءها؟!

أعتقد أنّه لا حاجة بنا للإشارة إلى مدى الصعوبة التي تعترض الإجابة عن هذا السؤال؛ إذ هو، ولا شكّ، بيّن القصيد، وعنده، بكلّ تأكيد، يكمن السرّ كلّ. وإنّما كان هذا السؤال هو الأصعب في طريق البحث عن حقيقة فتح الإسلام؛ لأنّ هناك شعوراً قوياً هادراً جازماً يتملّك كلّ قارئٍ متتبّعٍ للأحداث العاصفة التي حلّت بلبنان في الآونة الأخيرة، ومفاد هذا الشعور: أنّ هذه

المجموعة - بل «العصابة» إن شئنا توخّي الدقّة في التعبير - ليست مجموعة بريئة الدوافع، كلاً، وليست أبداً مجرد مجموعة إسلاميّة النشأة والأهداف، بل إنّ البصمات الاستخباراتيّة تنطبع فيها بكلّ جلاءٍ ووضوح، في تمويلها، وفي كَيْفِيّة تحرّكاتها وتوقيت عمليّاتها، وحقّاً نقول: إنّ من السّداجة بمكان، أن يقبل أحدنا بفكرة أن هؤلاء النّاس قد وجدوا في لُبْنان ساحةً مُنتَهَكَةً تُشَتّد الحاجة فيها إلى ممارسة تكليف «الجهاد»؟! وضدّ مَنْ يُراد توجّيه فوّهات بنادقهم «الإسلاميّة» هناك؟! أم أنّ قياديّ هذه الحركة الإرهابيّة قد أدركوا بعقولهم الجبّارة أنّ الشّعب اللّبنانيّ الآمن قد بات يُشكّل خطراً مُحدّداً على الإسلام؟! أم تراهم رأوا في قتل المدنيّين والأبرياء تسديداً لضربة قاضية إلى الإدارة الأمريكيّة التي تنهب خيرات الأُمّة وثرواتها في العراق الجريح؟! أو طعنَةً قاتلةً إلى إسرائيل التي تُمنع قتلاً وتعذيباً في الشّعب الفلسطينيّ المخطوف بعد كلّ ما فعلته واجترحتّه في حربها الأخيرة على لُبْنان وأراضيه؟!

ويؤكّد هذا الأمر: أنّ جميع الأقلام والمحلّلين ممّن تطرّأوا للحديث عن فتح الإسلام ونشأتها، وبالرّغم من الاختلاف الشّاسع في آرائهم، والتباين في رؤاهم السّياسيّة، قد أجمعت كلمتهم على رفض هذه النّظرة، وعلى اعتبارها من التبسيط والتّسطيح الذي يَسْتَحْفَ بعقول النّاس وتفكيرهم ولا يُجْدُ إلاّ الجهة الحقيقيّة التي تقف وراء التدبير لهذه الأزمات الحادّة.

وهكذا، وكائنًا ما كان الرّأي الذي نميل إليه، وسواء كُنّا ننحو باللائمة على سوريا وإيران وحلفائهما أو (أدواتهما) في المنطقة، كما يَحُلُو للموالاتة في لُبْنان أن تُسارع إلى إعلانهِ والتسلّح به، أم كُنّا ممّن يرى في تاريخنا الحافل مع أمريكا وإسرائيل قدراً كافياً من الدّروس التي توثّق في نفوسنا صحّة مقولة الإمام الخمينيّ (عليه السلام): (أمريكا الشّيطان الأكبر)، سواء كُنّا نميل إلى هذا الفريق أو ذاك، فإنّنا على كلّ حالٍ، لا نجد بداً من استبعاد هذه البساطة والبراءة في تحليل

الأحداث وقراءتها، ولا نرى محيصاً من التفتيش عن الأصابع الخفية التي أرادت أن تعبث بلبنان وأهله عبر إيجاد هذه الحالات الشاذة، التي تمجّها، قبل الأديان كافة، العقول والطباع السليمة.

ولئن كان لكل من النظرتين ما يُسانده ويؤيده، إلّا أنّنا ما زلنا لا نستطيع أن نُقنع أنفسنا بأنّ أمريكا تقف إلى صفنا وإلى جانبنا، أو بأنّها، بكلّ براءة، تدعّمنا وتحترم سيادتنا، ولا تتدخل في شؤوننا الداخلية، تفعل كلّ ذلك، لا لشيءٍ إلّا كُرمى لعيون الديمقراطية التي تراها فينا أو التي تأمل رؤيتها فينا!! وكيف لمن يرى ما يجري كلّ يومٍ في العراق أن يُصدّق ذلك أو أن يقبل به؟! ثمّ كيف لنا بقبول أنّ سوريا وحلفاءها، وفيهم إيران وحزب الله، تقوم بدعم وتمويل حركة إرهابية تُجاهر، فيما تُجاهر به، بتكفير الشيعة وضرورة قتالهم وإعمال السيف في رقابهم؟! وهل من المعقول والمنطقي أن تعمّد دمشق أو طهران إلى تزويد مَنْ ينوي حفر قبرهما بالمعاول اللازمة لذلك؟! وهل ينقص «حزب الله» أن يفتح عليه أتون جبهةٍ داخليةٍ هو في غنى عنها؟! ولماذا يعمّد إلى إعطاء ذريعةٍ أخرى يتمسك بها الخصوم الذين طالبوا بنزع سلاحه حتّى في أحلك الأوقات أثناء الحرب الأخيرة؟! ثمّ ألم يجد لتنفيذ أغراضه غير أداةٍ تخالفه لا تتفق معه في الأيديولوجية؟!!

إنّ خيوط هذه القراءة واهيةٌ جدّاً، ولا يُمكن أن يتشكّل منها مقاربةٌ متماسكة تفسّر لنا مختلف الحوادث الجارية، بل هي لا تعدّو أن تكون سُخفاً من القول وزوراً. ولا أرى مَنْ يتمسك بها يخرج عن شخصين اثنين: واحد لا يفقه شيئاً من السياسة الدوليّة والإقليمية والمحليّة، أو آخر على علمٍ ودرايةٍ بحقيقة ما يجري وهو يتعمّد إضلال الناس وذرّ الرماد في عيونهم.

ولئلاّ نبذو وكأنّنا نستقي التحليلات من مصادر داخليةٍ متورّطة، فلنرجع إلى ما كتبه مُطلعون ومتتبّعون غربيّون، وعلى الحياد، في هذا المجال.



ساييمور هيرش (Seymour Hersh):

يقول الكاتب والصحافي الأمريكي في جريدة (New Yorker) ساييمور هيرش<sup>(٣)</sup>:

إنّ تنظيم فتح الإسلام، ومعه مجموعاتٌ سنيّةٌ جهاديّةٌ أخرى في لبنان، يتمّ دُعمها مباشرةً من إدارة الرئيس بوش، وكذلك بعض العناصر في الحكومة اللبنانية. ويرى هيرش: أنّ الغاية من هذا الدّعم هو خلق ثقلٍ في مقابل حركة «حزب الله» الشيعيّة، وزرع العُنف الطائفي في لبنان.

وخلال تصريح أدلى به لقناة الـ (C.N.N.) الأميركيّة، قال هيرش: «نحن الأمريكيّون نقوم الآن بدّعم المسلمين السنّة في أيّ مكانٍ نستطيع الوصول إليه ضدّ المسلمين الشّيعيّة، في سبيل إعمال العنف الطائفي، وقد وضعنا هذه السياسة في موقعٍ ما خلف ما يجري الآن من أحداث»<sup>(٤)</sup>.

وفيما يلي جزءٌ من النّص المتعلّق بحديثه عن المجموعات المتشدّدة:

«... وقال لي الباحث في مركز أبحاث «متنّدّي الصّراعات» في بيروت (ألستير كروك)، الذي أمضى نحو ٣٠ عاماً في جهاز الاستخبارات البريطانيّة: إنّ الحكومة اللبنانيّة تفتح المجال أمام هؤلاء النّاس، وذلك قد يُصبح خطيراً للغاية. وقال كروك: إنّ إحدى المجموعات السّنيّة المتطرّفة (فتح الإسلام) قد انشقت عن مجموعتها الأمّ الموالية لسوريا (فتح الانتفاضة)... مُضيفاً: قيل لي إنّهُ خلال ٢٤ ساعة تمّ إعطاؤهم الأسلحة والمال من قِبَل أشخاصٍ عرّفوا عن أنفسهم بأنّهم ممثّلون عن مصالح الحكومة اللبنانيّة، ربّما للإجهاز على حزب الله...»<sup>(٥)</sup>.

بل إنّ هيرش ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك عندما قال: «إنّ حكومة الرئيس فؤاد السّنيورة تلقّت دعماً من المملكة العربيّة السّعودية لتمويل هذه الحركة ومدّها بالأسلحة، بغية خلق قوّة سنيّة في مقابل القوّة الشّيعيّة المتمثّلة في حزب

الله، وذلك في حال حصول تصادم ما في لبنان». مُشيراً إلى أنّ ذلك يأتي وفقاً لاتّفاقٍ سرّيٍّ تمّ بين نائب الرئيس الأمريكيّ ديك تشيني ونائب مُستشار الأمن القوميّ إليوت أبرامز مع الأمير بندر بن سلطان مُستشار الأمن القوميّ السعوديّ<sup>(٦)</sup>.

**فرانكلين لامب (Franklin Lamb):**

فرانكلين لامب كاتبٌ ومؤلفٌ وخبيرٌ قانونيٌّ أمريكيٌّ<sup>(٧)</sup>، قدّم إلى لُبْنان أثناء أزمة نهر البارد فدخّل المخيم مُستتراً بقميصٍ يحمل شعاراتٍ منظّاتٍ إنسانيّةٍ تابعةٍ للأمم المتّحدة، من وكالة غوث اللاّجئين (الأنروا) والصليب الأحمر، وأجرى مقابلاتٍ مع عددٍ من سكّان المخيم الصّامدين فيه، وسألهم عن تنظيم فتح الإسلام، وجنسيّات أفرادهِ، وكيفيّة تعاطيهم معهم، وعند نهاية جولته، ومن قلب نهر البارد، قام بإعداد تقريرٍ يُفصّل فيه ما شاهده، ويذكر فيه رأيه وفهمه وقراءته للأحداث الجارية<sup>(٨)</sup>، فكان من جُملة ما كتبه:

«... ونظراً لتخبّط إدارة الرئيس بوش في العراق وأفغانستان، وتشجيعها لإسرائيل لاستمرار تدميرها للبنان في الصّيف الماضي، فإنّ الوضع في لبنان ينعكس، في بعض النواحي، بداية الثمانينات من القرن الماضي، عندما هبّت بعض التنظيمات لمقاومة الاجتياح والاحتلال الإسرائيليّ للبنان، الذي كان يُحظى بضوءٍ أخضرٍ أميركيّ. لكنّ عوضاً أن يكونوا شيعةً ومؤيدين لحزب الله، فإنّ مجموعات اليوم هي ذات غالبيةٍ سنّيةٍ ومعارضةٍ لحزب الله، ومؤهّلةٌ - بالتالي - للحصول على المساعدات الأميركية التي يمرّرها الممولون السّنّة المرتبطون مع إدارة الرئيس بوش، التي أعلنت التزامها بتمويل المجموعات الإسلامية السّنّية بهدف إضعاف حزب الله».

كما رأى لامب أنّه في الفترة الأخيرة قد جرى العمل في لُبْنان على تشكيل نادٍ

سياسي جديد، أطلق عليه اسم: النادي الولشي (Welch Club)، نسبةً إلى (ديفيد ولش) مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية والمعين من قبل الإدارة الأمريكية مسؤولاً عن ملف الشرق الأوسط.

والأعضاء البارزون في هذا النادي الولشي هم - حسبما جاء على لسان لامب نفسه -: «أحد قدامى الحرب اللبنانية ومن أمرائها، الإقطاعي الزبقي: وليد جنبلاط، رئيس الحزب (الدرزي) التقدمي الاشتراكي. وشخص آخر من قدامى الحرب اللبنانية وأمرائها، إرهابي أمضى ١١ سنة في السجن بسبب المجازر التي ارتكبها ضد مسيحيين آخرين: سمير جعجع، قائد ميليشيا القوات اللبنانية التابعة لحزب الكتائب والتي ارتكبت المجزرة التي نظمها إسرائيل في صبرا وشاتيلا التي وقعت في أيلول - سبتمبر ١٩٨٢ وراح ضحيتها ١٧٠٠ فلسطيني ولبناني. إضافةً إلى الملياردير السعودي، ورئيس النادي الشيخ سعد الحريري زعيم تيار المستقبل السني».

ووفقاً لما جاء في كلام لامب، فإن أغراض تأسيس هذا النادي تتلخص في تأسيس خلايا إرهابية سلفية، يُشرف على رعايتها وتمويلها تيار المُستقبل، ويكون الغرض من ذلك كله أن تقوم هذه الخلايا، وتحت غطاءها الجهادي والإسلامي المزعوم، بتنفيذ نشاطات إرهابية تحقق الأغراض والمخططات المرسومة بدقة من النادي اللبناني الولشي، ليُصار فيما بعد إلى إلقاء اللوم على مناهضي المشروع الأمريكي في المنطقة، من تنظيم القاعدة، إلى سوريا، إلى أية جهة أخرى يرى فيها النادي عدواً أو خصماً.

وأشار لامب إلى أنه استند في معلوماته هذه إلى عناصر وناشطين في فتح الإسلام، الذين تحدثوا عن أن تحركاتهم جاءت بإيعاز من رئيس النادي الشيخ سعد الحريري، بعد أن تم تأمين شقيق فاخرة لهم تُشرف على البحر في مدينة طرابلس، كانوا يرتاحون فيها ويجزّنون الأسلحة. وبحسب لامب، فإن كل

مقاتل منهم كان يتقاضى مبلغ \$٧٠٠ شهرياً، وهو - على حدّ قوله - ليس مبلغاً سيئاً بالنسبة للأوضاع الحالية في لبنان.

وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي لم يُجرِ وفقاً للمخطط إذن؟! ولماذا سرقة المصرف ولماذا أزمة نهر الباردي؟!

في الجواب عن هذا السؤال، يصرّح فرانكلين لامب بأنّه يتفق تماماً مع ما يقوله سايمور هيرش، ويقول نصّاً: «إنّ إدارة الرئيس الأمريكيّ بوش شعرت بالذعر من رجال مثل سايمور هيرش، من الذين يدسون أنوفهم في كلّ شيء.. فما كان منها إلّا أن أصدرت الأمر بإزالة اسم تنظيم (فتح الإسلام) من قائمة المرتبات التي تمّولها...». ثمّ يواصل قائلاً: «إنّ التنظيم شعر بالخيانة من قبل الأمريكيّين، خصوصاً بعدما باءت بالفشل مساعيه الهادفة إلى التفاوض على مبلغ تعويضيّ عن قطع العلاقة الأمريكيّة، ومن هنا اضطرّ للقيام بعملية سطو مسلّح على المصرف في طرابلس».

إنّ هذه المعلومات دفعت بفرانكلين لامب إلى الإعلان عن توقّعاته القاضية بأنّه سيتمّ القضاء على تنظيم فتح الإسلام سريعاً جدّاً، وقبل أن تتمكّن من كشف الغطاء عن فصول العلاقة الخفية التي كانت تربطها بأمريكا وحلفائها من اللبنانيين<sup>(٩)</sup>.

#### ماذا عن مصير لبنان؟!

مهما كانت الخلفية التي تنطلق منها هذه العصابة، ومهما كانت تلك الجهة التي تدعمها وتقف وراءها، أو - على أقلّ التقادير - الجهة التي تتحمّل المسؤولية عن التّفصير الذي أدّى إلى أن يبلغ الخطر والاختراق الأمنيّ الدرجة الحمراء التي هو عليها الآن، فإنّنا نعتقد أنّ الأهمّ من الاتّهام ومن تحميل المسؤوليات، هو أن ينتبه الجميع في لبنان وأن يكونوا واعين متيقّظين لمدى

حساسية الأوضاع الراهنة التي تدور أحداثها في المنطقة ككل، والتي لُبنان جزءٌ منها لا ينفك عنها، ولا يُمكن له أن يجتأجواءه السليمة مجرداً عنها، ولا تنضبط أموره أو يحصل على استقراره بدونها، كيف؟! والجميع يعلم يعلم اليقين أن له حصّة كبيرة في أوراق ومخططات المشاريع التي تم إعدادها لهذه المنطقة.

إنّ هذا المأزق الجديد الذي يمرّ به لُبنان، والذي من شأن ذبوله أن تنسحب على المنطقة كلّها، هو مأزقٌ معقّد جدّاً، إذ تتداخل فيه الأمور، وتختلط فيه الأوراق؛ لأنّه موضوعٌ يعني الرأى العامّ اللبّانيّ بجناحيه الإسلاميّ والمسيحيّ، وهو أمرٌ من شأنه أن يثير حساسيّات طائفية ومذهبية، وتتدخل فيه العلاقات اللبّانية والفلسطينية، وتلعب فيه دوراً بارزاً وكبيراً مصالح العديد من القوى الدّولية والإقليمية، ويبقى محكوماً لمفاهيم سياسية مجمّع عليها عالمياً، لحدّ الآن على الأقلّ، من الحرب على الإرهاب وسلاح المخيّمات ورفض التّوطين. وهذا ممّا يؤثّر إلى مدى خطورة التداعيات والنتائج الذي يُمكن لهذا الملفّ أن يُسفر عنها، فلذلك، لا مجال لمعالجته ببساطة، ولا بدّ للحلّ وللخطوات التي يُصار إلى اتّخاذها أن تكون مدروسة دراسة كافية، ولا بدّ لروح هذا الحلّ أن تكون محكومةً لإطارٍ من الثّوابت والخطوط الحمر التي تضمّن الحفاظ على السّلم الأهليّ وتصون الوحدة الوطنيّة اللبّانية، والتي تحفظ لجيش لبنان الموحد والجامع لكافة أطراف المجتمع اللبّانيّ هيئته وكرامته، وفي الوقت عينه تراعي الحالة الإنسانيّة الصّعبة التي يُعانيها اللاجئ الفلسطينيّ في المخيّمات، كما تقضي على هذه الحالة الإرهابيّة بشكلٍ لا يفسح المجال لتجذّرها واستقطابها وانتشارها في السّاحة اللبّانية، لا لها، ولا لمُختلف التشكيلات والتنظيمات التي تتفق معها فيما يُمكن أن نسمّيه بـ «أيديولوجيّة العُنف المتطرّف غير المنضبط وغير المسدّد إلى وجهته الصّحيحة»، لا بطريقة الصّالح العشائريّ الذي يتقوّم

بالعفو عن القتلة والمُجرمين والغصّ عن انتهاكاتهم واعتداءاتهم والتعامل معها كأنّها لم تكن، ولكن أيضاً، لا بطريقة الثأر والانتقام التي تسلب من الجميع الحق في محاكمة عادلة، وتساوي بين القاتل والبريء، وبين جميع الانتهاكات الصغيرة منها والكبيرة. وإنّما يجب للعدالة أن تأخذ مجراها، وللقانون أن يسود وأن يُلْقَى بظلاله، فيحاكم القاتل على أساس أنّه قاتل، والمُفسد على إفساده، والمُعْتدي على انتهاكاته، كل بحسب جريمته ومخالفته.

ولأجل ذلك كلّه، وفي ختام الكلام، لا نجد كلاماً مسؤولاً قِيلَ في المسألة وأصل لطريقة الحلّ السليم والنّاجع خيراً ممّا جاء في الخطاب الأخير للأمين العام لحزب الله سماحة السيّد حسن نصر الله ﷺ:

«يجب أن لا تكون الحرب على الإرهاب بالطريقة البوشية - نسبةً إلى بوش - الأمريكية، حيث يُصبح رجل الأمن هو المدّعي العام وهو القاضي والشاهد والمحامي والجلاد. إنّ هذا خطيرٌ ويهدّد الأمن والسّلم في لبنان. وإنّما يجب أخذ الوقت الكافي في موضوع معالجة ما حصل في المخيم. لقد سمعنا في اليومين الماضيين عن اقتحام للمخيم، ولكن كيف يتمّ اقتحام المخيم وهناك ٣٥ ألف نسمة، ويوجد فيه الكثيرون ممّن لا علاقة لهم بالمشكلة... أقول بكلّ وضوح: الجيش خطُّ أحمر ولا يجوز المسّ به، ومَنْ قَتَلَ ضبّاط وعناصر الجيش يجب أن يُحاكَم ويتوفّر له محاكمة عادلة، ولا يجوز أن يتسامح معه. لكن بنفس الوقت، المخيم أيضاً خطُّ أحمر. ولا يُمكننا أن نقبل أو نغطّي ولا يُمكن أن نكون شركاء في تغطية حرب مخيمات لا نعرف أين توصلنا، ولا نعرف في النهاية هذه الحرب حرب مَنْ؟»<sup>(١٠)</sup>.

وأخيراً.. نسأل الله تعالى أن يحفظ أمّتنا وبلداننا على امتداد العالم الإسلاميّة، وأن يوحد كلمتنا ويؤلّف بين قلوبنا ويجمعنا في صفٍّ واحدٍ في مواجهة أعدائنا

الحاقدين، وأنَّ يَمَكَّننا من اتِّخاذ القرارات الشَّجاعة في المواطن اللاَّزمة.. والحمد لله أولاً وآخراً..

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) نقلاً عن تقريرٍ أجرته قناة المنار بتاريخ: ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٧.
- (٢) تحقيقٌ نشرته جريدة الأخبار اللَّبنانيَّة في عددها الصَّادر نهار الأربعاء بتاريخ ١٤ آذار ٢٠٠٧.
- (٣) وهو كاتبٌ أمريكيٌّ يُنسب إليه كُشف مذبحة (ماي لاي) في فييتنام، وكذلك الفضائع البشعة في سجن (أبو غريب)، ولديه علاقاتٌ واتِّصالاتٌ واسعة ومهمَّة جدًّا في واشنطن.
- (٤) من مقالةٍ تحت عنوان (Strange & Tragic) نُشرَتْ بتاريخ ٢٩ / ٥ / ٢٠٠٧ على موقع الـ (Gulf News) الإخباريِّ بقلم (Linda S. Heard)، وهي كاتبةٌ متخصصةٌ بشؤون الشَّرق الأوسط.
- (٥) نقلاً عن جريدة الأخبار في عدد الأربعاء ١٤ آذار تحت عنوان: (هيرش: الحكومة تدعّم فتح الإسلام).
- (٦) انظر: جريدة الأخبار في عدد الخميس ٢٤ أيار تحت عنوان: (هيرش: الأصوليون ينقلبون على الحكومة اللَّبنانيَّة التي دعمتهم).
- (٧) وقد صدر للامب كتابان، أحدهما بعنوان (The Price We Pay)، يتحدَّث فيه عن ربع قرنٍ من استخدام إسرائيل للسَّلاح الأمريكيِّ ضدَّ لبنان من العام ١٩٧٨ إلى العام ٢٠٠٦، والآخر يُتوقَّع صدوره في أوائل الصَّيف القادم بعنوان (Hizbollah: A Brief Guide for Beginners)، واسمه يَحكي مُحتوياته.
- (٨) بعنوان: (Who's Behind the Fighting in North Lebanon?)، وقد نشرَتْ هذا التقرير نشريةً (Counter Punch) الأمريكيَّة الواسعة الانتشار على شبكة الانترنت، بتاريخ: ٢٤ مايو ٢٠٠٧.
- (٩) انظر: مقالة (Strange & Tragic)، مصدرٌ سابق.
- (١٠) خطاب سماحة السيّد نصر الله المتلفز الذي ألقاه مساء يوم الجمعة بتاريخ ٢٥ / ٥ / ٢٠٠٧ عبر شاشة تلفزيون المنار بمناسبة الذِّكْرى السَّابعة لعيد المقاومة والتحرير. بتصرُّفٍ يسيرٍ لا يستحقُّ أن يُذكَر.

(١)

## أبو خالد الكابلي

من حواربي الإمام السَّجَّاد عليه السلام

□ أبو حسن العاملي

تكمُن عظمة الإنسان - بل وانحطاطه - في أبعادٍ أربعة:

الأوّل: البعد الاعتقادي؛ لما له من الأثر الكبير على الأفعال والأعمال التي يزاولها الإنسان؛ لأنَّ ما يُعقد عليه القلب من أفكار سوف تترجم عملياً بما يصدر من الجوارح من أعمال. فإنَّ كان ما عُقد عليه القلب حقّاً فسوف يسمو ويرتفع الإنسان، وإنَّ كان ما عُقد عليه باطلاً فسوف يدنو ويهبط ويكون كالأنعام بل أضلَّ سبيلاً.

الثاني: البعد الانتمائي، وهذا - أيضاً - من الأبعاد التي تتأثَّر بمضممرات النفوس؛ لأنَّ العقيدة الراسخة تقتضي الالتجاء إلى ركنٍ شديد. ولا يمكن أن نجد عظيماً من عظماء عالم المعنى قد نجح في البُعد الاعتقادي إلاَّ وانعكس ذلك على انتماءاته. وفي هذا السِّياق نفهم قوله تبارك وتعالى في سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ



وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾ . وفي المقابل لا نجد حقيراً في عالم المعنى إلا وتجدده قد أساء في انتثائه وانتسابه، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَاكِرَةً فَنُتَبِّرًا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ .

الثالث: البعد الأخلاقي، بما يفرز من شمائل وفضائل تحسّنها العقول وتمتدحها النفوس تارة، وتمتجها الألباب ويذمّها العقلاء تارة أخرى.

الرابع: البعد العملي، الذي - كما أسلفت - يكون من الانعكاسات القهريّة لما تضرمه القلوب من عقيدة وتنطوي عليه السريرة من نيّة.

وهذه الأبعاد الأربعة نجدها في الثلّة المؤمنة من أصحاب أهل البيت عليه السلام بوضوح كبير، وفي هذا المقالة المختصرة نحاول تسليط الضوء على إحدى الشخصيات التي تصلح أن تكون مناراً لنا في سيرنا الكادح إلى ربّنا؛ وقد وقع اختياري على أحد حواريّ الإمام الرابع من أئمّة أهل البيت عليه السلام، أعني: الإمام زين العابدين، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو أبو خالد الكابلي؛ لما لهذه الشخصية من مشخصات بارزة يمكن أن تكون مورداً للتأسي والافتداء في زمن نحن في أشد الحاجة فيه إلى الرجوع إلى تعاليم الدين الحنيف، وإرشادات النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، المتجلىة في الثلّة الصالحة من أصحابهم وحواريّهم.

## الهويّة الذاتيّة

التسمية المشهورة: أبو خالد الكابلي.

اسمه: كنكر، وقيل: وردان.

لقبه: قيل: وردان، وقيل: القمّاط.

كنيته: أبو خالد.

موطنه الأصلي: كابل، عاصمة أفغانستان حالياً.

الفترة الزمنية التي عاش فيها: عاصر الكابلي ثلاثة من الأئمة، وهم: الإمام زين العابدين علي بن الحسين، والإمام محمد بن علي الباقر، والإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. فيكون قد عاش ما بين العقد السابع من الهجرة إلى العقد الرابع عشر منها.

أبو خالد الكابلي شخصية معروفة عند أرباب التّراجم والرّجال، ولكن قد اختلف في اسمه، فقيل: وردان، وقيل: كنكر. قال الشّيخ في رجاله عند الحديث عن أصحاب أبي محمد علي بن الحسين عليه السلام: «كنكر، يُكنّى أبا خالد الكابلي، وقيل: إنّ اسمه وردان»<sup>(١)</sup>.

وفي أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يظهر منه أنّ كنكر ووردان شخصيتان: إحداهما من أصحاب السّجاد عليه السلام، والأخرى من أصحاب الباقر عليه السلام، قال: «وردان، أبو خالد الكابلي الأصغر، روى عنه وعن أبي عبد الله عليه السلام، والكبير اسمه كنكر»<sup>(٢)</sup>.

وقال في اختيار معرفة الرّجال: «...أبو خالد الكابلي، واسمه وردان، ولقبه كنكر...»<sup>(٣)</sup>.

ونصّ المير داماد في تعليقه على الاختيار في موضع آخر أنّ هذا الذي اسمه وردان، ولقبه كنكر هو أبو خالد الكابلي الأكبر<sup>(٤)</sup>.

وقد نقل الشّيخ في الفهرست عن ابن عُقّدة أنّ كنكر اسمٌ لأبي خالد القمّاط<sup>(٥)</sup>. وعدّ أبا خالد القمّاط تحت عنوان كنكر في رجاله في أصحاب أبي عبد الله عليه السلام<sup>(٦)</sup>.

وقد نقل العلامة نصّ الكشي المتقدم في الاختيار من كون اسمه وردان ولقبه كنكر<sup>(٧)</sup>. إلّا أنّ ابن داود لا نراه يرجّح هذا القول، فيقول: «وردان أبو خالد الكابلي الأصغر، والأكبر كنكر، بالتّون والرّاء المهملة، ورأيته بخطّ الشّيخ أبي جعفر<sup>عليه السلام</sup>، وقال بعض الأصحاب: وردان، أبو خالد الكابلي، ولقبه كنكر. والحقّ الأوّل»<sup>(٨)</sup>.

هذا، والذي نستطيع أن نجزم به أنّ أبا خالد الكابلي الذي هو من أصحاب السّجاد<sup>عليه السلام</sup> يُلقّب بكنكر، كما نصّت على ذلك رواية أبي بصير عن أبي جعفر<sup>عليه السلام</sup> في حديثٍ طويلٍ صرّح في ابتدائه أنّ أبا خالد الكابلي كان في ابتداء أمره يخدم محمّد بن الحنفية، إلى أن قال: «فلما استأذن عليه (أي: علي بن الحسين<sup>عليه السلام</sup>)، فأذن له، فلما دخل عليه دنا منه، قال: مرحباً يا كنكر، ما كنت لنا بزائر؟!...». وسوف تأتي الرواية كاملة.

ولا يبعد أن يكون اسمه عند ولادته هو كنكر؛ كما تصرّح به تكملة الرواية المتقدمة، ثمّ عندما جاء إلى بلاد العرب لُقّب أو سُمّي بوردان، وكيف كان فلا يترتب على ذلك مزيد أهميّة، والله العالم.

### النصوص الواردة في حقّه أولاً: من الأخبار

(١) روى الكشي عن محمّد بن قولويه بإسناده إلى أسباط بن سالم، قال: قال أبو الحسن موسى بن جعفر<sup>عليه السلام</sup>: «... ثمّ ينادي المنادي: أين حواربيّ علي بن الحسين<sup>عليه السلام</sup>؟ فيقوم جبير بن مطعم، ويحيى بن أمّ الطّويل، وأبو خالد الكابلي، وسعيد بن المسيّب...»<sup>(٩)</sup>.

(٢) وعنه أيضاً، بإسناده عنّ سمعه عن أبي عبد الله<sup>عليه السلام</sup>: قال: «ارتدّ الناس بعد قتل الحسين<sup>عليه السلام</sup> إلّا ثلاثة: أبو خالد الكابلي، ويحيى بن أمّ الطّويل، وجبير

بن مطعم، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ لَحَقُّوا وَكَثُرُوا»<sup>(١٠)</sup>.

٣) وعنه أيضاً، بإسناده إلى أبي بصير، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «كان أبو خالد الكابلي يخدم مُحَمَّدَ بن الحنفية دهرًا، وما كان يشكُّ في أنَّه إمام. حتَّى أتاه ذات يوم فقال له: جُعِلْتُ فداك! إنَّ لي حرمةً ومودةً وانقطاعاً، فأسألك بحرمة رسول الله وأمير المؤمنين ألا أخبرتني: أنت الإمام الذي فرض الله طاعته على خلقه؟ قال: فقال: يا أبا خالد، حلّفتني بالعظيم، الإمام علي بن الحسين عليهما السلام وعليك وعلى كُلِّ مسلم. فأقبل أبو خالد لما أن سمع ما قاله مُحَمَّدَ بن الحنفية، جاء إلى علي بن الحسين عليهما السلام، فلما استأذن عليه فأخبر أنَّ أبا خالدٍ بالباب، فأذن له، فلما دخل عليه دنا منه، قال: مرحباً يا كنكر، ما كنتَ لنا بزائر؟! ما بدا لك فينا؟ فخرَّ أبو خالد ساجداً شاكر الله تعالى ممَّا سمع من علي بن الحسين عليهما السلام، فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتَّى عرفت. فقال له علي: وكيف عرفت إمامك يا أبا خالد؟ قال: إنَّك دعوتني باسمي الذي سمّيتني أُمِّي التي ولدتني، وقد كنتُ في عمياء من أمري، ولقد خدمتُ مُحَمَّدَ بن الحنفية عمراً من عمري ولا أشكُّ إلاَّ وأنَّه إمام، حتَّى إذا كان قريباً سألتُه بحرمة الله وبحرمة رسوله وبحرمة أمير المؤمنين، فأرشدني إليك، وقال: هو الإمام عليّ وعليك وعلي خلق الله كُلُّهم، ثُمَّ أذنت لي، فجئتُ فدنوت منك سمّيتني باسمي الذي سمّيتني أُمِّي، فعلمتُ أنَّك الإمام الذي فرض الله طاعته عليّ وعلى كُلِّ مسلم»<sup>(١١)</sup>.

٤) وعنه أيضاً، بإسناده إلى أبي صباح الكناني، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سمعته يقول: «خدم أبو خالد الكابلي علي بن الحسين عليهما السلام دهرًا من عمره. ثُمَّ إنَّه أراد أن ينصرف إلى أهله، فأتى علي بن الحسين عليهما السلام، فشكى إليه شدّة شوقه إلى والديه، فقال: يا أبا خالد يقدم غداً رجلاً من أهل الشام له قدرٌ ومالٌ كثيرٌ، وقد أصاب بنتاً له عارضٌ من أهل الأرض، ويريدون أن يطلبوا معالجاً يعالجها، فإذا

أنت سمعت قدومه فأته وقل له أنا أعالجها لك على أنني أشرط عليك أنني أعالجها على ديته عشرة آلاف درهم، فلا تطمئن إليهم، وسيعطونك ما تطلب منهم. فلما أصبحوا قدم الرجل ومن معه، وكان رجلاً من عظماء أهل الشام في المال والمقدرة، فقال: أما من معالج يعالج بنت هذا الرجل؟ فقال له أبو خالد: أنا أعالجها على عشرة آلاف درهم، فإن أنتم وفيت لكم على ألا يعود إليها أبداً، فشرطوا له أن يعطوه عشرة آلاف درهم. ثم أقبل إلى علي بن الحسين عليه السلام، فأخبره الخبر، فقال: إني لأعلم أنهم سيغدرون بك، ولا يفون لك. انطلق يا أبا خالد فخذ بأذن الجارية اليسرى، ثم قل: يا خبيث يقول لك علي بن الحسين أخرج من هذه الجارية ولا تقعد. ففعل أبو خالد ما أمره، وخرج منها، فأفاقت الجارية، فطلب أبو خالد الذي شرطوا له فلم يعطوه، فرجع مغتماً كئيباً. قال له علي بن الحسين عليه السلام: ما لي أراك كئيباً يا أبا خالد! إنهم يغدرون بك دعهم فإنهم سيعودون إليك، فإذا لقوك فقل لهم: لست أعالجها حتى تضعوا المال على يدي علي بن الحسين عليه السلام، فعادوا إلى أبي خالد يلتمسون مداواتها، فقال لهم: إني لا أعالجها حتى تضعوا المال على يدي علي بن الحسين، فرجع أبو خالد إلى الجارية، وأخذ بأذن اليسرى، ثم قال: يا خبيث يقول لك علي بن الحسين عليه السلام أخرج من هذه الجارية ولا تعرض لها إلا بسبيل خير، فإنك إن عُدت أحرقتك بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فخرج منها ولم يعد إليها، ودفع المال إلى أبي خالد، فخرج إلى بلاده»<sup>(١٢)</sup>.

٥) روى الكليني بإسناده عن إسحاق بن جرير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبو خالد الكابلي من ثقات علي بن الحسين عليه السلام...»<sup>(١٣)</sup>.

هذا، وبعض هذه النصوص وإن كان سنده موصوفاً بالضعف، إلا أن صحة البعض، واشتهار الرجل، وصحة مضامين أخباره التي نقلت عنه في الأبواب

المختلفة، كُلّ ذلك يشهد له بالوثاقة، وحسن العقيدة...

#### ثانياً: من أقوال العلماء

قد تقدّم بعض ما ذكره علماء الرجال في حقّه، ونُضيف هنا:

- (١) قال الفضل بن شاذان: ولم يكن في زمن عليّ بن الحسين عليهما السلام في أوّل أمره إلّا خمسة أنفس: سعيد بن جبير، سعيد بن المسيّب، مُحَمَّد بن جبير بن مطعم، يحيى بن أم الطّويل، أبو خالد الكابلي...<sup>(١٤)</sup>.
- (٢) قال أبو خالد الزّراري في آل أعين: لهم أُختٌ يقال لها أمّ الأسود، ويقال إنّها أوّل من عرف هذا الأمر منهم من جهة أبي خالد الكابلي<sup>(١٥)</sup>.
- (٣) وذكر هو نفسه أنّ حمران بن أعين عرف هذا الأمر عن طريق أبي خالد الكابلي<sup>(١٦)</sup>.

#### حصيلة مواصفاته

- (١) إنّّه من حوارِي الإمام السّجاد عليه السلام، وبالمقايضة مع إطلاق هذه الكلمة على أصحاب عيسى عليه السلام الخلّص ومواصفاتهم، يعرف أهميّة هذا الوصف لهذا الرّجل الموالِي لأهل البيت عليهم السلام.
- (٢) إنّّه من القلّة الذين بقوا على العقيدة الحقّة في أتباع الثّقلين بعد استشهاد المولى أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وهذا أمرٌ في غاية الخطورة في ذلك الزّمن الَّذِي يُلاحق فيه أتباع أهل البيت عليهم السلام.
- (٣) إنّّه كان رحمته الله يُبدي أهميّة كُبرى في معرفة الحقّ، ويبحث عنه، ويستدلّ عليه بالعلامات والبراهين.
- (٤) إنّّه تشرّف بخدمة إمام زمانه مدّة مديدة، فطوبى له وحسن مآب.
- (٥) إنّّه كان باراً بوالديه عطوفاً عليهما.
- (٦) إنّّه كان مورد اهتمام إمام زمانه، فهنيئاً له، ورزقنا الله هذه النّعمة.

- (٧) إِنَّهُ كَانَ مُسَلِّماً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامٍ زَمَانِهِ.
- (٨) إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثِقَةً فَحَسَبَ، بَلْ كَانَ ثِقَةً إِمَامَهُ.
- (٩) إِنَّهُ كَانَ مِنَ الدُّعَاةِ النَّشِطِينَ، وَلَهُ فَضْلٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ آلِ أَعْيُنَ.
- فَسَلَامٌ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِ رَسُولِ اللَّهِ وَعَتَرَتِهِ الطَّاهِرَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ  
أَوَّلًا وَآخِرًا...

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) رجال الطُّوسِي: ١١٩، تحقيق: جواد القِيَّومِي الإصفهاني، الطَّبعة الأولى ١٤١٥، نشر مؤسسة النُّشْر الإسلامي، قم.
- (٢) المصدر نفسه: ١٤٨.
- (٣) اختيار معرفة الرِّجَال ١: ٣٣٢، تعليق: المير داماد الاسترآبادي، تحقيق: السَّيِّد مهدي الرِّجَائِي، نشر مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التُّراث، ١٤٠٤.
- (٤) المصدر نفسه (التَّعليقة) ١: ٢٥.
- (٥) الفهرست: ٢٦٩، تحقيق: الشَّيْخ جواد القِيَّومِي، الطَّبعة الأولى ١٤١٧، نشر مؤسسة نشر الفقاهة.
- (٦) رجال الطُّوسِي: ٢٧٤.
- (٧) انظر: خلاصة الأقوال: ١٥٧، تحقيق: الشَّيْخ جواد القِيَّومِي، الطَّبعة الأولى ١٤١٧، نشر مؤسسة نشر الفقاهة.
- (٨) رجال ابن داود، تحقيق: السَّيِّد مُحَمَّد صادق بحر العلوم، منشورات الرِّضِيِّ نَقْلًا عَنْ طَبْعَةِ النَّجَف الْأَشْرَف ١٣٩٢، قم.
- (٩) اختيار معرفة الرِّجَال ١: ٤٣.
- (١٠) المصدر نفسه ١: ٣٣٨.
- (١١) المصدر نفسه ١: ٣٣٦.
- (١٢) المصدر نفسه ١: ٣٣٧.
- (١٣) أصول الكافي ١: ٤٧٢، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، الطَّبعة الخامسة ١٣٦٣ ش، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران.
- (١٤) المصدر نفسه ١: ٣٣٢.
- (١٥) رسالة في آل أَعْيُنَ: ٢١، تحقيق: السَّيِّد مُحَمَّد علي الموسوي الأبطحي، مطبعة رباني ١٣٩٩.
- (١٦) المصدر نفسه: ٢٧.

## إِطْلَالَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَلَى كِتَابِ رِيَاضِ السَّالِكِينَ (لِلسَّيِّدِ عَلِيِّ خَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ)

□ إِيْدَاد: عَلِي أَحْمَد الْحَسَن

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رِزْقِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]. وعن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعَمُودُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»<sup>(١)</sup>. وعن أمير المؤمنين ع في وصيته لابنه الحسن ع قوله: «اعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ مَلَكُوتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَدْ أَذِنَ لِدُعَائِكَ، وَتَكْفَّلَ لِإِجَابَتِكَ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَهُوَ رَحِيمٌ كَرِيمٌ، لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ... ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدِكَ مِفْتَاحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ خَزَائِنِهِ...»<sup>(٢)</sup>.

فَمَا كَانَ هَذَا شَأْنَهُ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ مَغْفُولًا عَنْهُ عِنْدَ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمِنْ هُنَا كَثُرَتْ النُّصُوصُ الدُّعَائِيَّةُ فِي الثَّرَاثِ الَّذِي وَصَلْنَا عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ع، وَالَّتِي كَانَ أَهْمُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ مَا يُعْرَفُ بِزُبُورِ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنْجِيلِ أَهْلِ الْبَيْتِ ع<sup>(٣)</sup>، أَعْنِي بِذَلِكَ: الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ



الكاملة، التي هي من إنشاء سليل الدوحة المحمدية، ووارث العلوم العلوية، الإمام أبي محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، الملقب بالسجاد؛ لكثرة سجوده، وبزين العابدين؛ لكثرة عبادته وحسنها.

وقد تميّزت هذه الصحيفة بتنوع المعارف الإسلامية المبثوثة فيها، من معارف التوحيد وسائر أصول الدين، إلى المعارف الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية وغيرها الكثير، كل ذلك بعبارات تفعم القلب بالخشوع، وتجري لهية الباري من الآفاق زفرات الدُموع.

كما وتميّزت بأسانيد متعددة تزيدها قوة شهرة هذه الصحيفة في الأعصار والأمصار، مع ما في متنها من المضامين العالية التي لا تصدر إلا عمّن ارتبط بآية التطهير بالدلالة على عصمته، وطهارته، ونقاء سيرته.

قال الآقا بزرك الطهراني رحمته الله: «وللأصحاب اهتمام بروايتها، ويخصونها بالذكر في إجازاتهم، وعليها شروح كثيرة مرّت في محلّه، وهي من المتواترات عند الأصحاب؛ لاختصاصها بالإجازة والرواية في كلّ طبقة وعصر، ينتهي سند روايتها إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام وزيد الشهيد ابني علي بن الحسين، عن أبيهما علي بن الحسين عليه السلام»<sup>(٤)</sup>.

لأجل ذلك عكف العلماء على مرّ العصور بشرحها وتفسير مضامينها والاعتراف من لثالثها والاستضاءة بأنوارها. وقد كثرت شروحها حتى أحصى منها الآقا بزرك ما يقرب من سبعين شرحاً. وإليك بعضاً من هذه الشُّروح:

(١) شرح الصحيفة، للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن صالح بن إسماعيل الكفعمي، صاحب المصباح، والمتوفى سنة ٩٠٥ هـ<sup>(٥)</sup>.

(٢) حقائق الصالحين في شرح صحيفة سيّد السّاجدين، لشيخ الإسلام والمسلمين الشّيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصّمد العاملي، المتوفى

سنة ١٠٣١ هـ<sup>(٦)</sup>.

(٣) التُّحفة الرّضويّة في شرح الصّحيفة الكاملة السّجاديّة، للميرزا قاضي بن كاشف الدّين مُحَمَّد الأردكاني اليزدي، من تلاميذ الشّيخ البهائي عليه السلام<sup>(٧)</sup>.

(٤) شرح الصّحيفة، للعلامة المولى مُحَمَّد باقر المجلسي، شرحٌ فارسيّ مقتصرٌ على الموارد المهمّة المشكلة<sup>(٨)</sup>. وله شرحٌ آخر بالعربيّة يُسمّى بالفرائد الطّريفة، لكنّه لم يتمّ.

(٥) شرح الصّحيفة، للمحقّق الدّاماد المير مُحَمَّد باقر الحسيني الاسترآبادي المتوفّى سنة ١٠٤٠ هـ<sup>(٩)</sup>.

(٦) شرح الصّحيفة، للمولى الشّريف أبي الحسن بن مُحَمَّد بن طاهر بن عبد الحميد الفتوني النّاباطي العاملي، المتوفّى حدود سنة ١١٤٠ هـ<sup>(١٠)</sup>.

(٧) لوامع الأنوار، للسّيّد ميرزا مُحَمَّد باقر ملّا باشي، وفرغ منه سنة ١٢٣٢ هـ<sup>(١١)</sup>.

ومن جملة من شرح هذه الصّحيفة المباركة شرحاً وافياً، وكان مورداً لاستفادة العلماء فضلاً عن الطّلاب، هو العلامة الأريب والفاضل الأديب السّيّد علي خان المدني، في شرحه الموسوم بـ: «رياض السّالّكين في شرح صحيفة سيّد السّاجدين».

ولأهميّة هذا الشّرح أحببتُ أن أُخصّص هذا المقال بالتّعريف به وبمصنّفه؛ لعلّ ذلك يكون موجِباً للعمل والاستفادة لمن لم يطلّع عليه، كما استُفيد من المشروح على مرّ العصور.

المؤلّف في سطور

نسبه الشّريف:

هو السّيّد علي خان صدر الدّين المدني الشّيرازي - واشتهر بابن معصوم

نسبة إلى جدّه الآتي - ابن الأمير نظام الدّين أحمد، بن مُحَمَّد معصوم، بن أحمد نظام الدّين، بن إبراهيم، بن سلام بن مسعود عماد الدّين، بن مُحَمَّد صدر الدّين، ابن منصور غياث الدّين، بن مُحَمَّد صدر الدّين، بن إبراهيم شرف الدّين، بن مُحَمَّد صدر الدّين، بن إسحاق عزّ الدّين، بن عليّ ضياء الدّين، بن عرب شاه فخر الدّين، ابن الأمير عزّ الدّين أبي المكارم، ابن الأمير خطير الدّين، بن الحسن شرف الدّين أبي عليّ بن الحسين أبي جعفر العزيزي، بن عليّ أبي سعيد النّصيبيني، بن زيد الأعشم أبي إبراهيم، بن عليّ بن الحسين أبي شجاع الزّاهد، ابن مُحَمَّد أبي جعفر، بن علي، بن الحسين، بن جعفر أبي عبد الله، بن أحمد نصير الدّين السّكّين النّقيب، بن جعفر أبي عبد الله الشّاعر، بن مُحَمَّد أبي جعفر بن مُحَمَّد، بن زيد الشّهيد، بن زين العابدين علي بن الحسين السّبط، بن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام<sup>(١٢)</sup>.

وأما نسبه من ناحية الأمّ، فقد ذكر المترجم له ذلك بقوله: «وأما نسبي من جهة الأمّ، فأكون ابن القانتة بنت غياث الحكماء بن صدر الحكماء»<sup>(١٣)</sup>، وهي ابنة الشّيخ مُحَمَّد بن أحمد المنوفي، إمام الشّافعيّة بالحجاز المتوفّى سنة (١٠٤٤هـ).

#### ولادته ونشأته:

وُلد السيّد المترجم له بالمدينة المنورة، ليلة السّبت الخامس عشر من جمادى الأولى سنة (١٠٥٢هـ)، وبقي في بلاد الحجاز متنقلاً بين مكّة والمدينة مدّة أربع عشرة سنة قضى قسطاً منها مشغلاً بالعلم. وقد غادر مكّة المكرّمة في ليلة السّبت السادس من شهر شعبان سنة ١٠٦٦هـ، بعد أن دعاه والده الفاضل الأديب السيّد نظام الدّين أحمد إلى حيدر آباد من بلاد الهند، فوصلها يوم الجمعة لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأوّل سنة ١٠٦٨هـ.

والظاهر أنّه بقي في حيدر آباد ثمان عشرة سنة، اغترف خلالها العلم، خاصّة

من رواد مجلس أبيه الذي كان متتدي يلتقي فيه العلماء والأدباء، وصنّف فيها كتاب الحقائق النديّة في شرح الصّمدية، وفيها شرع - أيضاً - في تأليف كتابه سلافة العصر سنة ١٠٨١هـ.

ولأسباب لا مجال لذكرها هنا ترك حيدر آباد متوجّهاً إلى «برهان پور» فحلّ مرحّباً به عند سلطانها محمد أورنگ زيب شاه. فقلّده هذا الأخير قيادة كتيبة من الجيش تعدادها ١٣٠٠ فارس، وأعطاه لقب «خان».

وبقي في الهند مدّة طويلة من الزمن أنجز فيها الكثير من مصنّفاتة منها شرحه على الصّحيفة، مضافاً إلى المناصب المتعدّدة التي تولّاها على أحسن وجه، إلى أن جاء عام ١١١٤ فطلب الاستعفاء والسّاح له بزيارة الحرمين الشّريفيّن، فأذن له، فغادر الهند بعد أن قضى فيها ستاً وأربعين عاماً.

وبعد أن أدّى مناسك الحجّ وزار قبر النّبيّ ﷺ وأثمة البقيع عليه، وُفق بزيارة العتبات المقدّسة في العراق، ومنها توجه إلى إيران لزيارة مرقد الإمام الرّضاء عليه السلام.

وبعدها نزل في إصفهان عاصمة الدّولة الصّفويّة آنذاك في سنة ١١١٧هـ، في عهد السّلطان حسين الصّفوي. وفي أواخر حياته ترك تلك العاصمة ليتسكّر في شیراز، مقيماً في المدرسة المنصوريّة التي بناها جدّه العلامة غياث الدّين منصور، فكان في تلك المدينة زعيماً دينياً، ومدرّساً مفيداً، وانصرف بكلّيته إلى التّدريس والتّصنيف.

والظّاهر أنّ مدّة بقاءه فيها كان أقلّ من سنة؛ لكونه قد نزل إصفان - كما تقدّم - سنة ١١١٧هـ، وقال الشّيخ علي حزين في التّذكرة: «إني أدركته بها سنين»<sup>(١٤)</sup>.

وفاته وبعض كلماته ومصنّفاتة:

توفّي المترجم له بشيراز في شهر ذي القعدة سنة ١١٢٠، ودُفن بحرم السيّد

أحمد بن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، المعروف «بشاه چراغ». وله رحمته الله بعض الكلمات التي تدلُّ على حاله وظرفه الزماني والمكاني الذي كان يعيش فيه؛ حيث يقول في كتاب الحقائق النَّدِيَّة الذي صنَّفه في حيدر آباد: «وكان الفراغ من تبيض هذا الشَّرح المبارك مع تشويش البال وكثرة الهمِّ والبلبال، وكوني في زمانٍ وبلادٍ قد كسدت فيها سوق الفضل وطلابه، وقامت دولة الجهل وأحزابه، فلم يُعرف من العلم إلا اسمه، ولم يبقَ منه أثر. ولولا أنْ خشيتُ المبالغة قلت: إلا رسمه»<sup>(١٥)</sup>.

وقال في خاتمة كتابه أنوار الرِّبيع في أنواع البديع الذي صنَّفه في برهان پور: «ومن أحسن الاتفاق أنْ جاء تاريخ عام التَّمام، موافقاً لحساب طيب الختام، وهو عام ثلاث وتسعين وألف، وقد وفقَّ الله سبحانه للشُّروع فيه والفراغ منه في وقتٍ لا يُتصوَّر فيه صحبة قلم لبنان، ولا يُتخيَّل في تصوُّر مسألة في جنان، بل لا تقع العين إلا على لمع مهنّد وستان، ولا تصحب اليدين إلا قائم حسام، وجديل عنان، وذلك حين المrapطة بثغر العدو من الدِّيار الهندية، والمنازلة لهم في كُلِّ صباح وعشيّة، والسَّمع لا يعي إلا صارخاً: يا خيل الله اركبي، أو صائحاً لما دهمه: يا غلام قرِّب مركبي».

وللمترجم له رحمته الله تصانيف كثيرة في النُّحو والأدب والتَّراجم والرِّجال والأدعية، ربما تصل إلى العشرين، وله ديوان شعر أكثره مراسلات ومدائح في أبيه، وفيه عرسيّات كثيرة. وله فيه قصيدة قالها عند زيارته أمير المؤمنين عليه السلام في النِّجف، أوَّلها<sup>(١٦)</sup>:

يا صاح هذا المشهدُ الأقدسُ	قرَّت به الأعينُ والأنفُسُ
والنَّجف الأشرف بانَتْ لنا	أعلامُهِ والمعهدُ الأنفُسُ
والقبة البيضاء قد أشرقت	ينجابُ عن لآئها الحنْدُسُ

حضرةٌ قدسٍ لم ينل فضلها  
حلّت بمن حلّ بها رتبة  
تودّ لو كانت حصى أرضها  
وتحسد الأقدام منّا على  
فقف بها والشم ثرى تربها  
وقل صلاةً وسلاماً على  
خليفة الله العظيم الذي  
نفس النبي المصطفى أحمد  
العلم العيلم بحر الندى  
فليلنا من نوره مقمر  
أقسم بالله وآياته  
إنّ عليّ بن أبي طالب

لا المسجد الأقصى ولا المقدس  
يقصر عنها الفلك الأطلس  
شهب الدجى والكنس الخنس  
السّعي إلى أعتابها الأروس  
فهى المقام الأظهر الأقدس  
من طاب منه الأصل والمغرس  
من ضوئه نور الهدى يقبس  
وصنوه والسّيد الأروس  
وبرّه والعالم النّقرس  
ويومنا من ضوئه مشمس  
أليّة تنجي ولا تغمس  
منار دين الله لا يطمس

### رياض السّالكين في سطور

أقوال العلماء فيه:

قال الميرزا عبد الله أفندي الإصفهاني رحمته الله (ت: ١٣٠ هـ): «وله أيضاً شرح  
الصّحيفة الكاملة كما أشرنا إليه آنفاً، وقد جعله باسم سلطان عصرنا الشّاه  
سلطان حسين الصّفوي، وهو شرحٌ كبيرٌ جداً من أحسن الشّروح وأطولها، وقد  
أورد فيه فوائد غزيرة من كتبٍ كثيرةٍ غريبةٍ عزيزة، وقد سمّاه رياض السّالكين في  
شرح صحيفة سيّد السّاجدين، وقد صدر شرح كلّ دعاء من أدعية هذه الصّحيفة  
بخطبةٍ وديباجةٍ على حدةٍ ظريفة، وقد أودع في هذا الشّرح فوائد كثيرة وفرائد  
غزيرة، وبسط الكلام فيه، ونقل أقوال سائر الشّراح والمحشّين، وتعصّب فيه  
للشّيخ البهائي من بين الشّراح، وطوّل البحث في أكثر العلوم ولا سيّما في العلوم

العربية»<sup>(١٧)</sup>.

وقال السيّد إعجاز حسين (ت: ١٢٨٦هـ) صاحب كشف الحجب والأستار: «رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد العابدين، للسيّد الجليل الأديب النبيل المحقق المدقق العلامة الفهامة، الذي حاز من الفصاحة ما يدهش القلوب التي في الصدور، ويزدري بقلائد اللآلي المتلالية على الثُحور، وفاز من البلاغة بما هو أبلغ من أنوار الربيع، وأبهج من لطائف البديع، عالي الكعب في الفنون العقلية، الحاذق في العلوم اللسانية... وهو شرح الصحيفة الكاملة، إنجيل أهل البيت، وزبور آل مُحَمَّد ﷺ، مشتمل على درر الفوائد، وغرر القلائد، وجواهر التحقيقات، وزواهر التدقيقات، لم يطلع أحدٌ على مثيله، ولم يظفر الزمان بعديله، يشهد على طول باع مصنّفه، وعلو كعب مؤلّفه...»<sup>(١٨)</sup>.

وقال السيّد محسن الأمين ﷺ (ت: ١٣٧١هـ): «شرح الصحيفة السجادية، مطبوعٌ مشهورٌ، سمّاه رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين، ولم يؤلّف في شروحها مثله»<sup>(١٩)</sup>.

وقال الشيخ الأميني ﷺ (ت: ١٣٩٢هـ) صاحب الغدير: «رياض السالكين في شرح الصحيفة الكاملة السجادية، كتابٌ قيّمٌ يفتح العلم من جوانبه، وتندقق الفضيلة بين دفتيه، فإذا أسمت فيه سرح اللَّحظ فلا يقف إلا على خزائن من العلم والأدب موصدة أبوابها، أو مخابئ من دقائق ورقائق لم يهتد إليها أيُّ المعيّ غير مؤلّفه الشريف المبجل»<sup>(٢٠)</sup>.

#### المنهج المتبع في الشرح:

إنَّ إعجاب السيّد على خان ﷺ بأستاذه الشيخ البهائي ﷺ أمرٌ مفروغٌ عنه، وفي مقدّمة شرحه للصمدية يقول: «شيخنا الإمام العلامة، والهام القدوة الفهامة، سيّد العلماء المحققين، سند العظماء المدققين، نادرة دهره وزمانه، باقعة

عصره وأوانه، ملاذ المجتهدين وشرفهم، بحر أولي اليقين ومغترفهم، شيخنا ومولانا بهاء الدين العاملي سقى الله ثراه، وجعل بحبوحه الفردوس مثواه»<sup>(٢١)</sup>.

كما أنَّ نظرة سريعة إلى مجمل تأليفاته يكفي لإدراك مدى تأثره بشيخه وأستاذه؛ حيث إنَّه شاركه في كثير من التأليفات، فللشيخ كتاب المخلاة، وللسيد كذلك ومشى فيها على منوال شيخه، كما أنَّ له كتاب الحقائق النَّدية في شرح صمدية الشيخ البهائي في النحو، وله شرحان آخران عليها: متوسطٌ وصغير، كما أنَّه ألَّف كتاب التذكرة في الفوائد النادرة على نهج كشكول الشيخ البهائي على ما قيل<sup>(٢٢)</sup>.

ومن ظواهر هذا التأثير أنَّ للشيخ البهائي شرحٌ على الصَّحيفة السَّجادية، يُعرف باسم (حقائق الصَّالحين)، لم يتمه ولم يصلنا الكثير ممَّا أمَّه، وقد مشى تلميذه السيد المدني على منواله فيه وتعصَّب له كما تقدَّم عن الأفندي، بل إنَّ اسم هذا الشرح الَّذي نقوم بالتعريف به كان (رياض الصَّالحين)، ثمَّ غيِّر إلى (رياض السَّالِّكين)، ولا يخفى التَّشابه الاسمي بينه وبين شرح أستاذه. ويشهد لذلك النُّسخة النَّاقصة الموجودة في مكتبة الشيخ مشكور بخطِّ المولى أصغر بن مُحَمَّد قاسم بن جمال القمِّي التي فرغ من كتابتها في حياة المصنِّف في إصفهان عام ١١١٥؛ حيث أطلق عليها في أوَّلها اسم (رياض الصَّالحين)، وفي إجازة المصنِّف للسَّيد إبراهيم بن مراد الحسني الحسيني تصريحٌ بهذا الاسم<sup>(٢٣)</sup>. ولا يخفى التَّقارب والتَّرادف الموجود بين هذا الاسم واسم شرح الشيخ البهائي.

وكيف كان، فإنَّ هذا الشرح الَّذي نقوم بالتعريف به قد شرع السَّيد المدني بتأليفه سنة ١٠٩٤هـ، وكان الفراغ منه سنة ١١٠٦هـ، فكانت مدَّة تأليفه اثنتي عشرة سنة، كما صرَّح هو بذلك في خاتمة الرَّوضة الرَّابعة والخمسين<sup>(٢٤)</sup>.

رَبَّه المصنِّف بحسب ترتيب أدعية الصَّحيفة السَّجادية على أربع وخمسين روضة، لكلِّ دعاء روضة، ولكُلِّ روضة خطبةٌ مستقلة، وهذا من المؤشرات -



أيضاً - على تأثره بأستاذه البهائي؛ حيث إنَّ هذا الأخير قد رتَّب شرحه على حدائق لكلِّ دعاءٍ حديقة وخطبة مستقلة، قال الآقا بزرك في سياق حديثه عن شرح الشَّيخ البهائي: «جعل شرح كلِّ دعاءٍ في حديقة، وقد خرج شرح عدَّة من حدائقه، وكانت موجودةً في المشهد الرضوي في عصر العلامة المجلسي، كما ذكره بعض معاصريه أو تلاميذه في رسالة كتبها إليه، والرسالة بصورتها مدرجةً في آخر إجازات البحار، ولكنَّ الموجود المتداول منها اليوم هو (الحديقة الهلالية) فقط في شرح دعائه عند رؤية الهلال، الَّذي هو الدُّعاء الثالث والأربعون، وقال في آخرها: (تمَّ تأليف الحديقة الهلالية من كتاب حدائق الصَّالحين، ويتلوها - بعون الله تعالى - الحديقة الصَّوميَّة، وهو شرح دعائه ﷺ عند دخول شهر رمضان). وقد كتب قبل الهلالية (الحديقة الأخلاقية) قطعاً؛ لأنَّه قال في أثناء الهلالية ما لفظه: وقد قدَّمتنا الحديقة الأخلاقية في شرح دعائه ﷺ في مكارم الأخلاق كلاماً...» (٢٥).

هذا، والهيكل الكليَّة لهذا الشَّرح المفيد كالآتي:

(١) صدر هذا الشَّرح بذكر بعض الأحاديث التي تُشير إلى بعض فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، مع تعليقٍ مختصرٍ عليها بشرح بعض مفرداتها. ثمَّ ختم هذا التَّصدير بقصيدة له في مدح الأمير ﷺ، من جملة ما جاء فيها قوله:

أمير المؤمنين فدتك نفسي      لنا من شأنك العجب العجائب  
تولاك الأولى سعدوا ففازوا      وناواك الذين شقوا فخابوا  
ولو علم الورى ما أنت أضحوا      لوجهك ساجدين ولم يحابوا  
يمين الله لو كُشف المغطى      ووجه الله لو رُفع الحجاب  
خفيت عن العيون وأنت شمسٌ      سمت عن أن يُجللها سحاب  
وليس على الصَّباح إذا تجلَّى      ولم يُبصره أعمى العين عاب  
لسر ما دعاك أبا تراب      محمَّد النبىَّ المستطاب

(٢) ثم تلاه بخطبة للكتاب جاء فيها - بعد الحمد والثناء على الله تبارك وتعالى، والصلاة على نبيه المصطفى وآله الهداة - ذكرٌ لمواصفات هذا الشرح، وهي: (يفتح مقفلها، ويُفصل مجملها، ويُظهر كنوزها، ويحل رموزها). ثم بين الوجه في تعرضه لشرح الصحيفة والحال أن شيخه البهائي قد شرحه، الذي حصله أنه لم تقع حدة العين منه على غير الحديقة الهلالية. وقد جاء أكثر الخطبة في مدح من أهدى له هذا الشرح، أعني: الشاه سلطان حسين الصفوي. وختمها بذكر سند روايته للصحيفة السجادية.

(٣) ثم جاء بعد الخطبة شرح مفصل لأسانيد الصحيفة السجادية، استوعب الكاتب فيه ما يقرب من (١٦٠) صفحة بحسب الطبع الحديث. وقد حوى هذا الشرح على نكات لطيفة في علم الدراية من قبيل التفريق بين (حدثني) و (حدثنا) و (أخبرني) و (أخبرنا) وغير ذلك، وعلم الرجال. وكما هو دأبه قد أتحفنا فيه بالكثير من الفوائد اللغوية والنحوية، ولم يخل من شذرات تاريخية لطيفة. كما قد أظهر في أواخرها سعة باعه في العلوم العقلية والفلسفية.

(٤) ثم بعد ذلك يبدأ بشرح الأدعية الأربعة والخمسين بترتيبها على روضات بعددها، يبدأ كل روضة بذكر الدعاء كاملاً، ثم يصدّر الروضة بخطبة فيها الحمد والثناء والصلاة على النبي وآله، ومن اللطائف أن خطبة كل روضة تختلف عن أختها، كل ذلك بالفاظ فصحية، وعبائر مليحة، ومضامين عالية بليغة. ثم يأتي بقوله: «وبعد: فهذه الروضة (يذكر فيها ترتيبها العديدي) من رياض السالكين في شرح صحيفة سيد العابدين، إملأء راجي فضل ربّه السني علي الصدر الحسيني الحسني، وفقه الله...»، ثم يأتي بدعاء مختلف عن أخيه في كل خطبة.

ثم يبدأ بشرح الدعاء شرحاً تفصيلياً، فقرة فقرة، مقدماً مباحثه الصرفية

والتَّحْوِيَّةُ واللُّغَوِيَّةُ على شرح معانيه ومضامينه، مستشهداً بأقوال النحاة وأئمة الأدب واللغة، مورداً من الأشعار والأحاديث والنصوص، بأسلوب لا يمل قاريه، ولا يضجر سامعه ومصغيه.

قال الآقا بزرك رحمته الله: «وهو أطول الشروح، يذكر تمام الدعاء، ثم يُبين لغته وما يتعلق به من النحو والصرف وشرح المعنى»<sup>(٢٦)</sup>.

### إطلالة على الشرح المطبوع

قد تصدّت مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة لطبع هذا الأثر النفيس القيم، وقد صدرت عنها الطبعة الرابعة في شهر محرم الحرام من سنة ١٤٢٥ للهجرة، في سبعة مجلدات يتجاوز كلّ واحد منها (٥٠٠) صفحة، وتعداد مجموع هذه الدّورة (٣٩٠٨) صفحات.

وقد قام بتحقيق هذا السّفر القيم المحقّق السيّد محسن الحسيني الأميني، ومن أهمّ الإنجازات التي قام بها ما يلي:

(١) تصدير الكتاب بمقدمة تعرّض فيها لنسب صاحب الشّرح، وولادته ونشأته، ووفاته، وأقوال العلماء فيه، وتقاريض كتاب رياض السّالّكين، ومؤلّفات مصنّفه، وتأثّره بالشيخ البهائي، ونسخ رياض السّالّكين، ومنهج المحقّق في تحقيقه.

(٢) استفاد المحقّق في تحقيق هذا السّفر القيم من أربع نسخ لكتاب رياض السّالّكين، الأولى منها فتوغرافية عن نسخة خطيّة يرجع تاريخ استنساخها إلى سنة ١١١٢ هـ، فهي مستنسخة في حياة المصنّف، وتوجد هذه النسخة في المكتبة الرّضويّة في مشهد المقدّسة على ساكنها آلاف التّحية والثناء.

والنسخة الثّانية صورة عن نسخة ترجع إلى نفس التاريخ المتقدّم محفوظة في المكتبة الوطنيّة (كتابخانه ملي) بطهران.

والنسخة الثالثة صورةً فتوغرافيةً عن النسخة الخطيّة في المكتبة الخاصة للفاضل يوسف محسن الأردبيلي في زنجان، ويعود تاريخ استنساخها إلى سنة ١١٣٢هـ، بخطّ المرحوم ملا محسن بن مُحَمَّد طاهر القزويني صاحب شرح العوامل، إلّا أنّها نسخة ناقصة، تبدأ من أوّل الشّرح حتّى نهاية الروضة السّابعة والعشرين.

والنسخة الرّابعة عبارة عن النسخة الحجريّة المستنسخة سنة ١٣١٧هـ، التي قد أشار كاتبها إلى أنّها قد قوبلت مع مجموعة من النسخ الخطيّة المعتبرة. (٣) قام المحقّق بترجمة وجيزة لكلّ شخص ورد اسمه في الكتاب. (٤) استخرج الكثير من الأقوال والأحاديث التي وردت في متن الشّرح، مضافاً إلى الآيات القرآنيّة.

(٥) شرح الكثير من المفردات الغريبة التي وردت في الشّرح. (٦) وضع بعض الفهارس لكلّ مجلّد من المجلّدات السّبعة، من قبيل فهرست الموضوعات، وفهرست فواتح الجمل من أدعية الصّحيفة، وفهرست الآيات والأحاديث.

هذا، وعلى الرّغم من الجهد الكبير الذي بذله هذا المحقّق في إخراج هذا السّفر القيم بصورة حديثة، مع تعدّد طباعته، إلّا أنّه مع ذلك لا يخلو عن أخطاء كثيرة نرجو أن يوفّق الباري عزّ وجلّ في المستقبل القريب إلى تلافيها. وهذه الأخطاء موزّعة على الشّكل التّالي:

- أ- أخطاء مطبعية في غاية الكثرة، خصوصاً في مقدّمة المحقّق.
- ب- أخطاء نحويّة في خصوص التّحقيقات التي أضافها المحقّق.
- ج- الاشتباه في استخراج النصوص من مصادرها، فكثيراً ما ينسب شيئاً إلى كتاب والحال أنّه لكتاب آخر.
- د- عدم وضع فهرست بأسماء المصادر التي استُفيد منها في التّحقيق.

### إطالةً على فهرس رياض السالكين

لا يخفى على الباحثين أنَّ الفهارس الفنيَّة تساعد على الاستفادة من المصنَّف استفادة كاملة، خصوصاً تلك التَّصنيفات التي لم تعدَّ للمطالعة التَّفصيليَّة كما هو الحال في هذا الشَّرح القيم، وبالأخصَّ عندما يكون متضمناً لنكاتٍ نفيسة، وفوائد جليَّة، وفرائد غزيرة، كما تقدَّم عن العلامة الأميني: «يطفح العلم من جوانبه، وتندفَّق الفضيلة بين دفتيه، فإذا أسمت فيه سرح اللَّحظ فلا يقف إلاَّ على خزائن من العلم والأدب موصدة أبوابها، أو مخابئ من دقائق ورقائق لم يهتد إليها أيُّ ألمعيٍّ غير مؤلِّفه الشريف المبجل».

ومن هذا المنطلق رأت مؤسسة النُّشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرِّسين ميسيس الحاجة إلى تنظيم فهرس فنيَّة جامعة كاملة؛ لتكون مفتاحاً لأبواب خزائن علومه، ومغوصاً لاستخراج لآلي فنونه. فاقترحت لتنظيمها جناب الأخ الفاضل الشَّيخ مُحَمَّد حُسين المظفر، فقام بتنظيمها على أحسن وجه، وذلك في ضمن جزءين يبلغ عدد صفحاتهما (١٣٢٤) صفحة.

تضمَّن الجزء الأوَّل منهما على الفهارس التَّالية:

- (١) فهرس الآيات القرآنيَّة.
- (٢) فهرس تفسير الآيات.
- (٣) فهرس القراءات وملحقاتها.
- (٤) فهرس الأسماء المباركة للمعصومين عليهم السلام.
- (٥) فهرس الكتب السماويَّة.
- (٦) فهرس الأحاديث.
- (٧) فهرس الأعلام.
- (٨) فهرس التَّراجم.
- (٩) فهرس الأديان والمذاهب والمتمذهيين.

- (١٠) فهرس القبائل والآل والطوائف والأقوام.
- (١١) فهرس الفئات والأصناف والطبقات.
- (١٢) فهرس الأصحاب.
- (١٣) فهرس القراء.
- (١٤) فهرس الشعراء.
- (١٥) فهرس الأوائل.
- (١٦) فهرس الأماكن والبلدان والأشياء.
- (١٧) فهرس الوقائع والأحداث والأيام.
- (١٨) فهرس الملائكة.
- (١٩) الفهرس البلاغي.
- (٢٠) الفهرس النحوي.
- (٢١) الفهرس الصّرفي.
- (٢٢) فهرس أسماء الكتب.
- (٢٣) فهرس العلوم.
- (٢٤) الفهرس الفلكي.
- (٢٥) فهرس التوقيعات والرسائل والخطب والوصايا.
- (٢٦) فهرس الأمثال وبديع الأقوال.
- (٢٧) فهرس الألسن واللغات.
- (٢٨) فهرس الفروق.
- (٢٩) فهرس العلل والأسباب.
- (٣٠) فهرس القصص والحكايات واللّطائف.
- (٣١) فهرس التواريخ.
- (٣٢) فهرس أبيات الشعر وأنصافها.

(٣٣) فهرس الأخطاء الشائعة.

(٣٤) فهرس الكلمات الأعجمية.

(٣٥) فهرس المزاعم والادعاءات.

وتضمّن الجزء الثاني على فهرس خمسة:

(١) المقتبس من القرآن الكريم في الصحيفة السجادية.

(٢) قاموس الصحيفة السجادية في رياض السالكين.

(٣) الفهرس المقارن بين نهج البلاغة والصحيفة السجادية.

(٤) الهادي إلى رياض السالكين / في المواد والمواضيع.

(٥) فهرس نتائج الفهرسة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

\* \* \*

## الهوامش:

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٤٦٨، كتاب الدعاء، باب: إن الدعاء سلاح المؤمن، الحديث: الأول، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلامية طهران.

(٢) السيد ابن طاووس، علي بن موسى، كشف المحجة لثمره المهجة: ١٦٥، المطبعة الحيدرية ١٣٧٠، النجف الأشرف.

(٣) لا يخفى على أرباب البيان أن هذه التسمية من باب التشبيه الذي يكفي فيه الاشتراك في صفة ما تُسمّى وجه الشبه، وليس فيه دلالة أصلاً على أن مطلق هذه التسمية يعتقد بأن الصحيفة السجادية من الكتب السأوية.

(٤) الطهراني، الآقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٥: ١٨، الطبعة الثانية، دار الأضواء بيروت.

(٥) الذريعة ١٣: ٣٤٦.

(٦) الذريعة ٦: ٢٨٢.

(٧) الذريعة ٣: ٤٣٥.

- (٨) الذريعة ١٣: ٣٤٧.
- (٩) الذريعة ١٣: ٣٤٧.
- (١٠) الذريعة ١٣: ٣٤٦.
- (١١) الذريعة ٣: ٣٤.
- (١٢) راجع: كتاب سلوة الغريب للمترجم له، ومقدمة كتاب الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، ومقدمة كتاب رياض السالكين.
- (١٣) راجع مقدمة أنوار الربيع.
- (١٤) راجع مقدمة الدرجات الرفيعة للسيد محمد صادق بحر العلوم.
- (١٥) خاتمة الحقائق الندية للمترجم له.
- (١٦) راجع: أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ٨: ١٥٣، تحقيق وتحرير حسن الأمين، نشر دار المعارف للمطبوعات، بيروت.
- (١٧) رياض العلماء ٣: ٣٦٦.
- (١٨) كشف الحجب والأستار: ٣٠٠، الطبعة الثانية ١٤٠٩، نشر مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم.
- (١٩) أعيان الشيعة ٨: ١٥٢.
- (٢٠) الغدير ١١: ٣٤٧، الطبعة الرابعة ١٩٧٧، دار الكتاب العربي بيروت.
- (٢١) مقدمة الحقائق الندية في شرح الصمدية.
- (٢٢) مقدمة رياض السالكين (للسيد محسن الأميني) ١: ٢٠.
- (٢٣) راجع: الذريعة ١١: ٣٢٦.
- (٢٤) رياض السالكين ٧: ٤٥٢.
- (٢٥) الذريعة ٦: ٢٨٨.
- (٢٦) راجع: الذريعة ١١: ٣٢٦.



## مكتبة السيد المرعشي

### نتاج ضخم<sup>٢٠</sup> وصرح<sup>٢١</sup> ثقافي كبير<sup>٢٢</sup>

#### □ إعداد: قسم التحقيق

التقاط الكتب وشراؤها وتجميعها وتخزينها!!  
هواية عند البعض، وشكل من أشكال الترف الثقافي عند بعض آخر، وربما عادة سيئة بنظر آخرين. وبالفعل، فلنا أن نتساءل عن سر الإصرار على تجميع الكتب وتخزينها، وعن الرغبة القاتلة التي قد تكون وراء هذا الإصرار.  
ولكننا أبداً، لا نستطيع أن نعمم الحكم على جميع من تُشاهد ملامح هذه الظاهرة لديه، فليس هذا الفعل هواية عند الجميع، ولا ترفاً عند الجميع، ولا هو لمجرد التزيين والتباهي عند الجميع، كما أنه في الوقت عينه ليس ضرورة عند الجميع..

لا يمكننا أن ندخل في تقييم أي فعل من الأفعال إلا إذا قرأناه في سياق النوايا والدوافع والأغراض المحفزة إليه، والتي كانت سبباً وراء الإقدام عليه، وفي سياق المجهود الذي بُذل في سبيله، والإنجازات التي ترافقت معه، وأخيراً في سياق التداعيات والآثار والنتائج العملية الواقعية التي ترتبت عليه، والتي تكشف عن مدى التزام صاحب القضية بها وبالأهداف المرسومة لها. وكل

قراءةٍ لا تقوم بملاحظة هذه الخطوط واعتبارها، فهي، ولا شك، قراءةٌ براء وناقصة.

لقد ترك المرحوم آية الله العظمى السيّد شهاب الدّين المرعشي النّجفي رحمه الله تراثاً ضخماً وهائلاً من الكتب والمخطوطات والنّفايس التّاريخيّة، التي لم تنحصر في الإطار الإسلاميّ الخاصّ، فضلاً عن الشّيعيّ الأخصّ - وإن كان لهذه الحيز الكبير في زوايا هذه المكتبة وفروعها - بل إنّ تعدّاه ليشمل مختلف الموضوعات والمسائل والمباحث المطروحة، وفي كافّة المجالات والصّعد. وقد شرّعت هذه المكتبة أبوابها أمام المحقّقين والباحثين من شتى أقطار العالم؛ لتقدّم لهم مادّةً علميّةً غزيرةً بالمحتوى والمضمون، غنيّةً بالاختصاصات والفنون، قيّمةً من الوجهة الاجتماعيّة، وضرورةً ملحّةً في عمليّة دراسة السّيرورة التّاريخيّة للحياة البشريّة.

إنّ الدّور الذي لعبته هذه المكتبة، ولا تزال، في السّاحة الثّقافيّة الإسلاميّة لا يُمكن أن يخفى على أحدٍ من النّاس، ولا يتسنى لأحدٍ إنكاره أو تعمية العيون عنه، إنّ لجهة إثراء التّحقيقات والأبحاث المعاصرة بالمصادر والمراجع اللاّزمة، أو لجهة المساهمة في حياة فصولٍ من أحداث التّاريخ الثّقافيّ للأُمّة، أو لجهة نفّس غبار الزّمان عن الكتب المؤلّفة قديماً من قبل الشّخصيّات العلميّة الكبيرة والمعروفة، أو لجهة المزيد من تفعيل الحركة والنشاط في بازار الثّقافة الإسلاميّة. ولهذا، فلا يُمكن للشّكّ في عظمة هذا الصّرح أن يقرّر له قرارٌ في نفوسنا، ولو للحظّة واحدة، بل لا يسعنا إلّا أن نقوم بطرده خائباً حسيّراً، مُستبْعدين معه كلّ فكرةٍ أو وسوسةٍ تدّعي أنّها لا ترى فيه سوى التّرف أو العبث أو مجرّد الرّغبة؛ فإنّ عظمة الإنجاز، وعموم الفائدة، وروعة التّناجج والثّمار، كلّها أدلّة ساطعة، على أنّ هذا المشروع لا يُمكن أن يكون وليداً لغير الوعي، بل أقصى درجات الوعي والمعرفة، ولا يُمكن أن يكون ناشئاً إلّا عن بصيرةٍ ثاقبة وعزيمةٍ راسخة

وهمّة عالية.

ولئن كان الأثر - كما يقولون - يدلّ على المؤثر، فإنّ عظمة الأثر - أيضاً - تدلّ على عظمة المؤثر وصاحب المشروع. ولا نريد هنا أن نخوض في سرد تفاصيل حياة الفقيه المرعشي؛ إذ أنّ الوقوف عندها يحتاج إلى بسطٍ وبيانٍ وتحليلٍ وأخذٍ عبرٍ، وهذا ما يخرج عن عهدّة وطاقة هذه المقالة. وإنّما نحاول تسليط الضوء على بعض مفاصل حياة هذا العظيم بما له ارتباطٌ بكيفيّة تشييد هذه المكتبة، والدّوافع الكامنة وراء ذلك، والتّضحيات والمشاقّ التي كابدها وتحملها لبلوغ هذا الهدف، الذي هو مُصدّق - قطعاً - للعلم الذي يُتّفَع به، والذي جاء في الحديث:

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث: علّم يُتّفَع به بعد موته، أو صدقةٌ جارية، أو ولدٌ صالحٌ يدعو له»<sup>(١)</sup>.

### الشّراكة الأولى

ولنستمع هنا إلى ما يقوله السيّد محمود المرعشيّ نجل الفقيه الراحل متحدثاً عن والده، يقول<sup>(٢)</sup>:

«لقد تشكّلت النّواة الأولى لهذه المكتبة عندما كان المرحوم والدي يسكن في النّجف الأشرف أيام تخصّيله في الحوزة العلميّة آنذاك، وكان قد وصله من جهة والده وجده بعض الكتب والمخطوطات انتقلت إليه عن طريق الإرث، إلّا أنّ هذا لوحده لم يكن كافياً لجعله يلحّ ويتشددّ بكلّ جدّيّة في جمع النّسخ الخطيّة، بل كان السّبب أمراً آخر. والسّبب يحدثنا عنه المرحوم نفسه، يقول: في أحد الأيام، كنّنا ما رآ في سوق القيصرية بالنّجف، وإذا بي أرى تجمّعاً لعددٍ من أهل العلم أمام أحد المكتبات. اقتربتُ لأرى ما الخبر، فرأيتُ شخصاً متكلّماً على

عصاه مُفترشاً الأرض بمجموعةٍ من الكتب كان قد عرضها بسعراً منخفضاً، وكانت هذه هي العادة لدى كثيرٍ ممن يُتَوَقَّى أقاربهم، فيقومون ببيع كتبهم بعد مهامهم. توقفتُ قليلاً لتصفّح عناوين هذه الكتب، والتي كانت كلّها من الذخائر الشيعية والإسلامية، فلفت انتباهي شخصٌ كانوا يُنادونه باسم (كاظم)، وكان هذا الشخص يشتري أكثر هذه الكتب المعروضة، وبسعرٍ مُرتفع، سألتُ عنه، فقالوا لي: إنّه موفد القنصلية الإنكليزية في بغداد - وكان العراق آنذاك لا يزال يرزح تحت نير الاحتلال الإنكليزي -، فرجعتُ حائراً أقلب الفكر وأقول ببني وبين نفسي: نحن مُسلمون ومن أهل العلم، ولكنّ هؤلاء ليسوا كذلك، فلماذا يبادرون إلى شراء النسخ الخطيّة لكتبنا الإسلامية وتجميعها؟! وما غرضهم من ذلك؟! ثمّ خطر ببالي: أنّ المسألة لا يُمكن أن تكون بهذه البساطة، بل حتماً، هناك سرٌّ وغرضٌ خفيٌّ. وهذا الغرض لا يُمكن أن يكون خارجاً عن أحد أمرين: فإمّا أنهم يريدون إتلاف هذه الكتب وإعدامها من الوجود أصلاً، وإمّا أنهم يريدون أن يُصادروا المصادر الإسلامية الأولى التي كانت بأيدي ثلّة قليلة من علمائنا حتّى لا تصل أيدينا إليها، كما حدث ذلك بالنسبة لكتاب (مدينة العلم) للشيخ الصدوق، والذي - كما يُقال - هو كتابٌ مفصّلٌ وجامعٌ في مجال الحديث، ولو كان هذا الكتاب متوافراً اليوم، فربّما كان بإمكاننا أن نستغني به عن الكتب الأربعة....».

كانت هذه الحادثة الشرارة الأولى التي أوقدت نار الغيرة على الدّين وأهله في قلب هذا العظيم، وهكذا هم عظماء القوم، تحرّكهم القضايا الكبرى وتستثيرهم الهموم التي تَسع أمة الإنسان ككلّ، ولا تشغلهم الجزئيات العابرة ومحقرات الأمور.

كان ﷺ يعلم أنّ قوى الظلم والاستكبار العالميّ تقوم على الهيمنة وتقتات

على المُستضعفين، على دمائهم وأرواحهم وأوطانهم وثقافتهم وفكرهم وأديانهم، ولولا ذلك لما كان لها وجودٌ ولا ديمومةٌ ولا بقاء . كان ﷺ يرى في فُقدان كتابٍ، أو حبسه عن أيدي أهله، إضاعةٌ للعلم، وإمعاناً في تخلف الأمة وتأخرها عن الرُّكب الحضاريّ. لقد كان ﷺ يعي جيداً قيمة الكتاب، ويعلم جيداً مدى الخطورة التي يُشكّلها على هذه القوى المُستكبرة الطاغية، وأنها لا تحكم العالم بثقافتها وحضارتها وتقدمها، بل بضعفنا نحن، وتأخرنا نحن، وجهلنا نحن، فسلّاح هذه القوى سلاحٌ ذو شِفتين، فعلمٌ تكتنزه لنفسها لتقوى وتنهض به، وجهلٌ هي على أتم السُّرور والاستعداد لتقدمه لنا، مع ما يُرافق الجهل من آفاتٍ وويلات، أقلّها الفقر والعوز الذي يضرب في شرايين هذه الأمة.

هذا ما كان يُفكر به (شهاب الدّين) الطّالب الشّابّ بحوزة النّجف العلميّة، وهذه هي الأحاسيس التي كانت تملّكه وتزلزل كيانه، الخطر الشّديد المُحدق، لا به شخصياً، بل بكلّ أفراد هذه الأمة. فكان لا بدّ للإرادة الهادئة أن تتنفّض، وكان لا بدّ للعزم أن ينعقد، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، كما يقول المتنبي.

### كيف كان البدء بعملية التّجميع؟!

كانت الحالة الماديّة للسّيّد المرعشيّ ﷺ آنذاك لا تتجاوز الحالة العاديّة لأيّ طالبٍ من طلّاب الحوزة؛ حيث لم يكن لديه من الإمكانيّات ما يسمّح له بشراء الكتب، ولكنّ ذلك أبداً لم يمنعه من متابعة العزم والإصرار اللّذين تولّدا وترّيا لديه حتّى صاروا شُغله الشّاغل، ولم تتمكّن نفس هذا الطّالب، الكبيرة الكبيرة، من الاقتناع بهذه الحجّة الصّغيرة الصّغيرة!! فكانت أولى الخطوات التي اعتمدها أن قام بإعداد فهرسٍ للكتب المخطوطة والمطبوعة النّادرة، عسى أن يتمكّن من اقتنائها والحصول عليها تدريجياً، وهو ما يدلّك على امتلاك الرّجل،

مضافاً إلى الحسّ الدينيّ العالي، لذهنيّة منظّمة وقّادة، لا تُعرف أنّها يجب عليها أن تتحرّك فحسب، بل تُعرف - أيضاً - من أين يجب أن تبدأ بالحركة. وبعد أن اتّضحت له معالم الطّريق، أدرك أنّ عليه أن يذللّ جميع الصّعوبات والمشاقّ التي يُمكن أن تواجهه أو أن يضطّدم بها أثناء سيره. فأخذ يبيع وسائله الخاصّة أو حتّى ثيابه، أو يرهنها، ويتنفع بثمنها المتواضع في شراء الكتب، ولم يقف عند هذا الحدّ، بل إنّه حذف وجبة من طعامه اليوميّ، وجبة الغداء، التي كان يدّخر ثمنها - أيضاً - لشراء الكتب، حتّى أنّه في سبيل شراء كتابٍ تحمّل الجوع أياماً، إلى أن وُفق إلى توفير ثمنه، ثمّ عندما اشتراه وحصل عليه، كان الجوع قد أنهكه، فوقع على الأرض مغشياً عليه وهو يحمل الكتاب ويتمسّك به. ونذر نفسه للصّلاة والصّوم نيابةً، وكان يقوم بالعمل ليلاً في مُستودع الأرز في النّجف الأشرف، بل ولم يذهب إلى الحجّ طيلة حياته؛ إذ كان يُنفق الأموال التي كانت تصله في هذا السّبيل، الذي شخّص مُنذُ البداية أنّه حاجةٌ للإسلام والمُسلمين جميعاً تفوق في أهمّيّتها ولذتها، أهمّيّة ذهابه إلى الحجّ، ولذّة أن يُمتّع ناظره برؤية تلك النّواحي المقدّسة.

وإذا سلّمنا جدلاً أنّ كلّ هذه التّضحيات لا تخرج عن حدّ المعقول والمُمكن، فلا نظنّ أنّ أحداً يجسر على افتراض اليُسْر أو السّهولة في التّعرّض للحبس في سبيل الحصول على نُسخة خطيّة من كتابٍ واحد!! حتّى تدخل لإخراجه من السّجن عدّد من مراجع ذاك الزّمان بعد أن كان قد بات ليلته هناك، إثر تشاجره مع سمسار القنصل البريطانيّ.

كانت هذه الأحداث تتواصل إلى جنب دراسة آية الله السيّد المرعشيّ رحمته الله على فطاحل الحوزة العلميّة وجهابذتها، والتي كان يُتابعها بكلّ جدّيّة وانتظام، حتّى بلغ في العلم شأنًا وارتقى منه مُرتقى عظيمًا، فنال درجة الاجتهاد، التي هي أعلى مرتبة يُمكن للطّالب أن يصل إليها في الحوزة العلميّة.

وبعد أعوامٍ من نيّله الاجتهاد توجّه لزيارة الإمام الرضا عليه السلام بمشهد المقدّسة عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م. وفي طريق عودته توقّف في طهران لمواصلة الدّراسة والبحث، وحضر عند أساتذتها الكبار. إلى أن حطّ الرّحال أخيراً في مدينة قم، فاختار السّكن فيها نزولاً عند رغبة مؤسّس حوزتها العلميّة آية الله العظمى الشيخ عبد الكريم الحائريّ رحمه الله. ومن يومها، بدأ بالتّدريس هناك، حتّى أصبح بعد مدّةٍ يسيرة من مدرّسي الطراز الأوّل فيها، وممن يُشار إليه بالبنان. ليُصبح بعد مدّةٍ ليست بالطويلة، من مراجع التقليد العظام عند الشّيعة، فكان له عشرات الألوف من المقلّدين الذين يأخذون معالم دينهم عنه، وقد توزّع هؤلاء على مختلف البلدان الإسلاميّة والعربيّة، بالإضافة إلى إيران طبعاً.

لم يألُ الله جهداً في إرساء دعائم الحوزة الجديدة وتشييدها، فكان واصل التّدريس في معاهدها لمدّةٍ تصل إلى (٦٧) عاماً متتالية، حيث كان يُلقّي في اليوم الواحد عشر دروس، كما أنّه أمّ الصّلاة في حرم السيّدة المعصومة عليها السلام فيما يزيد على نصف قرن، وبلا انقطاع يُذكر.

كانت حصيلة هذه الجهود تخريج الآلاف من الطّلاب الذين أصبحوا اليوم من المدرّسين الكبار، في الحوزة كما في الجامعة. مضافاً إلى قيامه ببناء وتأسيس العديد من المعاهد العلميّة والمساجد والحسينيّات والمراكز الصحيّة والمكتبات داخل إيران وخارجها، ومؤلّفاتٍ وأبحاثٍ عديدة تكشف عن سعة اطلاعه وتعمّقه الغزير في كلّ ما يتناوله. كما يُسجّل له رحمه الله أنّه واحدٌ من رواد الدّعوة إلى الوحدة الإسلاميّة ورصّ الصفوف وتوحيدها.

ولكن، لا شكّ في أنّ الذي يُمكن اعتباره حصيلة العمر بالنّسبة إليه، والذي يُسجّل في صحيفة أعماله البيضاء، هو قيامه بتأسيس وإنشاء هذه المكتبة العامرة، التي اختار أن يعيش إلى جانبها، وأن يُدفن إلى جوارها؛ حيث يكون قبره ممراً

للباحثين والمحققين، والعلماء والأجلاء وطلبة العلوم. نعم، إلى هذا المستوى وصل عشق هذا السيد للعلم والمعرفة، وكأنه كان يرى من نفسه تقصيراً تجاه خدمة العلم وأهله، حتى أبى على نفسه أن يدفن جسده إلا حيث ينبعث عطر العلم ويفوح عيره، كما كتب في وصيته قائلاً: «أدفنوني عند مدخل المكتبة كي تطأني أقدام باحثي العلوم الإسلامية ومحققها». فسلامٌ عليه يوم وُلِدَ ويوم مات ويوم يُبعث حياً.

#### أهداف تأسيس المكتبة:

كان ما يرمي إليه السيد المرعشي رحمته الله - والذي عرفته الأوساط العلمية والثقافية باسم «حافظ التراث الكبير» - من خلال جمعه للتراث الإسلامي، وإقامة مركزٍ كبيرٍ لحفظه واستفادة الباحثين منه، تحقيق أهدافٍ عدةٍ نوجزها بما يلي:

١. إيجاد مركزٍ ثقافيٍّ إسلاميٍّ دوليٍّ كبير، يبين مراحل التطور والإنجازات العلمية العظيمة للمسلمين خلال (١٢) قرناً خلت.
٢. التوسعة من رقعة الثقافة والبحث والتحقيق في المجتمع.
٣. إيقاف الباحثين على المصادر التراثية المختلفة التي يحويها هذا المركز، والإشارة إلى الكثير مما لم يرد في الكتب المنشورة عبر عمل فهرسٍ بذلك.
٤. جمع المخطوطات الإسلامية النفيسة، ووضعها في مركزٍ كبير؛ صوناً لها عن السرقة والتهريب إلى خارج الوطن الإسلامي بكل امتداداته.
٥. إعطاء أهميةٍ كبيرةٍ لجمع المخطوطات القديمة، وخصوصاً الأصلية منها التي دُوِّنت بخطوط مصنفها أنفسهم، أو النسخ المصححة من قبلهم مباشرة.
٦. إعداد وجمع مصوراتٍ فيلميةٍ للمخطوطات الإسلامية النفيسة التي تم تهريبها من إيران والبلدان الإسلامية خلال القرن الماضي، وضممتها أمهات



المكتبات في العالم، تعميمًا للفائدة.

٧. نقل هذه الخزانة البشرية العظيمة بأمانةٍ كاملةٍ إلى الأجيال الآتية؛ ليقفوا على الميراث الكبير الذي تركه لنا السلف، وليستفيدوا منه في عملية تدوين تاريخ العلوم بشكلٍ موثّق.

٨. إعداد المصوِّرات والمعالجة والترميم للكثير من مخطوطات التراث الإسلامي، الذي لم يصلنا إلّا بشقّ الأنفس، وبعد مروره بالعديد من الكوارث، التي تتنوّع إلى كوارث طبيعيّة، كالحرائق والرطوبة والسيول والزلازل، وأخرى من صنّع الإنسان، كجهل الناس بقيمتها الحقيقيّة، أو إهمال الحكّام وأصحاب السّلطة للعناية بها، أو محاربتهم لأصحابها وملاحقتهم وإتلافهم لكتبهم، والذي كان نتيجةً لاستفحال الخلافات المذهبيّة والطائفيّة والسياسيّة على امتداد الزمان.

#### مراحل التطوير والتوسعة:

بعد عودته من العراق عام ١٣٤٢هـ، قام الفقيه المرعشيّ بنقل التراث الذي كان قد استطاع أن يجمعه، وحفظه أوّل الأمر في منزله، وما لبث أن عاد إلى نشاط التنقيب والتجميع الذي كان قد بدأه في العراق. أسفر هذا المجهود المتواضع عن حيازته للعديد من ذخائر الكتب النادرة التي لم يكن العثور عليها ممكنًا في إيران إلّا عنده، وشيئًا فشيئًا، ومع شياخ خبر المكتبة وأنباء شموليّتها، بدأ أساتذة الجامعات بالتوافد على منزله للاستفادة من الكتب المتوفّرة.

ورويّدًا رويّدًا، بدأ المكان يضيق بالكتب، بعد أن كانت قد حُصّصت بها حجرتان لاحتوائها، فأقدم سباحته على إهداء العديد من المخطوطات النفيسة والكتب القيّمة إلى المكتبات الإسلاميّة المختصّة في أنحاء إيران.

ثمّ في العام ١٣٨٥هـ أقدم السيّد المرعشيّ رحمته الله على إنشاء مدرسة علميّة في

مدينة قم، سُمِّيَتْ بـ «المدرسة المرعشيّة»، فخصَّصَ حجرَتَيْنِ منها للمكتبة، ولكنَّ ما لبثتُ الحِجْرَتَانِ أَنْ امتلأتَا عن آخرهما، ممَّا جعله يُنْقَلُ قَسْماً منها إلى الطَّابِقِ الثَّالِثِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ فِي السَّنَةِ نَفْسِهَا، وَافْتُتِحَتِ الْمَكْتَبَةُ فِي مَرَامِسِ حَضَرِهَا جَمْعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَمُدَرِّسِي الْحَوْزَةِ الْعِلْمِيَّةِ آنَذَاكَ.

أَدَّى الْإِقْبَالُ الْمُتَزَايِدُ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالْمُحَقِّقِينَ عَلَى هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ إِلَى تَعْزِيزِ الشُّعُورِ بِضَيْقِ الْمَكَانِ وَالْحَاجَةِ إِلَى تَوْسِيعَتِهِ، فَتَمَّ شَرَاءُ قِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ قِبَالَ الْمَدْرَسَةِ الْمُرْعَشِيَّةِ، وَوُضِعَ الْحَجَرُ الْأَسَاسُ بِيَدِ الْمُرْعَشِيِّ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ فِي الْعَامِ ١٩٧٠ م، لِيُفْتَتَحَ الْمَبْنَى الَّذِي حَمَلَ اسْمَ «الْمَكْتَبَةِ الْعَامَّةِ لِآيَةِ اللَّهِ الْعَظْمَى الْمُرْعَشِيِّ النَجْفِيِّ» فِي الثَّالِثِ مِنْ أَيْلُولِ عَامِ ١٩٧٤ م، بِأَكْثَرِ مِنْ سِتَّةِ عَشَرَ أَلْفَ كِتَابٍ مَطْبُوعٍ وَمَخْطُوطٍ، وَذَلِكَ بِحَضُورِ جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنْ أَسَاتِذِهِ وَمُحَقِّقِي وَطَلَبَةِ الْحَوْزَةِ الْعِلْمِيَّةِ بِقَمٍ. بَلْ أَدَّى إِقْبَالُ الْبَاحِثِينَ وَالْمُحَقِّقِينَ وَطَلَبَةِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْجَامِعِيِّينَ الْمُتَعَاظِمِ بِالْوَاقِفِينَ عَلَى الْمَكْتَبَةِ إِلَى إِضَافَةِ ٥٠٠ مِترٍ مَرَبَّعٍ آخَرَ إِلَى الْمَبْنَى بِشَرَاءِ قِطْعَةٍ أَرْضٍ أُخْرَى عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْمَكْتَبَةِ وَإِلْحَاقِهَا بِالْمَكْتَبَةِ، فَبَاتَتْ مَسَاحَةُ طَوَابِقِهَا الْخَمْسَةِ ٤٥٠٠ مِترٍ مَرَبَّعٍ.

وَمُجَدِّدًا، أَدَّى تَدَفُّقُ طُلَّابِ الْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ الْحَوْزَوِيَّةِ وَالْجَامِعِيَّةِ عَلَى الْمَكْتَبَةِ إِلَى الْإِحْسَاسِ بِضَيْقِ الْقَاعَاتِ الْمَخْصُصَةِ لِلْمُطَالَعَةِ وَالْبَاحِثِينَ، مِمَّا دَعَا الْإِمَامَ الْحَمِينِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ مُؤَسَّسَ الْجُمْهُورِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فِي ١٤/٣/١٩٨٩ م إِلَى إِصْدَارِ مَرْسُومٍ دَعَا فِيهِ الْحُكُومَةَ إِلَى أَنْ تُعْنَى بِتَوْسِيعِ الْمَكْتَبَةِ عَلَى عَجَلٍ، بِالتَّنْسِيقِ مَعَ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ الْمُرْعَشِيِّ رَئِيسِ الْمَكْتَبَةِ. وَعَقِيبَ ذَلِكَ، قَامَتِ شَرَكَةُ التَّأْمِينِ الْوَطَنِيَّةُ بِإِهْدَاءِ مَبْنَاهَا الْقَدِيمِ لِمُصَالِحِ تَوْسِيعَةِ الْمَكْتَبَةِ، وَقَامَ الْمُتَوَلَّى بِشَرَاءِ عَدَدٍ مِنَ الْمَنَازِلِ وَإِضَافَتِهَا إِلَى الْمَكْتَبَةِ.

وَبَعْدَ الدِّرَاسَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَإِعْدَادِ الْخَرَائِطِ اللَّازِمَةِ، وَجَوْلَةِ الْخَبْرَاءِ سَنَةً فِي

عددٍ من البلدان، تفقدوا خلالها المكتبات المهمة في العالم، ضرب السيّد المرعشيّ المعول الأول إيداناً بالشروع في البناء في ٢٠ ذي الحجة ١٤١٠ هـ. ولكنّ يد المنية كانت أسرع إلى سماحته من ساعة رؤية الحلم الكبير يتحقّق، حيث لبّى ﷺ النداء الإلهيّ بعد ٤٧ يوماً من الشروع بالبناء، عن عمرٍ ناهز ٩٦ عاماً، ليتولّى بعده نجله السيّد محمود المرعشيّ إدارة المكتبة بكافة فروعها وأقسامها، وهو حالياً يتابع عمل والده بكلّ عزيمة وإصرار، بعد أن وقف إلى جانب والده في الاعتناء بالتراث منذ ريعان الشباب.

#### مكانة المكتبة بين مكتبات العالم:

تعدّ المكتبة من حيث عدد المخطوطات الإسلامية النادرة والقديمة ونوعها، والتقنيّات المتبعة في حفظ المخطوطات وترميمها وصيانتها، المكتبة الأولى في إيران، والثالثة في العالم الإسلاميّ، وقد بات لها صيتٌ كبيرٌ لدى المحقّقين والباحثين داخل إيران وخارجها.

ومّا جاء في الخطاب الذي وجّهه قائد الثورة مؤسس الجمهورية الإسلامية الإمام الخمينيّ ﷺ إلى الحكومة الإيرانية في ١٤ / ٣ / ١٩٨٩ م قوله:

«إنّ مكتبة سماحة آية الله السيّد المرعشيّ النجفيّ - دامت بركاته - من المكتبات التي قلّ نظيرها، ونستطيع القول: إنّها منقطعة النظير...».

إنّ مسيرة التنمية والتّطوير والتّوسعة التي تشهدها المكتبة في الوقت الحاضر، والاتّصالات الموسّعة التي تُجرىها مع المراكز الثقافيّة المختلفة في كلّ أقطار العالم، ودخولها في سلك التقنيّات الحديثة، وفتح أبوابها أمام الباحثين، ستجعل منها، بمشيئة الله تعالى، في عداد أولى مكتبات العالم في المستقبل غير البعيد.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) عوالي اللّثالي: ٣: ٢٨٣، مطبعة سيّد الشهداء، قم، ١٤٠٤هـ، ط ١.
- (٢) جاء ذلك في حديثٍ أجرته معه مجلّة (أخبار شيعيان) الشّهريّة الصّادرة في مدينة قم المقدّسة في عددها السّابع عشر.

## مارون الراس

### عصية على الأرجاس<sup>٢٥</sup>

□ إعداد: حسن دقيق

بعد مرور سنة على الانتصار الساحق الذي حققته المقاومة الإسلامية في لبنان على العدو الإسرائيلي في حرب تموز ٢٠٠٦، بدأت تتسرب مجموعة من الحكايات يظهر فيها بطولة رجال الله الذين سطرّوا أروع البطولات والملاحم في بلاد عاملة وأبي ذرّ الغفاري (رضي الله عنه)، سواء على لسان المجاهدين الأبطال الذين صنعوا هذا النصر، أم على لسان الجنود المنهزمين من جيش العدو الإسرائيلي. وقد نشرت جريدة السفير اللبنانية جملة من هذه الحكايات، أحببنا أن ننشر بعضها في مجلة رسالة الثقلين؛ تعميماً للفائدة.

#### الحكاية الأولى: الليلة التي سلّت فيها السكاكين

من جملة الحكايات التي نُشرت على لسان الجنود الإسرائيليين ما نشرته صحيفة «معاريف» الإسرائيلية في عددها الصادر في (٢٩ / ٦ / ٢٠٠٧)، وذلك مع اقتراب الذكرى السنوية الأولى للحرب الإسرائيلية على لبنان في

الثاني عشر من تموز من عام ٢٠٠٦؛ حيث كتب مراسلها العسكري عمير ربابورت تقريراً مفصلاً، تضمّن فصلاً من المعركة التي خاضها الجنود الإسرائيليون مع مقاومي «حزب الله» في جنوب لبنان، مركزاً على معركة مارون الراس وما تخلّلها من أسرارٍ واتّصالاتٍ بين ضبّاط الميدان وقيادة الجيش الإسرائيلي. ونقلها هنا هنا بحرفيتها نقلاً عن صحيفة السّفير اللّبنانيّة، الصّادرة في تاريخ: ٣٠ / ٦ / ٢٠٠٧؛ لما تحمله من دلائل على العناية الإلهيّة التي رافقت المجاهدين الشّرفاء، وتُظهر الوهم الَّذي تحمله النفوس المنهزمة حول قدرة جيش العدو الإسرائيلي؛ ليتمّ التّصديق بعد ذلك بالمقولة المشهورة التي أطلقها سماحة الأمين العام لحزب الله، ومفادها: «أنّ إسرائيل أوهى من بيت العنكبوت».

### نصُّ الحكاية:

المعلومات الاستخباريّة عن «المحميّات الطّبيعيّة»، أي: الملاجئ تحت الأرض التي أقامها نصرُ الله في جنوب لبنان بعيداً عن أيّ مكان سكن، بقيت داخل صناديق، كُتِب على كلّ صندوقٍ أيّ الملفات التي يشتمل عليها. وقد حُظيت كلّ محميّة بملفٍّ يخصّها. كانت التّفصيلات كثيرة، وإنّ لم تكن كاملةً أو حديثةً تماماً، بيد أنّها بقيت مخزونةً في مكاتب قسم الاستخبارات في قيادة الشّمال.

حرصت شعبة الاستخبارات في هيئة القيادة العامّة (أمان) على ألاّ تنشر المعلومات الحسّاسة بين المستويات الميدانيّة تحت مستوى القيادة. كان خوفُ أنّه إذا تسرّبت المعلومات وتبيّن لحزب الله أنّها وصلت إلى الجيش الإسرائيلي، فإنّه يبحث عن مصادره حتّى ينجح في «إحراقها». كان الحذر شديداً جداً، إلى حدّ

أنّه لم يُسلّم المحلّلون الَّذِينَ فحصوا عن الصُّور الجوّيّة التي تَمّت في جنوب لبنان من أجل احتياجاتٍ استخباريّةٍ، نقاط التَّعين الدّقيقة للمحميّات الطَّبيعيّة. لم يعرف قائد المدفعية في قيادة الشّمال العقيد يوسي سار، الَّذي طُلِب إليه أن يستعمل النَّار لمحاولة التَّشويش على إطلاق القذائف الصَّاروخية، ولم يعلم حتّى أن جزءاً كبيراً من الاطلاقات يتمُّ من داخل المحميّات الطَّبيعيّة. في الحقيقة إنّ شعبة الاستخبارات طوّرت نُظماً حاسوبيةً للنَّشر السَّريع للمعلومات الحسّاسة ساعة الحاجة، لكن بسبب الأفضليّة التي أُعطيت لسنين القتال في المناطق لم تُرتّب في الشّمال.

الحذر الشّديد في الحفاظ على المعلومات مخصَّص بالطَّبع للأوقات العاديّة فقط. لم يكن هناك نيّة أن تظلّ المعلومات المهمّة مخزونة ساعة الحرب عندما يكون الأمر ضرورياً للقوّات، لكن هذا بالضبط ما حدث.

وهكذا، ففي يوم الأربعاء التّاسع عشر من تموز، بعد أسبوعٍ من نشوب الحرب، وجدت قوّة صغيرة من الوحدة الممتازة «مغلان» نفسها فجأةً في قلب موقع كهذا لحزب الله، لم تعلم بتفصيلاته ومجرّد وجوده. كانت القوّة في إحدى العمليّات البريّة الأولى في الحرب، في إطار سلسلةٍ من العمليّات القريبة من الحدود. كان الهدف المتواضع جداً وقف إطلاق قذائف الرّجم وقذائف المدافع التي أُطلقت بلا انقطاع نحو بيوت القرية الزراعيّة «أفيفيم» وقيادة الجيش الإسرائيلي المجاورة للقرية الزراعيّة. تمّ الإطلاق من تلّ داخل لبنان على بعد بضعة مئاتٍ من الأمتار عن الحدود، واسمه «جلّ الدّير» كان عليه حتّى الانسحاب من الشّريط الأمني موقع «شكيد» للجيش الإسرائيلي.

أُرسلت القوّة الصّغيرة ثمانية عشر جندياً فقط؛ لإقامة برج مراقبة يُحدّد مصادر إطلاق النَّار لحزب الله. كان بالصّدفه أحد الضُّباط في القوّة، رجل

احتياط وقائد سرّية في ماضيه، ابناً للواء احتياط أهارون زئيفي - فركش، الذي أنهى عمله رئيساً لـ «أمان» قبل الحرب بنصف سنة.

تحت غطاء الظلام حلّ المحاربون بجوار تلّ شكيد، وغطّوا أنفسهم بشبكات إخفاء وبأغصان، وخُصّصت أربع دبابات للتغطية من بعيد. عندما طلع النهار بدأت القوة تحاول أن تُحدّد من أين يُطلقون النّار على أفيفيم. في الساعة (٤٠١١) فقط أدرك الجنود أنّهم موجودون داخل موقع لحزب الله فيه مواقع كثيرة، ليست أقلّ تغطيةً من مواقعهم. القنبلة اليدوية التي ألقتها الجنود على إحدى الآبار أصابت شبكة تغطية. مُطّت الشبكة وعادت القنبلة اليدوية إلى القوة، وعند ذلك فُتحت النّار من عدّة اتجاهات.

اتّصل قائد «مغلان» المقدّم أليعيزر هاتفيّاً بقائد فرقة الجليل، العميد غال هيرش.

«إقطع كلّ كابل تراه في الميدان» أمره هيرش.

استعمل محاربو حزب الله الكوابل للاتّصال من نقطة إلى نقطة.

ساد الخوف في التلّ، لكن لم يكن هناك وقت فراغ للتّفكير فيه. دار القتال بين الصّخور. كان الرّقيب أوّل يونتان هداسي، والرّقيب أوّل يوتام غلبوع أوّل قتيلين من الجيش الإسرائيلي في عملية برّية منذ اتّخاذ قرار الخروج من الحرب، وأصيب تسعة محاربين آخرين.

أخافت أصوات الانفجار الدّجاج في أحمام القرية الزراعيّة أفيفيم. قصفت طائراتٌ ومروحيّاتٌ قتاليّة الوادي بين شكيد وأفيفيم للتغطية على تخليص الجرحى. وأمطر الجنود الذين جرّوا مع الحملات بقذائف الرّجم، وكان رفاقهم النّازفون عليها.

ابتدأت النّبّاتات الصّيفيّة الجافة تشتعل، وغطّى دخانٌ كثيفٌ ميدان القتال.



في غرفة عمليّات «مغلان» من وراء أحمام الدجاج في القرية الزراعيّة، احتضنت الجنديات بعضهنّ بعضاً وبكين.

في تلك اللحظات خطرت فكرة في قيادة فرقة الجليل: أدركوا فجأة أنّ الإنذارات التي لا تنقطع، التي تمّ الحصول عليها في الفترة قبل الحرب من «لينكولن»، الجهاز الذي خُصّص لتحديد مواقع سقوط قذائف الرّجم على حسب دوي الانفجار، شهدت في الحقيقة على عمليّات الحفر داخل تلّ شكيد. أصّر لينكولن على أن يُبلّغ لأشهر عن القذائف التي لم توجد، وفي مرحلة ما كفّوا عن البحث عن آثار إطلاق النّار. تبيّن في ظهيرة التّاسع عشر من تموز ٢٠٠٦ أنّ الانفجارات التي عرفها لينكولن كانت أصوات الحفر في المحميّة الطّبيعيّة جلّ - الدّير.

المحميّة التي تبيّنت تفصيلاتها في المادة الاستخباريّة المخزونة في القيادة، كان يُسيطر عليها نحو من عشرين من أفراد حزب الله. أكثرهم محاربو مشاة ذوو كفاءة عالية من القوّة الخاصّة للمنطقة، يمرّ جنودها بتدريبات في إيران، يبدو أنّ خمسة منهم قُتلوا في المعركة.

في تلّ شكيد بدأ الجيش الإسرائيلي القتال البرّي في لبنان بداية سيّئة. لقد فعل ذلك على نحوٍ متردّد، بغير إظهار تصميم، وبغير تظاهر بمضاءلة إطلاق الصّواريخ نحو الشّمال ولو قليلاً. تخلّى الجيش الإسرائيلي عن امتياز كبره كجيشٍ يعدّ بمئات الآلاف من المحاربين، وواجه منظّمة عددها على حسب التّقديرات من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف شخصٍ في جنوب لبنان. بدل أن يُغرق المنطقة بقوّة عظيمة مع استغلال التّفوّق الجوّي التّام، أو الاكتفاء بأهدافٍ محدودةٍ يُمكن إحرازها بعمليّة من الجوّ فقط، زحف الجيش الإسرائيلي إلى أهدافٍ غير مهمّة كان لحزب الله فيها امتياز واضح؛ لأنّه يعرف المنطقة

معرفة أفضل، وهو في مواقع محمية.

سلك الجيش الإسرائيلي سلوكاً يخالف أكثر مبادئ القتال أساسية: تركيز الجهد في قطاع ما، والحفاظ على توالي القتال واستمراره، ونقل ساحة المعارك إلى أرض العدو، وتقصير أمد الحرب قدر المستطاع؛ للتخفيف من معاناة الجبهة الداخلية. كانت هذه المبادئ سائدة في أيام وزير الدفاع الأول دافيد بن غوريون، الذي أسس الجيش الإسرائيلي، وبقيت سائدة عشرات السنين بعد موته. وهي تُدرس في دورات القيادة التعليمية الأقل شأنًا، لكنها أُهملت في هذه الحرب على علم.

#### يجب تغيير القرص:

في اليوم الذي دفعت فيه وحدة «مغلان» دماً عن العملية في شكيد، كان الجمهور والقيادة ما يزالان لم يدركا كامل معنى حقيقة أن الجيش الإسرائيلي موجود في قتالٍ شديدٍ لعدو ذي خبرةٍ وتدريب، مزودٍ بوسائل متقدمة. أنشأ الإعلام الإحساس بأن كل قتيلاً يشهد بالتقصير في هيئة القيادة العامة، صُعب عليهم أن يفهموا كيف تورطت عملية برية سهلة نسبياً للسيطرة على منطقة بقرب أفييم. ولم يفهم وزير الدفاع غمير بيرتس - أيضاً - لماذا يُقتل الجنود؟! وخاب أمل رئيس الحكومة إيهود أولمرت.

على الرغم من ذلك، في نقاشٍ في المجلس الوزاري السياسي - الأمني المصغر، الذي أُجري في ذلك اليوم، عُرِضت صورة متفائلة. بعد الجلسة فقط تبين للوزراء النتائج الشديدة للمعركة في شكيد. اتصل وزير المواصلات شاؤول موفاز، الذي اضطر أن يترك حقيبة الأمن قبل ذلك ببضعة أشهر، برئيس الفريق في ديوان رئيس الحكومة يورام توربوفيتش، وطلب الحديث إلى أولمرت. رجع أولمرت إليه عند منتصف الليل تقريباً.

«قل لي ما هذه العملية؟» تحرّش وزير المواصلات.  
دافع رئيس الحكومة عن نفسه قائلاً: «أجرتُ لهم أن يدخلوا ١٠٥ كيلومتر فقط».

موفاز: «في ١٠٥ كيلومتر مئات من أفراد حزب الله؟! أولمرت: «لا أستطيع أن أراقب هذه العملية. سأحدّث إلى رئيس الأركان الذي سيفحص مرّة ثانية عن عمليّات كهذه».  
في الحقيقة أن رئيس الأركان دان حلوتس طُلب إليه أن يُقدّم تفسيرات، لكنّ العميد غال هيرش قائد الفرقة (٩١) هو الذي كان موجوداً في هذا الوضع الأعوج. كان الضابط القصير القامة ما زال لم يثب إليه رشده من اختطاف جنود الاحتياط، ومن الأحداث الشديدة التي صاحبت ذلك. وكان قد شعر أنّهم في الأعلى في القيادة غير راضين عنه بقدر كبير، وأنّهم وضعوا عليه علامة.

الحقيقة أن الأمر كان كذلك. كانت العملية في شكيد يمكن أن تنتهي من غير أن يعلم حزب الله بها، وبغير طلقة واحدة، لكنّ التورط فجر كلّ شيء.  
سبقتها نقاشات بين قائد الفرقة (٩١) وبين قائد المنطقة الشماليّة أودي أدام. كان توجه كلّ واحدٍ منهما مختلفاً. في اليوم الثاني للقتال علّق هيرش وراء ظهره في غرفة العمليّات بخطّ يدوي: «حرب». وقد دفع إلى تنفيذ إجراءات بريّة على أرض لبنان وإلى تجنيد رجال الاحتياط في الفرقة.

«دعونا نعبر الحدود، دعونا على الأقلّ نفنّذ عمليّة جلسات صحيحة، (خطّة لقيادة الشّمال للسيطرة على مناطق وراء الحدود؛ لمنع إطلاق نار مباشر على البلدات، ولكي تصبح قاعدة لهجوم واسع وقت الحاجة)».

طلب هيرش من القيادة، واشتكى من أنّهم يُقيّدون يديه، وشعر بأنّ قائد

منطقة الشمال لا يُدرك أنه نشأ وضعٌ جديدٌ، وأنه يجب تغيير القرص.

أدام من جهته، خاف جداً من مبادرات هيرش. بعد التورط في شكيد وُجد في القيادة الشماليّة شعوراً بأن هيرش يستخفّ مرّةً أخرى بالمستويات فوقه، كما حدث أكثر من مرّة في الماضي. زعموا في القيادة أنّه وعد بعملية هادئة وقاد إلى معركة صعبة. كان الضّغط على هيرش عظيماً. بدا كئيباً، لكن مزاجه النّفسي أصبح أكثر هجومية ممّا كان قبل المعركة على التلّ وراء الحدود.

فكّر هيرش في الهدف القادم: السيطرة على قرية مارون الراس، التي تقع على جبلٍ ارتفاعه (٩١٧) متراً فوق سطح البحر، وسيطر على تلّ شكيد وعلى منطقة أفنيم. قبل التورط في شكيد نجح هيرش في إقناع القيادة بالحاجة إلى السيطرة على مارون الراس.

وُلدت هذه الخطة نتيجة أمرٍ عسكريٍّ وجهته هيئة القيادة العامة إلى قيادة المنطقة الشماليّة في السّابع عشر من تمّوز، في اليوم الذي خطب فيه إيهود أولمرت في الكنيسة خطبته «إلى هنا».

طُلب إلى القيادة أن تنفّذ إجراءات يدخلان أرض لبنان في كلّ ليلة. في ليل المعركة على شكيد خرج محاربو لواء المظليين بقيادة العقيد (حاجي مردخاي) إلى منطقة قرية عيتا الشعب، قرب مكان اختطاف ريغف وغولد فاسر، أمّا كتيبة الاستطلاع الدّرزية المسماة «حيرف» فأُرسلت إلى قرية مروحين، ولم تلق هناك مقاومة ذات شأن.

### هذه مهمّة انتحارية:

سقط الأمر العسكري باحتلال مارون الراس من القيادة على الفرقة (٩١) في يوم الأربعاء في السّاعة السّابعة والنّصف صباحاً، قبل أربع ساعات من

المواجهة في شكيد. في أثناء النهار فُرض على فرقة هيرش مهمة أخرى: أن يُرسل محاربي وحدة أغوز لاحتلال المحمية الطبيعية التي أُقيمت عند سفح قرية يارون، غربي أفيغيم، تجاه القرية الزراعية دوفاف. من هناك - أيضاً - أُطلقت نارٌ متوالية على إسرائيل. بادر إلى هذه العملية خاصّة فرقة المظليين المنتخبة «عمود هايش» التي يقودها العميد إيال أيزنبرغ بتنسيق مع القيادة. لكن في اللحظة الأخيرة تقريباً تقرر نقلها لتكون من مسؤولية فرقة هيرش، بعد أن اشتكى هذا على مسامع أدام من أنه «لا يمكن أن تتمّ عملية على مبعدة عدّة عشرات من الأمتار عن الجدار وألا تكون لفرقتي».

هيرش، الذي جرى ذهاباً وإياباً في المنطقة الواسعة التي تحت مسؤوليته (بعد أربعة أيام من طلب نائب رئيس الأركان اللواء موشيه كابلسكي من أدام أن يقسم المنطقة بين الفرقة (٩١) وبين الفرقة (٢٦٢) وما زال الأمر لم يتم)، دخل عمق العملية في محمية يارون قبل وقتٍ قصيرٍ من خروج القوّة في طريقها. كان العقيد داني كاس، قائد لواء الاحتياط المنتخب (٥٥١) الذي كان محاربوه لم يُجندوا بعد، كان يفترض أن يقود العملية من قبل مفرزة «عمود هايش». تحمل المسؤولية عن وحدة أغوز النظاميّة وأمر قادتها بتخطيط العملية.

كان العميد إيرز تسوكرمان، وهو قائد فرقة احتياط مدرعة في قيادة الشمال، ضابطاً آخر وجد نفسه مشاركاً في الخطة لاحتلال محمية يارون. تسوكرمان، وهو قصير القامة وخشن، نشأ في الكوماندو البحري. كان القائد الأوّل لوحدة أغوز التي أُقيمت في ١٩٩٥ وقائداً للوحدة البحرية (١٣) وقائداً للواء غولاني زمن الانفصال. في أعماله السابقة قاد تسوكرمان عدداً لا يُحصى من أعمال الغزو في جنوب لبنان وعرف كل سبيل في المنطقة تقريباً.

كان تسوكرمان خائب الأمل لأن فرقته لم تُطرح في المعركة. حاول أن يدفع

إلى القتال، لكنهم في قيادة القيادة الشمالية رأوه ملحاحاً لا شفاء له. ومع أسفه انضم إلى قائد منطقة الشمال السابق عميرام لفين وإلى العميد موشيه تامير، الذي حلّ محله في قيادة أغوز. حاولوا أن يفكروا معاً في خطط لقيادة الشمال، لكنهم لم ينجحوا في تسويق أفكارهم وتلاشت المبادرة.

يوم الأربعاء ظهراً، بعد أن خلّص محاربو مغلان أنفسهم من شرك المحمية الطبيعية في موقع شكيد، اتصل تسوكرمان بقائد الوحدة المقدم أليعيزر. «أنا فخور بكم»، قال له بالهاتف المحمول المشفر للجيش الإسرائيلي. شعر أليعيزر بأنّ التعزيز غير المتوقع أعطاه قوة لـ ١٢ ساعة أخرى من القتال. بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ تلقى تسوكرمان - أيضاً - مكالمَةً هاتفيةً مفاجئة، كان على الخطّ ضابطٌ في الوحدة. هو وإيرز يعرف بعضهما بعضاً جيداً من الأيام التي كان فيها تسوكرمان قائداً لأغوز وللواء غولاني.

قال الضابط لإيرز: «هل أنت في الشمال؟ أنا بحاجة الى أن تأتي». وجاء إيرز. انحنى قادة أغوز فوق خرائط في مرأب في غابة برعام، بقرب أيفيم. أصبحت الطّاولات الخشبية للكيرن كيمت مقاعد لغرفة العمليات الحربية. كان هناك الضّابط الذي اتصل بإيرز، وقائد أغوز - أيضاً - المقدم مردخاي كهانا وضباط آخرون. لم يبدُ عليهم أنهم فوجئوا بزيارة قائد الوحدة وقائد اللواء سابقا.

في الساعة الرابعة بعد الظهر كان الجوُّ ما يزال حاراً، لكنّ الأشجار القديمة ظللتهم. شجبت وجوه ضباط أغوز الذين انحنوا فوق الخرائط كلما تعمّقوا في تفاصيل خطة السيطرة المخطط لها على المحمية الطبيعية. فقد عرفوا جيداً أنّ الخبرة الأساسية لأغوز بالحرب في لبنان ضعفت ضعفاً شديداً في السنين التي عملت فيها الوحدة، كالجيش الإسرائيلي كله، في محاربة «الإرهاب الفلسطيني» في المناطق. أثبتت المعركة في شكيد مبلغ كون احتلال مواقع حزب الله مهمّة

خطرة، وإن كانوا في هذه المرحلة ما زالوا يعتقدون أنَّ المحميَّة الطبيعيَّة هي في الأكثر كهفٌ أو ملجأً أرضي. الآن - أيضاً - بعد تورُّط مغلان، بقيت المعلومات المفصلة عن المحميات الطبيعيَّة مخزونةً في صناديق القيادة. ما زالت القوات لم تعلم بأنَّ كُلَّ واحدةٍ من المحميَّات هي نظام ملاجئ أرضية من الإسمنت وفيها أبوابٌ فولاذية، وسلام، ومنافذ طوارئ، ومنافذ هرب وشبكة وسائل تضمن اتِّصلاً متواصلاً، بعضها محسوب.

إلى جانب تحدِّي احتلال المحمية الطبيعيَّة أقلق قادة أغوز الخوف من أن تنكشف القوات في الطَّريق؛ لأنَّ مسار الوصول إلى قرية يارون مرّ في منطقة منخفضة من ناحية طبوغرافية. أوضح تحليل المنطقة أنَّ المحاربين في الهدف نفسه سيكونون مكشوفين لإطلاق النار عليهم من الخلف. قال المقدم كهانا: «هذه مهمة انتحارية».

كان العميد تسوكرمان قلقاً. «جيئوني بدرع»، طلب. «أنا صاعدٌ إلى الفرقة من أجل التَّنظيم لأدخل مع القوات في الميدان. من ذا يعلم كم من الوقت سنكون في الدَّاخل». كان يبدو قائد الفرقة كمن وجد هدفه في الحرب آخر الأمر.

لم يعتمد الضُّباط في أغوز البتة على غال هيرش، القائد الذي رأوا أنَّه أرسلهم إلى المهمَّة. على الرَّغم من أنَّه شارك في عمليَّاتٍ كثيرةٍ في لبنان كفائد لوحدة شلداغ، وفي طائفةٍ من المناصب التي شغلها في لواء المظليين، شعروا بأنَّه لا يعيش مثلهم الميدان في لبنان، وكانوا يرون أنَّ من نشأ في أغوز فقط يعرف حقاً كُلَّ تلٍّ وكُلَّ نقبٍ معرفةٍ حميمة. بدل إشراك غال في الضَّائقة التي كانوا فيها ومشاورته في ما يتعلَّق بصعوبة احتلال محميَّة يارون. فضَّل القادة الاتِّصال بتسوكرمان وبالعَميد موشيه تامير، الذي انتظر في ذلك الوقت تعيينه قائداً

لفرقة غزة، لسماع رأييهما. استمرّت الهواتف المحمولة ترن. بعد أن ترك تسوكرمان غابة برعام تلقى مكالمّة هاتفيةً أخرى، من حاغي بيلغ، القائد الثالث لأغوز، الذي حلّ لحينه محل موشيه تامير. ترك بيلغ الجيش الإسرائيلي بعد انتهاء عمله في أغوز وعيّن قائداً للوحدة الشرطية الخاصة لمحاربة الإرهاب. حاول الآن - أيضاً - أن يندمج في الجهد القتالي. حدّد الضابطان، تسوكرمان وبيلغ، اللذان تجوّلا في الشّمال بلا عملٍ محدّد، موعداً للجلوس على فنجان قهوة. في اللقاء تحدّث تسوكرمان لبيلغ عن المهمّة الانتحاريّة المعدة لأغوز. قرّرا أن يخطّوا خطواتٍ لإحباط العمليّة المخطّط لها.

اقترح بيلغ قائلاً: «تحدّث إلى كابلان». فنائب رئيس الأركان اللّواء موشيه كابلنسكي (كابلان) ينتمي مثلها إلى ما يُسمى «الكتلة العسكرية الحاكمة من خريجي غولاني» في الجيش الإسرائيلي. قبل تسوكرمان النّصيحة. توجه إلى كابلنسكي واقترح هذا: قلّ لكهانا (قائد أغوز) إنّّه إذا كان يرى أنّ في المهمّة إشكالية، فليقل إنّّه لا يستطيع تنفيذها. أنت تعلم حال قادة الكتائب، أجب تسوكرمان، فهم ينفّذون الأوامر العسكريّة دائماً. وقرّر أنّ كهانا لن يرفض أبداً. على رغم ذلك ساعد هذا الإجراء. نُقلت رسالةٌ أنّه يجب وقف العمليّة في يارون من هيئة القيادة العامّة إلى قائد المنطقة أودي أدام. فحص هو نفسه عن خطّة احتلال يارون وألغاها. عندما حصل هيرش على إعلام بأنّ العمليّة في يارون ملغاة اعتقد بسذاجة أنّ الحديث عن قرار ينع من تقلّب القيادة. فقد ضباط أغوز - من جهتهم - الثّقة بتقدير هيرش، وبلغت شائعاتٌ إلى فرقة الجليل أنّ أفراد غولاني يكيدون له. وتمّ الحديث عن أنّهم «مشتاقون إلى درجة الموت» إلى استبدال موشيه تامير بهيرش، وهو الذي يلقّبونه «دوبرمان»؛ لكي ينقّص أمانهم على حزب الله مع سكّين بين أسنانه.



إنَّ انعدام الإطراء إلى حدِّ العداء في القيادة العسكريَّة تجاوز كثيراً حدود القيادة الشَّمالِيَّة. وجَّه ضباطُ مظلُّون كبار - أيضاً - في تلك الأيام نقداً لاذعاً إلى عمل قائد الفرقة (٩١). إنَّ جزءاً من الأقوال التي صدرت عن الضُّباط عن هيرش وجدت طريقها إلى الإعلام. كانت الحملة عليه تعبيراً متطرِّفاً عن أنَّ الصَّدَاقَة، والرَّفقة العميقة في كُلِّ ظرفٍ التي قدَّسها جيل البلماخ، قد اختفت من قيادة الجيش الإسرائيلي، فقد نشأت العداوة بدل الصَّدَاقَة الحقيقيَّة، كما قال حلوتس في خطبة استقالته.

#### الأسرى أطلقوا في الحال:

لكن على رغم التَّشاحن، كان يجب الاستمرار في القتال. سُلمت قيادة العمليَّة البريَّة المهمَّة الأولى - احتلال مارون الراس - إلى قائد اللِّواء (٣٠٠)، اللِّواء الغربي على حدود لبنان، العقيد حين لفني. كانت غرفة العمليَّات الحربيَّة قائمةً في أحد الكيوتسات، قرب الجدار الحدودي.

بدأت العمليَّة في مارون الراس في اللَّيلة بين الأربعاء والخميس، بين ١٩ - ٢٠ تموز. سيطر محاربو كتيبة استطلاع المظليَّين بقيادة المقدَّم نمرود ألوني على الجزء الشَّمالي من القرية. على رغم أنَّ اسم «مارون الراس» يشهد أنَّ المكان كان في الماضي متّصلاً بالمسيحيَّين الموارنة في لبنان؛ فإنَّ الحديث اليوم عن قريةٍ شيعيَّة فيها عددٌ قليلٌ من السُّكان المسيحيَّين.

قامت القرية الصَّغيرة، وعددها نحوُّ من ثلاثة آلاف ساكن في الحصيلة العامَّة، في مركز معارك الجيش الإسرائيلي في أيَّام حرب التَّحرير، واحتلَّت - أيضاً - في عمليَّة اللَّيطاني في ١٩٧٨، وفي حرب لبنان الأولى. أبرز مبنى في القرية هو المسجد بالطَّبع. كان النِّظام القتالي الَّذي أقامه حزب الله قبل ذلك

محصوراً في قلب القرية، في جزئها الأعلى. وكان هناك - أيضاً - موقع استخباري مغطى عمل في التَّنصُّت على قوَّات الجيش الإسرائيلي. المدرسة المحليَّة، التي كانت مغلقة أصلاً في شهور الصَّيف، لعبت دورها كموقع قتاليٍّ في أوقات الطَّوارئ. احتشد نحو ٢٥ مقاتلاً من حزب الله هناك، ٢٥ فقط. وكان بضع عشراتٍ آخرون منتشرين في مناطق أخرى في القرية.

بدأت المعركة على نحوٍ ناجح. وجَّه قائد الكتبية نمرود نار الصَّواريخ التي أُطلقت من الجوِّ ومن البرِّ نحو ٣٤ هدفاً في القرية. بدأ حزب الله ينقل جرحاه بذعرٍ نحو بلدة اللّواء المجاورة بنت جيبيل. وبدأت تصل أنباء عن أنَّ قائد قواتهم في مارون الراس قُتل. في مقابلة ذلك انقطع آخر الأمر إطلاق نار حزب الله على منطقة أفيميم. حقَّق محققون مع أسرى من الوحدة (٥٠٤) مع أحد السُّكَّان المحليين اعتُقل وهو يتجوَّل. قاد الجنود إلى مبنى كانت فيه محطة تنصُّت لحزب الله، موصولة بهوائي مدني في ظاهر الأمر.

كانت المعدَّات التي تمَّ الكشف عنها داخلها مفاجئة بنوعيتها. كان مصدرها إيران، ولم تكن لتخجل حتَّى وحدة التَّنصُّت (٨٢٠٠) في الجيش الإسرائيلي. تبيَّن أنَّ حزب الله من هذا المكان العالي تنصَّت على الجيش الإسرائيلي على مدار الأربع والعشرين ساعة في اليوم، لا على شبكات الاتصال وهواتف الوحدات في الحدود الشَّالِيَّة، بل على القوَّات التي عملت في المناطق أيضاً. فالأقوال التي قيلت على مبعده مئآت الكيلومترات التقطت هناك وسُجِّلت. كانت في حوزة أفراد الاستخبارات في حزب الله ملفَّات مفصَّلة عن المنطقة وعن قادة الجيش الإسرائيلي. خُصَّص ملفٌّ سميكَ على نحو خاص لغال هيرش، الَّذِي تمَّت مراقبته مراقبة لصيقة.

كان تجارب الانتفاضة ما تزال تكوي رؤوس القادة. أرادوا في الجيش

الإسرائيلي أن يروا في مارون الراس صورة نصر بارزة، مثل صورة مئات الفلسطينيين يرفعون أيديهم خاضعين ويُسلمون سلاحهم في قلب طولكرم في أثناء عملية «السور الواقى» في نيسان ٢٠٠٢، بل إنَّ الشُّرطة العسكرية تلقت أمراً بأنَّ تعدَّ إعداداً سريعاً موقع سجنٍ في معسكر فيلون بقرب روش بينا؛ لاستيعاب مئاتٍ من أفراد حزب الله الأوائل الذين سيقعون في الأسر، هناك.

عندما طلع صباحٌ جديد على مارون الراس، في يوم الخميس، تحدّث هيرش بالهاتف إلى قائد الكتيبة نمرود، وقال له هذا: إنَّ جنوده عدُّوا (١٣) جثةً للمخربين. أسرع هيرش إلى إبلاغ رئيس الأركان بذلك بفخرٍ غير خفيٍّ: «تدور المعركة على نحوٍ ممتاز! هناك (١٣) جثة». كانت هذه بُشرى ممتازة لحلوتس. لقد أراد أن يعرض على الجمهور وعلى المستوى السَّياسي الجيش الإسرائيلي في أفضل حالاته.

اتَّصل رئيس الأركان باللواء أدام وحثّه على أن ينقل صور أسرى وقتلى من حزب الله. اتَّصل قائد المنطقة المقدّم نمرود لطلب صور. كان عددٌ من المحاربين مزوّدين بآلات تصويرٍ رقميّة، في إطار إجراء يُسمّى «توثيقاً عملياً». لم يتحمّس قائد الكتيبة للفكرة: «أيُّها القائد! نحن غير مستعدّين لتعريض الجنود للخطر من أجل جلب صور جثث».

«إذا كان الحديث عن تعريض جنودٍ للخطر من أجل التَّصوير، فلا حاجة إذاً، أنت على حقّ»، أجابه أدام.

لم يُسهم فشل مهمّة الإتيان بصور قتلى في العلاقات المتعكّرة بين أدام وحلوتس، ولا في صورة هيرش أيضاً. وقد شكّوا في الكرياه (مقرّ وزارة الدِّفاع) في تلّ أبيب في أن تكون عدّت في الميدان (١٣) جثة، واعتقدوا أن أدام تبجّج فقط. وغضُّوا أيضاً؛ لأنّه لم يُعتقل في مارون الراس أسرى ما عدا مارة

عارضين أطلقوا فوراً.

آنذاك بدأت الأمور تتعقد. قلة مقابل كثرة، لكنَّ أفراد حزب الله الأحسن تدريباً وتجهيزاً من «المخربين» الفلسطينيين في المناطق، رفضوا الاستسلام في مارون الراس. أُصيبت دبابتان للجيش الإسرائيلي بصواريخ أُطلقت عليهما في قلب القرية. كان ذلك كما يبدو السَّبب في أنْ شعر قائد اللواء حين لفني بالضيق وطلب تعزيزات. قرّر غال هيرش، الذي كان في قيادة الفرقة في بيرانيت، أن يُرسل إلى الميدان وحدة أغوز. بعد ذلك زعم هيرش أن التعزيز كان يرمي من جهته إلى «استغلال النجاح» ومن أجل «تعميق الإنجاز». بيد أن قادة أغوز وجنودها لم يفهموا حقاً أنَّهم ماضون في مهمة «استغلال النجاح»، بل العكس. تلقى قائد الوحدة المقدم مردخاي كهانا رسالة: «أسرع إلى قيادة اللواء (٣٠٠)، هناك تورط في مارون الراس». عندما وصل غرفة العمليات الحربية تقدّم مباشرة إلى قائد اللواء لفني.

«القوة متورطة. يجب علينا أن نحاول مساعدتها»، قال لفني.

«إنَّهم موجودون في نقطة في الجزء الشَّامي من القرية. ادخل واحسم المعركة». واحتج كهانا بقوله: «هل أدخل في وضوح النهار؟». «أجل. في أسرع وقت ممكن. لا مناص. يجب علينا تخليصهم. لن يكون ذلك ذا صلة في الليل». أجاب قائد اللواء.

كانت السَّاعة العاشرة صباحاً. لم يزن كهانا - وهو أحد القادة الشَّجعان في الجيش الإسرائيلي، يضع على رأسه قبعة دينية صغيرة غير مرئية تقريباً، وهو ابن أخ قائد حركة «كاخ» الذي قتل الحاخام مئير كهانا - إمكانية رفض الأمر العسكري. فقد كان حزيناً جداً؛ لأنَّه قبل ذلك بيوم لم يبادر إلى الخروج في مهمّة احتلال المحمية الطَّبعية في يارون.

في الساعة الواحدة ظهراً كان محاربو أغوز تحت قيادته مُركّزين في ساحة الكنيس القديم في برعام. في اليوم الثامن من الحرب كانت الوحدة الأكثر خبرةً في الجيش الإسرائيلي بالقتال في لبنان، وإن لم تكن مدربةً بقدرٍ كافٍ أيضاً، توشك أن تُطرح لأوّل مرة في المعركة. ثلاث سرايا، حقائب على الظهر، وأجهزة اتصال، وحمّالات جرحى، وأسلحة. تمّ توجيه أخير من القائد وخروج في الطريق سيراً على الأقدام. بعد ساعتين ونصف كانوا موجودين داخل وطيس المعركة.

شاهد مراقبو حزب الله في المنطقة دخول أغوز مارون الراس في ظهيرة اليوم. البُعد بين المباني داخل القرية كبير. لا أرضفة أو نباتات. لم يكد قائد أغوز كهانا وقائد المظليين ألوني يتبادلان كلمة، على رغم أنّهما عملا على مبعده بضع مئات من الأمتار بعضهما عن بعض.

قراءة الساعة الثالثة والنصف بعد الظُّهر بدأت المعركة الشديدة. قُتل محارب السرية «ب» من أغوز في لقاء لمخرب في مدخل بيت في القرية. لاحظت قوة السرية «ج»، التي تولّى قيادتها الرائد بنيامين هيلمان، حركة سيارة مربية سافرت الى الشمال نحو بنت جبيل لنقل الجرحى. فتح الجنود النار عليها ويبدو أنّهم أصابوها، لكنهم استوعبوا فجأةً أنّهم موجودون على منحدرٍ مُعرّضين لنارٍ من مدى بعيد من حزب الله. بعد مرور بضع ثوان أُطلق عليهم صاروخ ساغر مضاد للدبابات. سرعة الصّاروخ قليلة، يمكن أن يُرى مقترباً، تاركاً وراءه مساراً دقيقاً من النار، لكن لا وقت كافياً للهرب منه.

كانت الإصابة قاتلة. قُتل بنيامين هيلمان، وقُتل معه اثنان من جنوده. استمرّ الهجوم. اختفى فجأة الرقيب أوّل يهونتان فولسيوك، الذي حاول الوصول الى الجرحى. العدد الكبير من المصابين وبخاصة الجندي المفقود سبّب الجنون.

غمرت هاتف غال هيرش مكالمات من القيادة. نُقلت أوامر انسحاب مذعورة إلى القوّات في الميدان لكنّها أُلغيت فوراً. منذ تلك اللَّحظة أصبحت المهمّة الرّئيسة تخليص المصابين وتحديد موقع الجندي المفقود.

هبط الظّلام. طلب كهانا تجميد الوضع. لم يكن مستعداً لأن يترك بغير المحارب المفقود. كان الخوف الكبير من أن يكون يهونتان قد قُتل وأن تقع جثته في يد حزب الله. زحف محاربون مع تعريض أنفسهم لخطرٍ كبيرٍ نحو بيوت انهارت لإصابة صواريخ مضادة للدبابات ذاتها للبحث عن رفيقهم. منحت قنابل مضيئة أُطلقت من قذائف نوراً خافتاً لكنّه ضروري. شعر قائد المنطقة أدام بأنّ العمليّة قد خابت. وصل إلى غرفة العمليّات الحربيّة ورأى قائد اللواء لفني يجلس فاغر العينين موحياً بالدّعر. من غير أن تكون أمامه خرائط مكبرة للقرية أو مخطّطات معركة.

في الخلف في خط النّار قنابل مضيئة، سقطت فوق مارون الراس على نحوٍ لا ينقطع.

«لماذا تطلقون قذائف رجم؟» سأل اللواء بحيرة.

«لسنا نحن بل حزب الله»، أجابته غرفة العمليات من غير معرفة صورة الوضع الحقيقيّة.

«إذا كان هذا حزب الله فاقتلوهم»، قال أدام. اتّصل مذعوراً بقائد الفرقة هيرش.

«لا تقلق، كلّ شيءٍ تحت السّيطرة»، قال هيرش، الذي لم يعلم من أين يتحدث القائد.

«تعال إلى غرفة العمليات في الحال»، سمع من الجانب الآخر من الخط. «سأُخرج لك القوّات من مارون الراس»، قال أدام عندما وصل هيرش.

بغير مقدمات لا حاجة إليها. كانت تلك لحظة الحسم في العلاقات بين القائدين الكبيرين. رواسب اجتمعت في أثناء أيام توالى فيها الإخفاقات أوشكت أن تثور.

«أودي، أودي، أودي»، تلفظ هيرش باسم قائد المنطقة. ابتعد كلاهما مهتاجين عن خيمة غرفة العمليات ووقفوا وراء حاوية معدنية ضخمة يستعملها مزارعو الكيوتس. لم يرفع هيرش وأدام صوتيهما لتعبهما وألمهما. «كُف عن الحديث إليّ عن كُلّ جريح وكُلّ قتيل»، قال هيرش.

«ستنتهي الحرب مع ٢٥٠ قتيل و١٥٠٠ جريح، وستكون طويلة. يجب التصرف كما في الحرب»، أضاف.

«أوكي، سيكون قتلى، لكن لا داعي إلى التبرّع بهم الآن إذا كان يمكن الانتظار»، أجابه قائد المنطقة.

#### حلوتس يفقد الصبر:

لم يكن الضّغط على أدام من الأعلى أقلّ ثقلاً مما هو على هيرش. في أثناء المحادثة بقرب الحاوية رنّ الهاتف المحمول المشفّر. كان رئيس الأركان على الخط. عندما تحدّث إليه أدام لم يعرف أنّ مكبّر الصّوت في جهاز الهاتف في وزارة الدفاع في تل أبيب يعمل. لم يكن حلوتس المستمع الوحيد. فقد أحاطت به جماعة من الضُّباط من هيئة القيادة العامة. طُلب إلى أدام أن يُبلّغ عن إجراءاته القادمة.

«هناك إمكانية أن نحتل بنت جيبيل وعيترون من أجل إعطاء ردّ أوسع، وهناك إمكانية أن نُكمل فقط احتلال مارون الراس»، قال أدام لحلوتس.

«أعطني وقتاً أقرّر. أنا أعالج هذا». بعد أن قُطعت المكالمات سخر نائب رئيس

الأركان كابلنسكي من أدام وقال: «إنَّه يقترح احتلال جنوب لبنان كُلِّه». في نهاية المكالمة مع أدام بقي هيرش في غرفة العمليات الحربيَّة وجعل حين لفني ينام، ببساطة كما تسمعون. كان قائد اللواء مرهقاً تماماً، بعد ثمانية أيامٍ متتاليةٍ بلا نومٍ تقريباً. قاده هيرش نحو سيارة جيب هامر مع تدريب فولاذي وقفت وراء غرفة العمليات. «إسمع، أنا على ما يرام»، حاول لفني أن يعارض بصوتٍ واهن. لكنَّ قائد الفرقة ألحَّ: «يجب عليك أن تنام»، قال واحتضن لفني بحرارة. غطَّاه بكيس نوم وأصدر أمراً برجل اتَّصاله الخاص قائلاً: «لا يهتم من يتَّصل، لا تُمكن أي أحد من إيقاف حين».

بعد ذلك عاد إلى غرفة العمليات الحربية، وأرسل - أيضاً - ضابط الاستخبارات اللّواء لينام وقال للضُّباط الذين بقوا: «عندنا بعض مهمات ننفذها، لكن قبل كل شيء يجب أن نجد الجندي المفقود». الأركان بالهاتف: «قرَّرت أن أخذ إلى مارون الراس اللّواء ٣٥ (المظليين). أقمت في غرفة العمليات الحربية قائد الفرقة هيرش»، أبلغ. في هذه المرحلة فقد حلولتس صبره.

«ما الذي دهاك حتى أتيت بقائد اللّواء ٣٥ وبقائد الفرقة أيضاً؟ لماذا هناك مستوى قيادة؟» وجَّه رئيس الأركان القول بغضبٍ إلى قائد المنطقة. «أنت لا تفهم»، أجاب أدام. «أتيت بقائد الفرقة لينظِّم الأمر هنا؛ لأنَّه سيتولَّى قيادة المعركة شخصياً. هذا وضع تدخل قائد، لا مستوى قيادة آخر».

عندما استيقظ لفني من نومه لم تكن القوات المحاربة في مارون الراس تحت قيادته. أمر القائد أدام بنقل قيادة القتال في المعركة إلى قائد لواء المظليين العقيد حاغي مردخاي. تلقى مردخاي النُّبأ عندما كان مع جنوده على تلٍّ عند ضواحي عيتا الشَّعب، وكان يخطِّط كيف يستولي على قلب القرية. اضطرَّه تغيير



المهمة إلى أن يطوي قوات اللواء عن منطقة القرية بعد يومين من الاستعدادات، من غير أن يحدث أيّ غزو، ومن غير أن تُهاجم أهداف حزب الله بالصّواريخ كما تمّ التخطيط.

على رغم أنّ القوات لم تبلغ قلب قصبة عيتا الشعب، أُصيب أحد محاربي المظليين إصابة شديدة في تبادل إطلاق نار مع حزب الله. كان تخلص الجريح مصحوباً بلحظاتٍ طويلةٍ من التوتر. استدعى قائد اللواء مردخاي بشبكة الاتصال مساعدة سلاح الجو. بسبب الوضع الشّديد للجريح، تمّ الحصول لأوّل مرة منذ بدء الحرب على إذن بإدخال مروحية تخلص داخل أرض لبنان. حلّقت مروحية بلاك هوك مصحوبةً بمروحية مقاتلةٍ من طراز كوبرا، أمطرت ناراً لا تنقطع في محاولة لإبعاد أفراد حزب الله عن منطقة الهبوط المحددة. لكن تبين أنّ قطعة الأرض التي كان الجريح ملقى بقربها أضيق من أن تُمكن البلاك هوك من الهبوط.

قرّر الطيّار، بقرارٍ سريع، تنفيذ التّخلص بغير هبوط على الأرض. غرس ذيل المروحية في شجيرة وأدخلت حمالة الجرّحى إلى المروحية وعليها الجريح، وهو يخلّق على ارتفاع مترٍ عن سطح الأرض. بعد ذلك بجزءٍ من الثّانية ارتفعت البلاك هوك متجهةً إلى المستشفى في إسرائيل. في ذلك الليل كله، في وحدة الطيران التي تستعمل طائرات بلا طيار في مركز البلاد، دأب طيار احتياط ورجل من وحدة تحديد مواقع المفقودين، الرائد حين على عشرات الصّور الجويّة التي أرسلت من مارون الراس، محاولاً أن يحدّد موقع الجندي يهونتان فولسيوك. أرسل الجنود للفحص عن علامات تثير الرّيبة ظهرت في الصّور. بعد ١٨ ساعة من الجهد المتوالي تبينّت في الصّورة بقعةً ربما كانت تبدو مثل قدم جندي تظهر من بين أنقاض سورٍ انهار في القرية. أرسل الجنود إلى

نقطة تعرّف عليها حين، وحفروا بأيديهم بين طوب السور المنهدم، ووجدوا هناك ذاهلين جثة يهونتان. تبين أنه أصيب بصاروخ عندما جرى لتخليص جرحى قرب السور، وانهار السور عليه.

في ليل السبت فقط، عندما أعيدت جثة يهونتان إلى إسرائيل، انتهى كابوس أغوز. لم يسهم المحاربون كثيراً في الجهد القتالي العام في مارون الراس لكنهم عادوا مذهولين. وافق قائد الوحدة على الانسحاب فقط بعد أن حصل من قائد لواء المظليين على مهمة أن يحتل لمدة عدة ساعات منطقة في القرية كي لا يشعر جنوده بأنهم حاربوا عبثاً.

«تعالوا لا نشغل أنفسنا باعتبارات من ذا أدخلنا»، قال المقدم كهانا لجنوده بعد ذلك، عندما نزعوا سلاحهم داخل إسرائيل.

«تلقينا مهمة، أمراً عسكرياً. فعلنا أفضل ما كنا نستطيع فعله».

### تبديل الخيول في النُّزول:

جعلت المعركة في مارون الراس النّقد الذي وُجّه إلى كبار قيادة الشّمال، من الكرياه في تل أبيب يبلغ ذروته. عاد نائب رئيس الأركان كابلنسكي وقال لحلوتس: «لا يمكن أن يستمرّ الوضع على هذه الحال». طلب حلوتس أن يعلم ما هو نظام العلاقات بين قائد المنطقة وقائد الفرقة (٩١)، اتّصل باللواء إيال بن رؤوفين، نائب قائد منطقة الشّمال في الحرب، الذي كان في ذلك اليوم في قيادة الفرقة (٩١) ليساعد غال هيرش.

«صحيح، هناك توتر بين أودي وغال»، صدّق بن رؤوفين الأمر على مسامع رئيس الأركان. «لكن لا تقلق. أنا هنا. سيكون الأمر على ما يرام».

على رغم ذلك فقد حلوتس صبره. قرّر أن يعمل خلافاً لتصوّره، الذي

يقول إنه يجب منح القادة التعزيز في كُلِّ وضع تقريباً. وخلافاً كذلك لإحدى القواعد الأقدم، التي كانت مستعملةً منذ أيام الرومان، وهي فعل كُلِّ شيءٍ من أجل الامتناع عن عزل القادة في منتصف الحرب من أجل عدم المسّ بالروح المعنوية وعدم جعل قادة آخرين يشغلون أنفسهم بالبقاء الشخصي بدل إدارة المعركة. في غد ذلك صباحاً أعلن حلوتس بالهاتف إلى قائد منطقة الشمال: «قررت عزل غال هيرش».

صُعِبَ على أدام أن يدافع عن هيرش من أعماق قلبه، بعد أن اشتكى هو نفسه من وجود مشكلات معه وأنه غير منضبط. طلب إلى إيال بن رؤوفين، الذي كان قد عاد إلى قيادة المنطقة، أن ينزل إليه إلى الكور وهناك بشره بقرار رئيس الأركان.

غضب بن رؤوفين: «لا توافق على العزل على أي حال من الأحوال»، قال لأدام. فقد اعتقد أنه برغم جميع النقد الموجه إلى هيرش، فإنه من القادة الجيدين في الجيش الإسرائيلي.

«لا يمكن أن يُقيلوا غال، ليس هذا محققاً»، أضاف بن رؤوفين. من الإحباط عزل هيرش. لم يمض حلوتس إلى النهاية. لم يكن من المفترض أن يعلم هيرش بهذا الحدث من وراء ظهره، لولا رسالة هاتفية تلقاها من ابنته البكر أوري: «أبي، انتبه!» كتبت الفتاة وتحذّث عن رموز تلقتها من الإعلام تقول إن منزلة أبيها مختلة. اتّصل هيرش باللواء بن رؤوفين لاستيضاح هل إشاعة نيّة عزله صحيحة.

«وجد شيءٌ كهذا»، أجاب بن رؤوفين من غير أن يسخو بالتفصيلات. «دع ذلك! هذا وراءنا. المهم الآن استمرار القتال».

خاف قائد الفرقة أن يفقد الجبهة الخلفيّة الوحيدة التي بقيت له. لأول مرة

في أثناء الحرب طار إلى بيته في مروحية. أقام مع زوجته دونا ومع بناته الثلاث أربعين دقيقة، ثم قال لهن: «أصغين جيداً، لم أفقد صبري، ولم أفقد قدرتي على القيادة، ولم أخطئ أخطاء كلفت حياة ناس»، وأنداك ودّع أبناء العائلة وعاد إلى الشّمال، وحيداً كما لم يكن قط.

### الحكاية الثانية: مارون الراس، المعركة التي أبكت جنود العدو.

ليست معركة مارون الراس بحجم معركة وادي الحجير من حيث مدّة المواجهات أو اتّساعها جغرافياً، ولا من حيث الخسائر البشريّة التي ألحقها المقاومون بالإسرائيليين، ولا - خصوصاً - بعدد الدّبابات التي دُمّرت في ساحة المعركة.

لكن في مارون الراس دارت المواجهة البريّة الأولى داخل الأراضي اللّبنانيّة، وعلى بعد أمتارٍ من مركزٍ للقيادة الإسرائيليّة داخل فلسطين المحتلّة.. وفي مارون الراس كان لهزيمة إسرائيل وقع الصّاعقة على مستويات معنويّات الجنود والإرباك الذي تركته في صفوف قادتهم. عبرها تحطّمت معنويّات الغازي، وانكشف لجنوده بعضٌ ممّا يُجِبُّه له المقاومون. في مارون، أوهمت بسالة مواجهات المقاومين الإسرائيليين بأنّها تدور داخل الجليل الفلسطيني المحتل، بينما كان المقاومون على بعد أمتارٍ قليلةٍ من الحدود..

لم يتوقّع الغزاة أن يلاقيهم رجال المكان إلى عقر الدّار التي احتلّوا وتمركزوا وأقاموا فيها ثكنتهم ومركز قيادتهم الشّماليّة، وهم اللّذين اعتقدوا ربما أنّ الأرض ستخلوا من أهلها لمجرّد إدارتهم محرّكات دباباتهم والتّوجّه بها نحو الشّمال، نحو الجنوب اللّبناني.

لمارون التي ترتفع (٩١٧) متراً عن سطح البحر، موقعها الاستراتيجي العسكري الكبير.

تمسك البلدة، التي تمتد على جبل مارون، بالجليل الفلسطيني وقراه بيد، فيما تطال بيدها الأخرى المقلب اللباني، وفيه بنت جيبيل وعيترون ويارون والمواقع المحيطة بها. موقعٌ يخول المسيطر عليها التَّحَكُّمُ إلى درجةٍ كبيرةٍ هذه القرى كُلِّها، ويمنع المقاومة من النَّيل المباشر من المستوطنات الإسرائيلية التي تقع عند سفحها.

ولمارون الراس أهميّةٌ أخرى، فهي الحدّ الأوّل مع فلسطين المحتلة، شأنها بذلك شأن الكثير من القرى الممتدة على الخطّ الأزرق، وإن كانت تتفوّق عليها بالارتفاع.

عن معركة مارون الراس هذه الرواية حكاها أحد المقاومين للسّفير نقلها بحرفيّتها.

عندما خرج الإسرائيليون في ثامن أيار عدوان تموز ٢٠٠٦ من مستوطنة «أفيغيم» في الجليل الفلسطيني المحتل، في مهمّةٍ وصفها قادتهم وجنودهم بـ «البيسة»، كانوا يستهدفون إسكات الصّواريخ القريبة المدى التي كانت تطال «أفيغيم» وحقول المستوطنات القريبة التي أنشئ بعضها على أرضي القرى السّبع المحتلة..

خرجوا إلى جلّ الدّير في مارون الراس، وهي منطقة تبعد أمتاراً قليلةً عن الثّكنة العسكريّة الإسرائيليّة التي تحتوي على مركز قيادة المنطقة، وهي المنطقة نفسها التي أطلق عليها الإسرائيليون بعد عدوانهم، وما شهدوه فيها من مقاومة شرسة، تسمية «المحميّة الطّبيعيّة» في مارون الراس.

يروى «أبو حيدر»، وهو أحد رجالات المقاومة، حكاية المواجهة البريّة

الأولى التي خاضها وإخوانه مع الإسرائيليين والتي أدت في المحصلة النهائية إلى عزل العديد من ضباط الغزاة.

كان الإسرائيليون، كما في كُلِّ تقدُّمٍ بريٍّ، قد مهَّدوا بالنَّار لغزوهم، قصفوا جبل الباط (شكيد بحسب التَّسمية الإسرائيليَّة) المواجه لبلدة مارون، ومشَّطوا جَلَّ الدَّير وغابة مارون ومسارهم بقطرٍ لا يقلُّ عن كيلومتر.. وكان المقاومون ينتظرونهم في تحصيناتهم..

عرف المقاومون بوصول الغزاة إلى الكمين المنصوب.. أُعطيت الأوامر لمقاوم واحدٍ بالتَّصرُّف..

أطلَّ المقاوم المفوَّض بفتح المواجهة ليجد الإسرائيليين على بعد «خمسة أمتار منه»، كما يقول أبو حيدر، ويضيف: لن أقول مترين فقط، كما روى المقاوم صادقاً..

من تلك الأمتار القليلة صوّب المقاوم سلاحه الفردي، وقتل الجندي الأوَّل وانكفأ.. والسَّلاح الفردي كان رشَّاش كلاشينكوف، «نعم، كلاشينكوف، هو سلاحُ فعَّال»، يقول أبو حيدر.

إطلاق نارٍ كثيفٍ غطَّى المكان، فبدأ الإسرائيليون يطلقون نيران أسلحتهم المتنوعة في كُلِّ اتِّجاه، من دون أن يعرفوا مصدر إطلاق النَّار..

مرَّت دقائق قليلة قبل أن تُعطى الأوامر للمقاوم نفسه باستطلاع الوضع. خرج المقاوم إلى المكان الَّذي أَردى فيه الجندي؛ ليجد ثلاثةً من رفاقه يحاولون سحبه، فعالجهم بالنَّار وأرداهم، وعاد إلى مكانه.

حتَّى هذه اللَّحظة ومجموعة جَلَّ الدَّير لم تنزل ساحة الوغى.. كان المقاوم الأوَّل هو نفسه الَّذي قَلَّب الجبهة الشَّالِيَّة رأساً على عقب، وأردى أربعةً من الإسرائيليين ما بين قتيلاً وجريحٍ وعاد إلى مكانه.

«هاج» الإسرائيليون و «ماجوا» مستعملين مختلف أنواع الأسلحة التي بحوزتهم، إلى أن عاد المقاوم نفسه لاستكشاف موقعته: «لم يسمع أي صوت، كان هناك هدوء تام»، يقول أبو حيدر.

مكان الجنود الأربعة الذين أرداهم وجد المقاوم خمس حقائب عسكرية. أُعطي الأمر للمقاوم بسحبها والعودة إلى مكانه، ففعل.

من يقرأ الرواية الإسرائيلية لموقعة جلّ الدّير، وكيف قلبت قيادتهم وقوّاتهم رأساً على عقب، وفقاً للتفاصيل التي نشرتها صحفهم، وكيف كان الجنود سيكون وراء أقنان الدّجاج في مستوطنة «أيفيم» بعدما وصلتهم الأخبار المساوية لما آلت إليه أحوال رفاقهم في مواجهات الأمتار القليلة على الحدود... لن يخطر بباله أنّ مقاوماً واحداً قام بذلك كلّهُ، وأنّ مخلفات القتلى التي تركوها في الميدان قد سُحبت إلى خارج مارون الراس بعد ساعاتٍ على الواقعة وتحت نيرانٍ كثيفة، وخرجت تلاقيهم على شاشة تلفزيون «المنار» مساء اليوم ذاته كغنائم حربٍ.

أسفرت مواجهات جلّ الدّير وغابة مارون التي تلت موقعة المقاوم عن استشهاد مقاومٍ واحدٍ من المجموعة، هو الشّهيد رضوان صالح من يارون. شابٌ لم يحلّ حمله الجنسيّة الأميركيّة ووضعهُ الاقتصادي المريح دون رغبته وطموحه في الدّفاع عن أرضه.

بعدما أصاب جنوده في جلّ الدّير، عمد الإسرائيلي إلى محاولة احتلال مارون الراس من مدخلٍ آخر. فتح الغزاة الشّريط الحدودي في مقابل بركة الحافور ودخلوا بدبّاتهم إلى الطّريق الرّئيسيّة التي تصل مارون الراس ببلدة يارون. في أعلى الطّريق وعند مدخل مارون كانت مجموعةٌ أخرى من المقاومين بانتظارهم تحت إمرة مقاومٍ مندفعٍ ومدربٍ لم يتجاوز الخامسة والعشرين من

عمره.

ما إنَّ أطلَّ الرّتل العسكري وأمامه جرافة (د ٩)، حتّى قصف قائد المجموعة أوّل دبّابة ميركافا - ٤ كانت تسير خلف الجرافة العسكرية.. احترقت الدبّابة ومعها سُمع صوت المقاوم في كلّ الجبهة المحيطة بمارون وبنت جبيل وعيترون ويارون، يقول: «احترقت أوّل دبّابة، الميركافا عم تحترق قُدّامي». ومع الميركافا قتل المقاوم طاقمها المؤلّف عادةً من أربعة جنود. بعد إصابة الدبّابة الأولى بلحظات، دوى صوت قائد مجموعة مارون الراس عبر اللاسلكي العسكري مبشراً: «قصفت الدبّابة الثانية، وها هي تحترق»... ومع الدبّابة الثانية احترق الطاقم الثاني.

حتّى هذه اللحظة، كانت خسائر الإسرائيليين في مارون الراس قد وصلت إلى ١٢ جندياً ما بين قتيلٍ وجريح، وكان المقاومون قد غنموا الحقائق العسكرية وفيها منظارٌ نهاريّ وآخر ليليّ وعتاد وخرايط. وفي المقابل استشهد مقاومٌ واحدٌ.

أمّا نفسياً، فقد أدّت المواجهات إلى تحطيم معنويات الجيش الإسرائيلي، وإلى تباينٍ هائلٍ في وجهات النّظر بين قادته، وإلى إرباكٍ في كَيْفِيَّةِ مساندة المجموعة العسكرية التي وصفت حالتها، وفق روايات الإسرائيليين أنفسهم، بأنّها في «ورطةٍ كبيرة».

وفيم كان المقاومون ينهالون على القوّة الغازية عند مدخل مارون بأسلحتهم، وصلتهم أنباءٌ عن تغلغل كتيبةٍ إسرائيليةٍ جديدة في البلدة وبين منازلها. حدّدت إحداثيات عسكرية لقائد المجموعة المقاومة موقع المنزل الذي دخله الإسرائيليون، فهجم عليه مع مقاومٍ آخر.

ومن وراء المنزل الذي يقع في وسط مارون سُمع صوت قائد المجموعة وهو



يُبشّر «إخوان السلاح»: «قتلتُ جنديّين إسرائيليين هنا وراء المنزل»، قبل أن يكمل هجومه والمقاوم الآخر بطريقة ما يُعرف عسكرياً بـ «حركة ونار»، أي: مهاجم ومساند يُغطيه. ألقى المقاوم قبيلتين على المنزل، والتفّ من أمامه وهجم عليه.

في مرحاض المنزل المواجه لمصطبة الدّار، كان جنديان إسرائيليّان يختبئان، ومن خلف الباب الذي تخفّيا وراءه أطلقوا الرّصاص من سلاح «ماغ» المتفجّر على المقاوم وهو على سفرة الدّرج، استشهد قائد مجموعة مارون الراس «جواد»، وهو شابّ لم يكمل عامه الخامس والعشرين، وكان ينتظر مولوده الأوّل.

لكن من أين وصل الغزاة إلى داخل مارون؟!

بعد مواجهتي جلّ الدّير على الحدود ومدخل مارون الرّئيسي لجهة يارون - بنت جبيل، عمد الإسرائيليّ إلى دخول مارون من الجهة الخلفيّة عبر جبل كحيل بالاستعانة بفرقة مظليّين. هناك دارت المواجهات بينهم وبين المقاومين من دارٍ إلى دار، ومن جلّ إلى جلّ.

وفي خضمّ المواجهات، وردت إحدائيات عسكريّة عن وجود مجموعة من ضبّاط الاستخبارات العسكريّة الإسرائيليّة في أحد بيوت مارون، وبالتّحديد في منطقة الدّبش المواجهة لبنت جبيل ويارون، وإلى هناك وجّه المقاومون أسلحتهم وقتلوا أربعة ضبّاط اعترفت بمقتلهم إسرائيل.

وفيما كان أبو حيدر يروي للسّفير ملحمة مارون من فوق منطقة جلّ الدّير وغابة مارون، مرّ بالمكان مزارع يحمل كامل عتاده الزراعي. ينده أبو حيدر على المزارع: «جهاد! طل علينا شوي»... يترك جهاد معوله ويقبل على صديقه.

جهاد، المزارع ابن مارون، وهو - أيضاً - مقاومٌ حل رقيقاً له جريحاً تحت

القصف وأزيز طائرة (MK) والمقاتلات الحربيّة، وأخرجه من البلدة إلى حيث تمّ إسعافه.

كان جهاد يرابض مع مقاوم في الجبل الواقع تحت الطريق المشرفة على المنزل الذي استشهد فيه قائد مجموعة مارون. وبالقرب من جهاد ضربتها الـ (MK) بصاروخ أصاب من المقاوم مقتلاً. تأكّد جهاد من أنّه فارق الحياة، وأخذ يعدّ العدّ لسحب جثته حين شاهد مقاوماً آخر في المنزل المقابل وقد أُصيب بثلاث رصاصات قنّاص في خاصرته وهوى أرضاً.

ظنّ جهاد أنّ المقاوم المصاب بالقنص قد استشهد أيضاً. لحظات، وجهاد منهمك في تدبير كيفة سحب جثة المقاوم الأول، رأى مقاوماً آخر يهوي عن جدار الجبل ويناديه طالباً المساعدة. كان هو نفسه المقاوم الذي أُصيب بالقنص. زحف جهاد إلى حيث المقاوم الجريح، أجرى له ما تيسّر من الاسعافات الأوّليّة، وحمله على ظهره إلى حيث تمكّنت مجموعة أخرى من المقاومين من سحبه خارج البلدة..

«المهمّ أنّه اليوم بخير»، يقول جهاد وهو يستأذن للمغادرة نحو حقله. إثر المواجهات التي دامت نحو عشرين ساعة، والإرباك الذي حلّ بالإسرائيليين بعد فقدانهم أحد جنودهم، ويدعى يهونتان فلاسيوك، وهو رقيب أوّل في وحدة إيغوز من لواء المشاة غولاني من كيبوتس لاهف، وعمره ٢١ سنة، عادوا وعثروا عليه تحت جدار إحدى الطرقات بعد مقتله، انكفأ الإسرائيليون عن المواجهات المباشرة. في غضون ذلك وفيما كان أحد المقاومين في طريقه إلى خارج مارون تواجه مع جندي إسرائيلي عند مدخل أحد منازل البلدة، فقتله وأكمل طريقه.

مع انتهاء مواجهات الساعات العشرين، كانت المقاومة أمام خيار «ما

### العمل بعد الانتصار في مارون؟

ساهمت طبيعة مارون الراس الجغرافية الجرداء، وخلوّ البلدة من البساتين الكثيفة، وافنلاش طرقها المفتوحة، التي تصلها بنت جيبيل من جهة، وعيترون من جهة ثانية، وبيارون من جهة ثالثة، في قرار المقاومة الاكتفاء بهذا القدر من الإنجازات والمواجهات فيها: «لم يكن من السهل دعم المجموعة الموجودة في مارون، ولم نكن نريد التضحية بهم، فأعطيت الأوامر لهم بالإنكفاء نحو مواقع أخرى»، يقول أبو حيدر.

كان المقاومون على موعد آخر مع مواجهات بنت جيبيل ومربّع التحرير. أدّت مجموعة مارون الراس قسطها، ألحقت بالغزاة شرّ هزيمة، وحطّمت معنويات جنودهم في ضربتهم الأولى، وذاع صيتها كمؤشر - عنوان لمسار حربٍ عادت وانتهت كما بدأت في مارون الراس، «رجالٌ يعرفون كيف ينتصرون وننتصر معهم»، كما قالت عنهم والدّة أحد شهداء مارون. كانت أمّ عيسى تتبادل وجارتها أطراف الحديث عن مواجهات جلّ الدّير وغابة مارون لما قالت: «الغابة عادية، يعني: ما فيها وحوش وأُسود...». فردّت الجارة: «لأ يا أمّ عيسى ما تغلطي، رجال المقاومة هم أُسود الغابة».

## العلامة النكراني رحمته الله

### رجل العلم والجهاد

#### □ إعداد: هيئة التحرير

في الوقت الذي كانت هيئة التحرير مشغلة بإعداد العدد (٥٦) من رسالة الثقلين نعت الحوزة العلمية لمذهب آل البيت عليه السلام ركناً من أركانها، وهو آية الله العظمى الشيخ محمد الفاضل النكراني. ونحن بدورنا - بعد أن نقدّم العزاء بهذا المصاب الجليل لقائد الأمة الإسلامية، وسائر أعلام الحوزة العلمية وطلابها، ولأسرة الفقيد المحترمة - أحببنا أن ننعي هذا المصاب الجليل إلى قرائنا الأعزاء عن طريق ذكر لمحة من حياة الفقيد العامرة بالعلم والعمل الصالح. في أسرة علمية، وفي بيت من بيوت الصلاح والتقوى، وفي كنف والده الكريم، وُلِدَ سماحة الشيخ محمد الفاضل في مدينة قم المقدسة في سنة ١٣٥٠ هـ؛ حيث راح والده يوليه عناية خاصة حتى أنهى دراسته الابتدائية التي كان متفوقاً في جميع مراحلها، لا فقط على زملائه في المدرسة، بل على جميع طلاب المدارس في مدينة قم المقدسة. وبعد فراغه من هذه المرحلة الدراسية، توجه سماحته باهتماماته إلى حيث

الحوزة العلمية في قم، التي شغفته حباً وأبهرت شوقاً إلى علومها، فالتحق بها بادئاً بذلك مشواره العلمي، وهو في سنّ الثالثة عشرة من عمره المبارك، وكان فيها نموذجاً رائعاً للطلاب المنظمّ في تفكيره، المواظب في عمله.

عُرِفَ بدقته وجديته وحبّه لدرسه، مع ما اتّسم به من قدرة فائقة على تنظيم أعماله الحوزويّة ومتابعاته العلميّة والفكرية، ممّا جعله أكثر تفوّقاً من غيره وأسرع اجتيازاً للمراحل الدراسيّة المشهود لها في الحوزة بالصّعوبة، حتى أنجزها بصورة كاملة دقيقة مستوعباً جميع موادها، متقناً بحوثها، فكان حقّاً طالباً منتفعاً، ثمّ فيما بعد، أستاذاً نافعا؛ حيث انتفع به وببحوثه وأخلاقه جمعٌ غفيرٌ من فضلاء الحوزة وعلمائها. وكانت تربطه بالمرحوم الشهيد آية الله السيّد مصطفى الخميني رحمه الله، النّجل الأكبر لسماحة الإمام الخميني رحمه الله، والزّميل المرافق له في دراسته، علاقةً متينةً وصداقةً حميمة. وعن هذه العلاقة التي دامت سنين طويلةً إلى حين انتقال الأخير إلى بارئته يقول سماحته: «كان لوجود هذا الصديق العزيز أثرٌ قويٌّ عليّ، راح يشدني أكثر فأكثر إلى السّبيل الذي سلكته، فقد كنّا صديقين متعاونين ننذاكر دروسنا ونتباحث فيها».

بلغ شيخنا المرحوم المراحل العُليا في الدّراسة الحوزويّة بوقتٍ قياسيٍّ، وبدرجة استيعابٍ عاليةٍ أدهشت أساتذته وزملاءه ومحبيه. حتّى قال عنه أستاذه آية الله العظمى المرحوم السيّد البروجردي رحمه الله بعد أن رأى تقارير درسه مكتوبةً بقلمٍ عربيٍّ مبين:

«لم أكن أتصوّر أنّ هناك مَنْ يفهم رموز وخصوصيّات دروسنا، ويكتبها بعباراتٍ عربيّة جيّدة ومفهومة في هذا السنّ المبكر». وفي أحد الأيام، وبينما لم يكن عمر الرّاحل يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، أشار إليه السيّد البروجرديّ قائلاً لتلامذته: «إنّ هذا مجتهد».

ثمّ، وما إنّ شرع الإمام الخميني رحمه الله بإلقاء بحوثه العلميّة حتّى بادر عددٌ

كبيراً من الطلبة بحضور حلقات درسه، ينهلون من نير علمه وينتفعون بأخلاقه العالية ويأخذون بإرشاداته وتوجيهاته الإسلامية، وكان شيخنا الفقيه من بين أولئك الطلبة الحضور، بل من أوائل المشاركين في هذه الدروس، حتى قضى سبع سنواتٍ من عمره بين يدي السيد الإمام، مُنهيّاً بها دورةً كاملةً في أصول الفقه، في مباحث الألفاظ والمباحث العقلية. ومشاركاً في دورةٍ فقهيةٍ كان الإمام يعقدها. وقد تميّز بالمواظبة على الحضور، وتقرير دروسه بدقةٍ بالغة، حتى بلغت تلك التقارير مجلّداً ضخماً في أبوابٍ فقهيةٍ متعدّدة.

وإلى جانب دروس الفقه والأصول، راح الشيخ محمد الفاضل يتلقّى دروساً في التفسير والفلسفة، على يدي العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي رحمته الله صاحب تفسير الميزان؛ حيث درس عنده شطراً من منظومة السبزواري وأسفار الملاء صدرا، بالإضافة إلى المشاركة في حلقاتٍ أخرى عقائدية وأخلاقية.

منذ أن بدأ الإمام الخميني رحمته الله في عصرنا هذا يعدّ عدّته ويهيئ نفسه وفتات الشَّعب المضطهد لمواجهة الشَّاه والحفنة الفاسدة المتسلّطة التي كانت معه، راح سماحة الشيخ محمد الفاضل يتابع أستاذه في خطواته الجهادية، إيماناً منه بصحّة موافقه وصوابيّته، وأنها تعبّر عن الوظيفة الشرعيّة، ولما أمر النظام جلاوزته بإلقاء القبض على الإمام، وزجّه في السجن، أصدر اثنا عشر من علماء الحوزة وأساتذتها، منهم الفقيه الراحل، بياناً يطالبون فيه رأس النظام بإطلاق سراح الإمام. وكان من نتيجة ذلك أن أوْعز النظام بإلقاء القبض عليه، وتسييره ونفيه إلى «بندر لنگه»، وهي منطقةٌ في إيران تُعرف بحرارتها المرتفعة جدّاً، فقضى في هذا المكان النائي أربعة أشهر، رأى فيها سماحته: أنّها كانت بقدر أربعين سنة؛ لمرارتها وشدة محتتها. ثم نُقل من جديد إلى مدينة يزد بعيداً عن الحوزة العلميّة، فقضى فيها سنتين ونصف السنة، وبرغم ما قاساه فيها من الآلام والمعاناة، إلّا

أنّه اشتغل هناك بالتحقيق والكتابة مستفيداً من هذه الخلوة التي فرضت عليه إجباراً.

ومن جهةٍ أخرى، فقد استغلَّ ﷺ وجوده في يزد لبناء علاقة متينة سرّاً مع شهيد المحراب آية الله صدوقي ﷺ، وراحا مع ثلّة مؤمنة يهيئون الناس ويمهّدون الطريق للثورة. وقد أثمرت جهودهما هذه أنّ كان أهل يزد من السّباقيين الذين لبّوا نداء الثورة، وقدموا كثيراً من الشهداء، حتّى حقّق الله لهم وللشعب الإيرانيّ المسلم النّصر المبين، الذي تكلّل بإقامة حكومة إسلاميّة طالما حلم بها الجميع.

وفي يوم السّبت الواقع في ١٦ / ٦ / ٢٠٠٧ م انتقل إلى رحمة الله تعالى؛ لتُثلم بذلك ثلثة جديدة في الإسلام لا يسدّها شيء، فنسأل الله تعالى أن يُسكنه فسيح جنانه، ويحشره مع محمّد وآله الطّاهرين ..

□ إعداد: هيئة التحرير

وأكد الباحثون في بيان لهم أنه على مدار إحدى عشرة سنة من البحث الدؤوب في مقر الشركة بمدينة (سرس الليان) بمحافظة المنوفية شمال مصر، والتي يرأسها رجل الأعمال الدكتور إبراهيم كامل، توصل الباحثون لكشف الشفرات الربانية التي يخاطبنا بها الله سبحانه وتعالى في آيات القرآن الكريم حتى اليوم وإلى يوم القيامة. وقالت هناء جودة سيد أحمد، نائب رئيس مجلس إدارة الشركة: توصلنا بعد أحد عشر عاماً من البحث الدؤوب لفك الشفرات الربانية للقرآن الكريم، التي تركّزت في رقم (١٩) من خلال قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ

(١)

الشفرة القرآنية:

تمكّن عددٌ من الباحثين الإسلاميين في إحدى شركات البرمجيات المصرية من التوصل إلى كشفٍ علميٍّ جديدٍ يؤكد أنّ القرآن الكريم نزل من عند الله سبحانه وتعالى يحمل (شفرة رقمية ٦) على النبي الأكرم محمد ﷺ، يستحيل معها على الإنس والجان التعرّض لآيات القرآن الكريم بأيّ تأويل أو تحريف، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وهو ما أقرّته جامعة الأزهر من خلال إجازة هذا الكشف عبر اللجنة الشرعية بالأزهر.



عَشَرَ ﴿ المدثر ٣٠ ﴾. وأضافت:  
 حينما قرأنا الآية القائلة: ﴿لَيْسَتَيْنِ  
 الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَيْنَا  
 وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَالْمُؤْمِنِينَ﴾  
 (المدثر ٣٠)، وجدنا مجموع  
 حروفها (٥٧) وأنها تقبل القسمة  
 على (١٩)، ثم بحثنا في ترتيب  
 نزول سورة (المدثر) المباركة  
 فوجدناها الرابعة، ثم السورة  
 التالية (الفاتحة) التي وجَّهنا المولى  
 عزَّ وجلَّ لأن نجعلها فهرس  
 القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ  
 ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ (الحجر:  
 ٨٧)، فقمنا بجمع حروف القرآن  
 والآيات الشفع والوتر، فظهرت  
 لنا أرقام تقبل القسمة على (١٩)،  
 وإذا أضفنا لها مجموع حروف (بسم  
 الله الرحمن الرحيم) وجدناها تقبل  
 القسمة أيضاً على (١٩). وتابعت  
 هناء: إنَّ هذا الاكتشاف العلمي  
 يمثل طفرة تؤكد استحالة تحريف  
 القرآن الكريم، وإمكانية كشف  
 حدوث أيِّ تحريف عن طريق هذه

الشفرات الربانية، وكذلك يمكن  
 استخدامها في كشف التحريف في  
 الكتب السماوية الأخرى، وقمنا  
 بالفعل بتطبيق ذلك على  
 الصفحات الـ (٢٠٠) الأولى من  
 التوراة، فوجدنا حدوث تحريف  
 في النص، وحينما حذفنا كلمة  
 (إسحاق) ووضعنا بدلاً منها  
 (إسماعيل)، تمَّ ضبط الشفرة  
 ومطابقتها للنص. وأوضحنا أنَّه  
 ثبت لديهم يقين رياضي بالإعجاز  
 العددي في القرآن الكريم، ممَّا يؤكد  
 دون أدنى شك أنَّه مُنزل من عند  
 الله تعالى، ويستحيل على البشر أو  
 الجن الإتيان بمثله، منوَّهةً إلى أنَّ  
 الشفرات الربانية رجَّحت احتمال  
 وجود «نموذج رياضي معجز  
 للقرآن الكريم»، وأنَّهم يجرون  
 بحوثهم حالياً لكشف أسرار هذا  
 النموذج الرياضي. وأشارت هناء  
 إلى أنَّه تمَّ تسجيل الكشف الجديد  
 بحقوق الملكية الفكرية الدولية،  
 باستخدام البصمة الرقمية من

خلال اللجنة الشرعية التي يرأسها الدكتور نصر فريد واصل، مفتي الجمهورية الأسبق، وضمت الدكتور محمد الشحات الجندي العميد السابق لكلية الحقوق بجامعة حلوان، والدكتور عبدالله مبروك النجار أستاذ الشريعة بجامعة الأزهر، وقام بالإشراف على جميع مراحل التدقيق لجنة المصحف الشريف بمجمع البحوث الإسلامية برئاسة الدكتور أحمد المعصراوي أستاذ علوم القرآن بجامعة الأزهر، وشيخ عموم المقارئ المصرية.

## (٢)

### موسوعة الصحيفة السجادية:

انطلاقاً من عدم توفر أي عمل موسوعي يتكفل سبر أغوار مضامين الصحيفة السجادية، وبملاحظة ما تشكّله الصحيفة من مرجع أساسي معرفي وروحي على المستويين الديني والإنساني، كانت

فكرة مشروع الصحيفة السجادية، التي قام بها معهد المعارف الحكمية في بيروت بإشراف الشيخ شفيق جرادي.

ويعتمد المخطّط العام للموسوعة من اعتبارات ثلاثة: أولاً: ملاحظة خصوصيات العمل الموسوعي، وهي ثلاثية: اللغة، المصطلح والدلالة.

وثانياً: خصوصية الصحيفة السجادية عبر تقسيم المحتوى العلمي والمعرفي إلى أنظمة معرفية يكون كلّ واحد منها متصمناً لرؤية محددة ومعقّدة وكاملة.

ثالثاً: المنحى التفسيري، ويعتمد فيه على ما يطلق عليه تسمية (الوحدة الدعائية)، أي: الدعاء بما هو موضوع مستقل للخروج برؤية شاملة ومعقّدة على أن يبقى عنوان الدعاء وموضوعه المحور الذاتي الذي يدور حوله كلّ ما ينتج عن عملية التفسير. والمنشود في المشروع العمل على

مراعاة الجمع بين الأكاديمية والموضوعي مع الالتزام بمحتوى النص.

تقسيم عمل الموسوعة:

في قراءة متأنية تم التخطيط لعمل الموسوعة على أقسام ثلاثة:

(١) المصطلح (المعجم).

(٢) الأنظمة المعرفية (دراسات وأبحاث).

(٣) التفسير بالوحدة الدعائية.

(٤) بحث في الموضوعات والمفاهيم المستفادة.

الأنظمة المعرفية في الصحافة:

النظام هو مجموعة من الأفكار والمفاهيم التي تتمحور حول موضوع واحد (العوارض الذاتية)، وترتبط فيما بينها لتشكّل اتجاهًا معرفيًا خاصًا للاندراج في إطار واحد، وتألّف كلّ منظّم ومنسّق. والأنظمة المقترحة هي التالية: النظام المنهجي الأخلاقي، العرفاني، العقائدي، الفلسفي، الإنساني، الأدبي، البلاغي،

اللغوي، التربوي والنفسي، الدعوة والتبليغ والاتصال، العبادي، الحقوقي والسياسي.

وأما كيفية العمل بالأنظمة فهو الأخذ بأبرز المصطلحات والمفاهيم الواردة فيه، ومعالجتها على ضوء كليات العلم، وتحديد مرجعياتها الإنسانية والدينية.

التفسير بحسب الوحدة الدعائية:

اعتبار كلّ دعاء وحدة متكاملة لإيجاد تلك الحالة من الترابط الوثيق بين كافة أجزاء الدعاء وعنوانه مع غرض النظر عن موقعية هذه الأجزاء في الدعاء.

وخصوصية هذا المنهج التفسيري أنه يجمع بين النمط التفسيري والموضوعي.

موضوعات الصحافة السجادية:

محاولة استخراج مفاهيم أساسية إسلامية.

إصدارات الموسوعة السجادية:

صدر إلى الآن ثلاث مجلدات هي التالية:

الأول: الصَّحيفة السَّجاديَّة، الدِّراسة السَّنديَّة، البيلوغرافيا، النَّص.

الموضوع الأوَّل في هذا المجلد تمَّ التَّعرُّض فيه للبحث السَّندي، باستعراض كُلِّ شخصيَّة وقعت في سند الصَّحيفة، ثُمَّ عرض الأسانيد والإجازات. وأمَّا الموضوع الثَّاني فهو حول بيلوغرافيا الصَّحيفة، من خلال عرض مخطوطات الصَّحيفة وشروحها وترجماتها. والموضوع الثَّالث هو إدراج متن الصَّحيفة مع ضبطه.

الثَّاني: الصَّحيفة السَّجاديَّة، مصادر الصَّحيفة، دراسة في التَّحليل الكمي.

وأعدَّ هذا المجلد برهان بخاري وعرفان برهان بخاري. وهو عبارة

(٣)

إصدارات:

الكتاب: حياة مُحَمَّد ﷺ.

عن معجمٍ يعتمد على أساس المفردة أو الكلمة دون اعتماد نظريَّة الجذر المتعارف عليها في المعاجم العربيَّة، مع بيان عدد تكرار كُلِّ كلمةٍ منها.

الثَّالث: الصَّحيفة السَّجاديَّة، المعجم المفهرس لألفاظ الصَّحيفة. إعداد: أحمد ماجد، سمير خير الدِّين.

بالاعتماد على منهجيَّة التَّرتيب الأبجدي؛ لأنَّها الأكثر عمليَّة، فيُعِيد الألفاظ إلى جذورها الثَّلاثيَّة التي اشتقَّت منها، مع مميزات في هذا المعجم، وهي تحديد عدد المرات التي ورد فيها اللَّفظ مع الإشارة إلى أنَّ هناك العدد الكُلِّي الَّذي يرصد تمام عدد المرات التي ورد فيها الفعل واشتقاقاته، بالإضافة إلى عدد كُلِّ اشتقاق على حدة.

تأليف: مُحَمَّد حسين هيكَل.

تعليق: السيّد عبد الرحيم  
الحصيني

مراجعة: الشيخ أبو الفضل  
الإسلامي، الشيخ محمد هادي  
اليوسفي الغروي والسيّد منذر  
الحكيم.

تحقيق: حسين رفعت الصالحي،  
الشيخ عبد الأمير كمال وند، الشيخ  
علي بهرامي.  
الناشر: المجمع العالمي لأهل  
البيت عليه السلام.

تاريخ الطبع: ١٤٢٨ هـ.  
عدد الصفحات: ٨٩٥ صفحة  
عادية.

تصدّى المجمع العالمي لأهل  
البيت عليه السلام لاختيار كتاب (حياة  
محمد) لمؤلفه الأستاذ محمد حسين  
هيكل، بهدف تحقيقه والتعليق  
عليه؛ فقد كان هذا الكتاب نافذةً  
لوعية الأمة ووسيلةً لتقريب  
وجهات نظرها، وجعل القارئ  
وجهاً لوجه أمام سيرة نبيّه  
الكريم صلى الله عليه وآله. وسيكتشف القارئ أنّ

السيرة النبويّة إذا كتبت أو درست  
بمعايير الرسالة، فستكون أداة  
تقريبٍ وتفعيلٍ لحركة الأمة  
وجهادها ووعيها ووحدة صفّها.  
وقد لخص هيكل منهجه في  
دراسة التاريخ بأنّ على من يدرس  
التاريخ أن يتجنّب سلطان الهوى  
وحكم المزاج، ولا سبيل إلى تجنبها  
إلاّ من خلال التقيّد بالطريقة  
العلميّة أدقّ تقيّد، والناس على  
اختلاف مشاربهم الفكريّة  
والعقديّة وتنوّع أمزجتهم  
وأهوائهم لا يجمعهم من وجهة  
نظره سوى العلم والمنهج العلمي.  
وبفعل وجود العديد من  
مواطن الضعف في مؤلّف الأستاذ  
هيكل هذا، تصدّى المجمع العالمي  
لأهل البيت عليه السلام للتعليق على جملة  
من موارده، لكن بالمقدار الذي لا  
يغيّر هيكلتيّه وطابعه العام، وقد  
سجّل المعلق في مقدّمته التي حملت  
عنوان (المدخل) جملة من نقاط  
الضعف الموجودة في الكتاب،

وعلّق على بعض مواردّها بما يراه مناسباً. ولا تفوتنا الإشارة إلى الجهود التحقيقيّة التي أمّنت

الكتاب: تلخيص كتاب أئمة أهل البيت عليهم السلام في كتب أهل السنّة. تأليف: حكمت الرحمة. الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

تاريخ الطبع: ١٤٢٨ هـ. عدد الصفحات: ٢٦٦ صفحة رقعي.

صدر عن المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام كتاب (تلخيص كتاب أئمة أهل البيت عليهم السلام في كتب أهل السنّة) للشيخ حكمت الرحمة، وهو جهد مبارك سعى فيه المؤلّف إلى التعريف بأئمة أهل البيت عليهم السلام كما هم في أعين أهل السنّة. وقد صدر المؤلّف كتابه بفصلين تطرّق فيهما إلى بعض الآيات والروايات الواردة في فضل أهل البيت عليهم السلام،

للقارئ إمكانيّة الرجوع إلى المصادر الأمّ للتحقّق بنفسه ممّا جاء في الكتاب من معلومات.

بينما خصّص الفصول الثمانية التالية لنقل أقوال علماء وأعلام أهل السنّة في فضلهم، مقتصرّاً في الروايات على ما صحّ عندهم، دون ما ضعّفوه، إلّا ما كان على سبيل الشاهد والمتابع ونحوهما. أمّا الفصل الأخير، فقد خصّصه للحديث عن الإمام الحجّة عليه السلام، مشيراً في بدايته إلى مسألة المهدويّة في الفكر الإسلامي، قبل أن يتطرّق إلى ولادته، حيث ذكر طائفتين من أقوال علماء أهل السنّة في ذلك.

وفي الخاتمة تناول المؤلّف مسألة التمسك بأئمة أهل البيت عليهم السلام، ليختتم الكتاب بملحق تعرّض فيه لترجمة أكثر الشخصيات السنيّة القائلة بولادة الإمام الحجّة ابن الحسن عليه السلام أو بمهدويّته.

الكتاب: جهود أهل البيت عليه السلام في الحفاظ على السنة الشريفة.

تأليف: السيّد علي حسن مطر الهاشمي.

الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام.

تاريخ الطبع: ١٤٢٨ هـ.

عدد الصفحات: ٨٥ صفحة

متوسط الحجم.

صدر كذلك عن المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام كتيب (جهود أهل البيت عليه السلام في الحفاظ على السنة الشريفة) للسيّد علي حسن مطر الهاشمي، الذي تناول فيه المسألة باختصار غير مغلّ: فبعد أن مهدّ المؤلف للبحث بمقدمة بيّن فيها مكانة السنة في التشريع وأتمّها المصدر الثاني للتشريع الذي يقف إلى جانب القرآن الكريم، انتقل إلى

المجالات التي نشط فيها أهل البيت عليه السلام لتحقيق هذا الهدف. والمجال الأوّل هو حثّ أهل البيت عليه السلام أتباعهم على تلقي الحديث وروايته وتدوينه. والمجال الثاني عبارة عن ممارسة أهل البيت عليه السلام أنفسهم لتدوين الحديث الشريف. وتناول في المجال الثالث إشراف أهل البيت عليه السلام المباشر على حركة الحديث روايةً وتدويناً. وتعرّض في المجال الرابع وباختصار إلى ما وضعه أهل البيت عليه السلام من الضوابط التي تؤدّي إلى العلم بصدور الحديث عنهم أو عدم صدوره، إضافة إلى الضوابط التي يعلم من خلالها صدور الحديث عنهم بنحو الإرادة الجديّة أو على نحو التقيّة.

\* \* \*

## قسمة الاشتراك

الاسم :  
العنوان :  
المدينة :  
البلد :  
المهنة :  
مدة الاشتراك :  
ابتداءً من :  
عدد النسخ :

### رسالة الثقلين

#### مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك  
الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر  
□ الجمهورية الإسلامية في إيران  
(بالريال) ١٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠  
□ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي  
٣٠ ١٥ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: □ صك □ صك بريدي □ حوالة بريدية  
أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:  
الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥

### الاشتراكات:

□ داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٢٠٠٠٠ ريال)

بحوالة مصرفية على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم - بنك تجار / شعبة سميّة، شارع سميّة - رقم الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ - ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام).

□ خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم - بنك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٧٠١ - ٢٠٠٦٥ (بالدولار).



## ثمن النسخة:

☐ الجمهورية الإسلامية في إيران ٥٠٠٠ ريال.

☐ وفي باقي دول العالم ٧ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)  
World Assembly

## **RISALATUTH - THAQALAYN**

**A General Islamic Periodical**

**Vol . 1 4, No . 5 6, June – Aug 2 0 0 7**